

حنان الشيخ

حكايتي شرح يطول

دار الآداب

حكايتي شَرْحٌ يطول



حنان الشيخ

حكايتي شَرْحٌ يطول

رواية

دار الآداب - بيروت

حكايتي شَرْحٌ يطول

حنان الشيخ/روائيّة لبنانية

الطبعة الأولى عام 2005

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

كاملة

يقول لي أبي في إحدى زيارته لي في بيروت، وهو يضع الطربوش على رأسه حتى يبدو أكثر طولاً إذ كان بالغًا في قِصره:

« سمَّيتك كاملة، لأنَّك خلقت كاملة الملامح والتكاوين، وسمَّيت أخاك كامل، مع أنَّ الكامل هو النبيّ محمد (ص).. بس يللا معليش أنا كريم! ».

جملته الأخيرة هذه جعلت ردِّي عليه يزدحم في حنجرتي، يكاد يخنقني، ومع ذلك مضيت أخبط « بالدقماقة » على « البلاطة »، ولكن هذه المرة خبطًا عنيفًا جعل قطع اللحم تتطاير من حولي.

« شو يابا مفكرة حالك، عم تضربي مدافع؟ »

أضحك لتشبيهه هذا، وأصالحه من كل قلبي.

«لما إجا كامل جبنا بدوية ترقص وتغني ثلاث ليالي»، يأخذ أبي في الرقص والغناء مقلِّداً البدوية، أُسرع تاركةً اللحمة على «البلاطة»، وأنهض ممسكةً بالدقماقة في يدي، وكأنَّها منديلٌ وأبتدئ بالرقص معه، ندبك، ونغني:

«على الدلعونا وعلى الدلعونا

راحوا الحبايب ما ودّعونا

ما بدّي أمي ولا بدّي بيّي

بدي حبيبي أسمر اللونا»

لكنّ أبي يقلب الأغنية:

«على دلعونا وعلى دلعونا ورفقات بنات بنتي حلوات يا عيونا..

وعلى دلعونا وعلى دلعونا ما بعرف شو البنات سوّت فيه يا عيونا..

غطّوا سيقانن وغطّوا فخاذن، وتركوا قلبي يبكي عليهن دموعا..»

أضحك على أغنيته هذه، وأعود الى «البلاطة»، فيما تصيح زوجته التي كانت تصغرني سناً وهي تجلي الصحون خلف المجلى: «يا عيب الشوم شخت وما تبت يا شيخنا».

لكنَّ أبي يمضي مكمِّلاً أغنيته:

«على دلعونا وعلى دلعونا، وجنس حوا بغار يا عيونا...

وانتبهي يا مرتي عم قلك انتبهي وإلاّ بتجوز عليك واحدة بتكحلّي عيونا...

ولازم نتذكّر شو قال الامامُ علي: غيرة المرأة أعظم كفر يا عيونا...»

يمدّ أبي يده إلى «الفراكة» الثالثة، بينما لا أزال أنا وزوجته نمضغ «فراكتنا» الأولى، ونتلذّذ بها.

يلاحظ إستهجاننا ويعلّق: «قال أبو تمام، بنت الكريم، لا بدّ أن تكون كريمة».

وعرفت أنّه يفبرك هذا القول، ولم أضحك، فحنجرتي تخنقني من جديد.

«بنت الكريم...! إنت كريم؟ مشان هيك كنت تضيّعني أنا وأخوي في سوق النبطية حتى ما تشتريلنا لحمة؟ تركتنا حتى صرنا هفيانين السكر واللحمة، وانجبرنا نروح عا بيروت... وعمرها ما كانت روحة... لو ما بيروت ماكنش الجردون علّقني هيديك العلقة... بتقول عن حالك كريم؟... مشان هيك منعت عنّي الأكل، وجوّعتني، وبعتني بعشر ليرات ذهب، وعمري ١٣ سنة؟... يا ويلك من اللّه...»

أقول هذا لأبي في قلبي فقط، وأنا أمدّ له «بالفراكة» الرابعة.

منذ أن وعيت أراني ألحق بأبي مع أخي كامل، تلحق بنا دعوات أمي من أجل أن يقتصّ منه اللهُ، فهو تركنا عندما وقع في غرام امرأة أخرى، فطلّق أمّي، وتزوّج تلك المرأة. رفعت أمي شكواها إلى المحكمة في النبطية ليدفَع لها «الكَلَفْ» من غير جدوى. نبحث عنه ليشتري لنا الطعام، نعدو فوق الحجارة، نقصد بيته في القرية المجاورة، نلحق به إلى سوق النبطية، نسأل عنه، نستدلّ أخيراً على مكانه من صوته وقهقهته العالية، ونطلب إليه أن يشتري لنا السكّر واللحمة، تماماً كما أوصتنا أمنا. يوافق على الفور، وهو يمازحنا تارةً، وينهرنا تارةً أخرى، طالباً إلينا اللّحاق به، فنسرع خلفه، بين أكوام أكياس البرغل والعدس، بين الجمال والحمير والخرفان والدجاج والدّلالين والمنادين على بضائعهم. يزوغ منّا، ثم يظهر لنا، ليختفي من جديد. ينادي أخي كامل اسم والدي على مدى صوته، فيعلّق رجل كان يبيع جلود الخرفان: «صوتك يا ولدي مثل الضرطة في سوق النحّاسين والدقّاقين».

نعود إلى أمنا التي كانت تنتظرنا عند أخيها الاسكافي الذي كان ينتحي زاوية في السوق، وعندما لا ترى إلاّ أيادينا الفارغة، يتجهّم وجهها، وتقسم بأنّها سوف تشكوه من جديد. نعود إلى البيت من غير اللحمة أو الأرز أو السكّر. تعدّ لنا أمي «كبّة بندورة» «تفعسها» و«تمرتها» بأصابعها، فيفرّ «الزوم الأحمر». ترى؟ هل تشعر بذور البندورة بالألم لذلك تحاول الفرار؟ ألا تردّد أمي وتقول دائماً إنّ أبي «مرت قلبها أي فعسه؟»

تطيِّب أمي خاطرنا وهي تجبل الكبّة: «يلّلا ما هي حمرا.. وفيها برغل مثل الكبّة الأصليَّة» الكبّة الأصليّة؟ أين البلاطة إذاً؟ أين اللحمة المفلوشة على أرض البلاطة؟ أين الدقماقة الخشبية، التي أحزرها من بين آلاف مثلها؟... الكبّة الأصليّة؟ لماذا لا تنتشل أمي الشرايين البيضاء كالخيطان وتكوِّمها على حِدة، حتى تصبح اللحمة كأنَّها كوز تين مقشَّر؟

تأخذنا أمي في اليوم التالي إلى المحكمة، تقول لرجل يضع على رأسه عمامة مثل البطيخة: «جوزي مش عم يدفع الكَلَفْ، من وين بدِّي طعمي هالولديْن. بقطع شقفة من إيدي؟ كيف بدِّي أكسي هالولديْن، بسلخ جلدي؟» نسمع الرجل ذا العمامة يقول كلاماً كثيراً، فتثبتُ جملة في رأسينا: «الكَلَفْ راح يجيك عا نصف دارك».. وما إن نصل إلى البيت حتى أخذتُ أقيسه بخطواتي، كما كنت أرى الكبار يفعلون وهم يقيسون كلّ شيء حتى القبور، ثم أصل إلى نصف الدار، وأجلس عند العلامة أنتظر «الكَلَفْ». تأتي جارة قريبة لنا تقدِّم النصيحة لأمي: «ورّيلو الأولاد حاج تقهري حالك!» تصيح بها أمي: «روحي قبل ما أحملك من أجريك وأيديك وورّك (أرميك) على الصبّيرات».

ولم يأتِ «الكَلَفْ». وبينما كانت أمي في الحاكورة تقطف ما زرعته من فول، وما اقتلعته من هندباء وعلت وسليق بريَّة، جاء أبي يطلب إلينا مرافقته إلى السوق ليشتري لنا الملابس واللحمة والسكّر

والدبس والحلوى. حماستنا أنستنا أن نزفّ الخبر إلى أمنا، فنهرع إلى أبي حفاة، نعدو خلفه وهو يزيد من وعوده: «وكمان بدّي اشتريلكم صبابيط جديدة عم تلمع مثل المراية». يسلك بنا طريقًا بين الحجارة والأشواك وبعض الأشجار، ونعرف أنَّها لم تكن الطريق إلى السوق، بل حيث يعيش هو وزوجته الجديدة. يبادرها ما إن وصلنا: «بدّها تكون أشطر منِّي؟ يللاّ خلليهم يعيشوا معنا بلا كلَفْ وبلا وجع راس».

كم كانت الليلة طويلة، نتقلَّب معًا، ونفكِّر بأمنا التي لا بدّ أنَّها أيقنت أنَّ الضبع قد بال على قدم أحدنا، وساقنا إلى المغارة، وفصفص «لحمنا عن عضمنا»، أو أنَّ الأرض انشقَّت وبلعتنا، أو أنَّنا وقعنا في بئر ما وغرقنا... لكنَّ أخي يطمأنني أنَّ الأولاد الذين كنَّا نلعب معهم سيخبرونها أنَّ والدنا قد جاء واصطحبنا معه... ننام متلاصقين، أسمع ضربات قلب أخي، ويسمع هو ضربات قلبي. أسمع الريح وأظنّ أنَّها أنفاسه فأحدِّق إلى أنفه. ننهض في الصباح، ولا أفهم نظرات زوجة والدي لأنَّها كانت خضراء العينين. كنت أفهم نظرات أمي، وأعرف أنِّي أحبُّها، وأعرف أنَّه لا يجب أن أحبّ زوجته هذه لأنَّ أمي لا تحبُّها. أحدِّق إلى عينيها أحاول أن أكتشف سرّ لونهما الأخضر. هل لأنَّها تطحن الحجر الملوّن الذي نجده في الحواكير؟ فأمي سوداء العينين لأنَّها كانت تدقّ الحجر الأسود وتتكحَّل به.

يصبح اشتياقنا لأمّنا عظيمًا لدرجة أنّنا لم نستطع أن نبلع طعام فطورنا، رغم الدبس والسكّر، إلاّ حين رشفنا الشاي بعد كل لقمة.

يمرّ الوقت بطيئًا، خصوصًا أنّنا كنّا في فصل الصيف، ووالدي لم يكن يعلّم الأولاد في مدرسته.

أجلس وأخي متلاصقين ننتظر المساء. نقرِّر الهرب قبل أن تغرب الشمس بقليل من غير أن نخطِّط أو نتشاور، إذ تطوف في خيالنا فكرة مجيء الليل، وكيف سنخلد إلى الفراش محرومين من أمّنا التي تنام وسطنا وهي تمدّ يداً لكلّ منّا. ننتظر حتى تضع زوجة والدنا صحنًا من المجدَّرة قرب التنّور حيث اعتادت أن تخبز الخبز. وما إن تختفي داخل البيت لتجلب لنا الخبز حتى يدلق أخي المجدرَّة في حرج ثوبه ممسكًا أطرافه، ويعضّ على شفتيه لأنَّ البخار ما زال يتصاعد من المجدرَّة. نسرع كما جئنا حفاةً فوق الحجارة البنيَّة والحمراء، فوق الغرسات القليلة، غير مبالين بالأشواك، رغم أنّي لم أتوقَّف عن الصراخ.. «الشوكة، الشوكة» وأخي يجيبني: «المجدَّرة عم تحرقني»... لكنّنا نمضي، خائفين من أن لا تكون دربنا صحيحة. أرى جبّ بندورة بين الصخور، وبندورة حمراء كالدحنون (شقائق النعمان)، ومع ذلك لا نتوقَّف إلاّ عندما نرى كروم التين فيطمئنّ قلبانا. نمرّ بـ«سمّ الحيّة»، الغرسة البرتقالية الشبيهة بعرنوس الذرة، إنّما بلا أوراق، والتي كنّا نظنّ أنَّ الثعبان يتركها خلفه حتى لا يضيّع

وكره. نمرّ ببقعة من الرمال ينبت فيها البطيخ والقثّاء، ولا نرى سوى الرمل. نرى البركة الكبيرة، لكن ما إن تتراءى لنا الصخرة الرماديّة اللون الملقّبة بالجمل، لأنّها كانت تشبه الجمل، حتى نتأكّد أنّنا دخلنا قريتنا، وكانت الأشواك أخذت تطير، وتتسلّل إلى داخل فستاني ولحمي، وتنكزني وكأنّها الدبور أم الزرقطة، لكنَّ الشوق إلى أمي وإلى أكل المجدّرة يزيدان من حماستي، فأركض وكأنّي أبلع الأرض، وكأنَّ صخرة الجمل هذه قد حجبت الشمس إذ هبطت العتمة فجأة. ولكنَّ خوفنا لم يكن من الضبع، بل من «علي الأطرش»، المجنون الذي يحمل صندوقًا خشبيًّا يقرّبه من صدره حتى يكاد يلصقه به، فيعلو الصندوق وينخفض كلّما تنفّس أو بكى.

وعينا عليه وهو منكوش الشعر، تائه في البراري، يراشق الصغار بالحجارة. إعتدنا عليه وهو يصيح ويصرخ ويبكي ويتوعّد. قيل إنّه كان يملك الكثير من الليرات الذهبيّة، لكنّه نهض ذات صباح فوجدها قد اختفت من الصندوق الخشبيّ حيث كان قد خبّأها. وعندما وقعت التهمة على أخيه طار صواب علي الأطرش، فمزّق ملابسه وهرب من منزله. يجنّ جنونه كلّما وجد نفسه وحيدًا بعيدًا عن بيته وأهله... يخاف من رشق الصغار له بالحجارة، وهؤلاء كانوا يرشقونه من شدّة خوفهم منه، خصوصًا عندما يصيح ويتفوّه بكلمات لا معنى لها: «ايلو بالأرض.. ايلو بالأرض». أهدّئ أخي مطمئنة إلى أنَّ علي الأطرش لن يمسّنا بالسوء. سيعرف أنّنا ولدا المرأة الملقّبة بـ«المستحية» التي طالما أشفقتْ عليه، وأمسكتْ بيده أينما

رأته، واصطحبته إلى بيتها، وأجلسته على «السطيحة»، وانحنت أمام قدميه الحافيتين، تلتقط له الأشواك الغائرة بملقط حواجبها، ثم تطعمه وتسقيه.

نتساءل هل يرانا في العتمة؟ ولا نتنفّس الصعداء، إلاّ عندما يلوح بيتنا من بعيد، ونعرف أنّنا وصلنا. وقبل أن تكتمل فرحتنا رأينا قامةً تروح وتجيء، لا بدّ أنّه علي الأطرش. لكنّها كانت أمي تنتظرنا من غير أن تعرف بأمر هروبنا. ترانا وتصيح باكية. نراها ونهلّل. ينادي أخي «جينا وجبنا المجدّرة معنا.. بدّي طعميك مجدّرة يا أمي».

تأخذ أمي في الغناء، وكأنّها تندب وهي تلوّح بيدها. تركض، ونحن نركض، إلى أن يضمّنا صدرها... وتحيطنا بذراعيها. تبكي وهي تقبّلنا وتشمّنا مردّدة: «خطفكم! اللّه يخطف روحه يا ربّ!»، ثم تدخلنا إلى البيت، فيفرغ أخي المجدّرة في الصحن، وكانت أمي قد حضّرت لنا الفول الأخضر... نأكل بلهفة، ونتمدّد ثلاثتنا كالعادة على فراش واحد، لكنّ هذه المرّة لم تنم أمي في وسطنا، بل جلست تنفخ على أعلى فخذيْ أخي المحروقتين، وتنفخ على قدميّ الداميتين... وأسألها «كيف عرفت يا أمي إنّو بدّنا نهرب ونجي عالبيت؟» فتجيبني: «ولو مش أنا أم؟؟»

أسمع خوارالبقر الآتي من حاكورتنا، وأفكّر أنّ البقر «بيهمر» ـ سواء أكنت أم لم أكن في البيت ـ ومن غير أن تعرف ما يدور

حولها. أتخيَّل عينيها الواسعتين وهي تحدِّق إلى العتمة وهي متمدِّدة تحت الجزء المسقوف من الحاكورة. ثلاث بقرات وعجل واحد. أحدِّق إلى العتمة جيِّداً، حتى أؤكِّد لنفسي أنِّي مع أمي في البيت، ولست في بيت أبي وزوجته، وأفرح لأنَّ البيت دائماً يبقى في مكانه. أرى «البيرو» والمرآة، والحجرة الفسيحة والنافذة، ولا أنام إلاَّ عندما تأتي أمي، وترقد بيني وبين أخي.

أسمع الهواء الذي يحدث الصفير، ويصطدم بالأشجار، ويفرح قلبي. يهدهدني خوار البقرات وكأنَّها تغنِّي لي.

«باب السر»

أول ما تتفتّح عليه عيناي حين أنهض صباحًا، هو النقش على حجر النافذة، وأرى فند التين يحاول أن يدخل البيت من «باب السر» (النافذة). تمدّ أمي يدها تقطف أكواز التين، تمرّغها على كسرة خبز حتى نأكلها. ترفع الفراش عن الأرض وتسنده إلى الحائط، تبلّ لنا الخبز بالماء، ترشّ عليه حبيبات قليلة من السكر، ثم نذهب إلى الحقل، قرب أشجار الكينا. تحثّنا أمي على الإسراع، «يللا قبل ما يجي الحصّادين ويشوفونا»... ولم أكن أفهم لماذا علينا أن ندخل الحقل خفيةً عن الحصادين؟ هل لأنَّ لقب أمي هو «المستحية»، وهي تخجل أن تدخل الحقل الذي يعجّ بالناس؟ وبدلاً من أن أرى سنابل القمح تلتمع تحت قطرات الندى، وتموج كلَّما داعبها النسيم، أرى الحقل فارغًا... تنحني أمي على التربة الحمراء،

وتلتقط ما هرّ أو تساقط من سنابل القمح التي قام بحصدها الحصّادون «عصر البارحة». أحذو حذوها، فأفرد تنورة فستاني، وابتدئ أجمع ما أجده على الأرض. وكان القمح يدلّني على نفسه وهو يبرق أمامي كحبيبات الذهب فوق التراب. أسأل أمي إذا كان الحصّادون قد تركوه لنا؟ ولكنّها لا تجيب، فأفهم مع مرور الأيام أنَّ مناجل المزارعين قد تركته لضآلة شأنه بعد أن جُمعت السنابل، ونُقلت إلى البيدر أغماراً أغماراً. ورغم افتقادي لرؤية السنابل والشمائل التي كنت أراها متكوِّمة في الحقل إلاَّ أنَّ خوفي من الثعابين التي كانت تتلطّى في فيء أغمار القمح كان يسلبني أيّة متعة في الحقل. نعود إلى البيت ونحن والتراب بلون واحد. ندلق ما في حرجنا من حبيبات القمح على صينية القش التي تمسحها أمي بخرقة مبتلة، وأخرى جافة، خوفًا من أن تكون الحيَّة قد مرّت فوقها. ثم ترسلني أمِّي إلى حاكورة قريبة لآتي بجبّ شوك البلاّن، فآخذ خرقة لألفَّها على يدي، وأروح أقتلع الشوك. لا بدّ أنَّه دُعي بالشوك لأنَّه يشوكنا وينخرنا كالإبر. وكم كنتُ أشعر بالحزن لأنَّ أمي تشبِّه شعري بجبّ البلاّن إذا لم أتركها تمسِّده بالزيت بعد غسله. أضع البلاّن على رأسي، وأكرّ راجعة لأجد أمِّي قد انتهت من هرس القمح بالجاروشة الصغيرة، (بحجر الرحى)، تعجنه «لزيقات»، ثم تضرم النار بالشوك، وتضع اللزيقات عليه، وتخبزه، فنلتهم الرغيف تلو الآخر في لمحة بصر.

تأخذنا قبل المغرب إلى حاكورة أخرى لنجمع الفطر المتكوِّم بين غرسات القمح والحشيش خصوصًا إذا كان الفصل ربيعًا، وإذا غنينا للفطر: «يا فطروس قوم تكوَّم»، وتقليه لنا أمي مع البيض.

تمضي أشهر منذ أن هربنا بالجدَّرة. والدنا لم نعد نسمع عنه سوى إشاعات تدور على ألسنة الناس. تعتزم أمي مواجهته وجهًا لوجه ليدفع «الكَلَفْ».

تُلْبس أخي بنطلونًا كحليًّا جديدًا، وتلبسني فستانًا نظيفًا. نقف ننتظرها قرب البيت وكلُّنا فخر وسعادة بأنَّنا سنذهب إلى السوق لنأتي باللحمة والسكّر والدبس. فجأةً يمرّ فلاّح ومعه كرّ صغير، لونه أبيض كلون اللبن. يتعلَّق أخي بهذا الكرّ الصغير، ويحتضنه ويمسك أذنيه، ويحتضنه من جديد، وإذا بالفلاح يسأل أخي أن يمنحه بنطلونه الكحليّ هذا، ويأخذ الكرّ بدلاً منه. ولم يتردَّد أخي لحظة بهذه المبادلة. أسرع فخلع بنطلونه، وراح يحتضن الكرّ ويقبِّله. وبَّخته أمي قليلاً، ثم سارت بنا إلى السوق بينما أخي في كلسونه التحتي راكب الكرّ. نصل إلى سوق النبطية، وهذه المرة لم أفكِّر باللحمة، بل بأساور الشمع الملوَّنة، ومناديل «الطيّار» التي تنتهي بالخيوط الملوَّنة المخرَّمة على شكل «رجل العصفورة». نبحث عن والدي في كل مكان... يشفق علينا رجل كان يسبِّح في مسبحته، ويقول لأمي إنَّ والدي قد هرب ما إن رآها من بعيد. «حصّ ملح وداب»... تتمتم أمي: «اللّه يدوّبو مثل ما عم يدوّب فيّ».

يأتي دوري لأركب على الكرّ، ويمسك أخي بيد أمي ونحن عائدون من غير شيء. وكانت أمي تجيب كل من يستوقفها، ويسألها إذا هي توفَّقت في إجبار والدي على دفع «الكَلَفْ»: «منُّو للّه.. أوف يا شيخ! قلبو مثل الحجر.. بدّي احسبو ميِّت وراح أتكل على ربِّي».. وكانت الأخبار بأنَّنا نذهب إلى الحقل في الصباح الباكر، كالشمس التي لم تكن تخلف مواعيدها، لنستعطي من الأرض، ونأكل القمح المتناثر المتروك للعصافير. كذلك تتحدَّث الأخبار عن ندرة ذهابنا إلى الدكَّان، لولا بكائي بين حين وآخر من أجل شراء القليل من الدبس، لأعود من الدكَّان وقد لحست معظمه عن صحن الألمنيوم.

أتساءل في تلك الليلة، وأنا راقدة في الفراش: «هل شعرت البقرات بوجود الكرّ إلى جانبها؟» أمسك أذن الكلب الذي لحق بأخي منذ مدة، وأخذ ينام قربه تحت اللحاف رغم ممانعة أمي في بادئ الأمر، ثمّ أنشد الأغنية التي فكَّرت بها عندما رأيت الحقل فارغًا من القمح:

«لا تفرحي يا سنابل الشعر الطويل

بكره المنجل بيتحنجل ويخرمشلك بطنك

وبيقصّلك شعرك الطويل

وبتخلص المواويل...»

أخذت أمي تعمل في قطف البرتقال والليمون الحامض في مزارع كبيرة، تصطحبني معها بينما تترك أخي لدى جيراننا. نسير

بين الحقول، نقطع الطرق العموميَّة، ونهبط في الأودية. وكم من مرة توقَّفت أريد أن أفترش الأرض من شدَّة تعبي وآلام قدميّ، لكنِّي أمضي لاحقةً بأمي، وما إن نصل إلى المزرعة حتى تجد أمي مكانًا لي تحت شجرة، تنتقي التراب من الحشرات، ومن كلّ شيء رطب، ثم تفرش لي كيسًا من الجنفيص حتى أجلس عليه، وكلَّما انتهت من قطف الشجرات من حولي، نقلتني إلى مكان جديد، قريب منها. ولا أعرف كيف كان يمضي الوقت، وأنا أغنِّي وآكل البرتقال، وأتمدَّد وأضرب النمل بعصا صغيرة، وأبتعد عن الدبّور، وأستمع إلى الأغاني، وحتى إلى صوت قطف الأغصان وحفيفها. وكان يوم السبت هو المفضَّل لديَّ، إذ كانت أمي تأخذني بعد عملها إلى نهر الليطاني لنستحمّ بمياهه، فنسير على التلال والربى والأودية إلى أن يتراءى النهر بين تعاريج الصخور والأشجار القليلة.

تتَّجه بي إلى شجيرات الدفلى، لونها «دحّ» بلون المعلّل، تكاد تكون كبيت من الأغصان. أسرع إلى النهر، وأقف بين الأحجار، تبحث أمي عن حجر الصوَّان حتى تفركني به كعادتها، ثم تمسك بيدي، وتسير بي إلى مكان يغمرنا ماؤه حتى ركبنا. نشمِّر عن سيقاننا، وأنتبه إلى بياض لحمي بالنسبة إلى الحصى ولون الشجر. خوف أمي أن تزلّ قدمي ويجرفني الماء كان عظيمًا. ينتقل خوفها إليَّ، ولا أنساه إلاَّ عندما أراها تبتسم. فهي قلَّما ابتسمت، وقلَّما سمعتها تضحك. تأخذ بفرك جسدها من فتحة فستانها، ثم لدهشتي تغنِّي: «يا حنينة ويا حنينة.. ردِّي معاي تانسلّي بعضنا..

فاقت من النوم وقالت يا لطيف.. ماني مجنونة ولا عقلي خفيف..!» تدلق الماء بيديها عليَّ وعلى شعري، وتبسمل، وتحمد اللّه. تدلق الماء على نفسها وتبتسم، فيبتعد شبح أبي المهيمن علينا... ثم نترك الماء، ونسير على حافة النهر، ونقطف الحمِّيضة، ثم نغمِّسها بالخبز والملح. نأكلها بنهم، وتحمد أمي اللّه من جديد...

قالت لي مرة: «تودَّعي، تودَّعي من الليطاني، يللا بدّي روح فيكم عا بيروت...! شو بدي عَيِّشْكُم على قرص العنة والسليق والهندباء!» وفعلاً تبيع البقرات بعد أيام وهي تبكي لفراقها. وتعطي الكرّ إلى جارتنا البدويَّة التي تُدْعى رابحة والتي أيقنتُ أنَّها تُدْعى بهذا الاسم لأنَّها تربح كلّ شيء. وكأنَّ الكلب الذي كان ينام قرب أخي شعر بأنَّ أيامه معدودة معنا إذ سرعان ما وجد بيتًا آخر. أفكِّر أنَّنا «كهذا الكلب»، سنحاول إيجاد بيت آخر. أودِّع صديقتي «تفاحة» التي كنت ألعب معها «الجورة» ببزر المشمش، واللاقوط مع عظام أصابع الخراف، وأقفز معها على «المَرَسة»، ونلعب الكركمّة بعد أن تضع كل منَّا في أنفها عوداً من غصن شجرة، ونضرب العود ونادي: «كركمّة يا كركمّة، يا ربّي يجي دمي». فيسيح الدم، ويسيل من داخل أنف كل منَّا، ونفرح بأنَّ اللّه قد استجاب دعاءنا تمهيداً لطلبنا إليه أن يدخلنا الجنة... تبكي تفاحة، رغم وعدي لها بأنِّي لن أغيب طويلاً «بس قد عدد سناني»، كما كنت أسمع الكبار يقولون. وأمنحها كلّ ما كنَّا نطلق عليه صفة «الدح»: مشط أحمر اللَّون تآكلت معظم أسنانه وهرّت، خُشخاشة ومصَّاصة للأطفال،

قطع من أطباق مكسورة ندعوها «صيني» كنت قد جمعتها من ساحة الضيعة، ومن بين البيوت والحواكير، لنلعب لعبة «البيوت». أستحلفها ألاّ تلعب مع غيري، بل أن تنتظرني ريثما نعود من بيروت: «خصمك الإمام علي والإمام الحسين إذا أنت لعبت مع غيري».

«راح إشتقلك واللّه يا كاملة، أوعي تنسيني».

«وأنا راح إشتقلك يا تفاحة، أوعي حدا ياكلك قبل ما أرجع».

ثم أفكّر هل أجد في بيروت أشجار كينا حتى لا أتوقّف عن الابتهال إلى اللّه حين أمسك بأوراقها الناعمة المنسدلة والملساء بيد، وشعري باليد الأخرى. أغمض عيني وأطلب إلى اللّه أن يطيل شعري مثلها، فتصبح خصلاته ملساء، ناعمة. أتساءل إذا كان يوجد في بيروت الورد الجوري حتى أقطفه مقلّدةً البنات الأكبر منّي سنًّا، فأضع ورقاته في وعاء فيه قليل من الماء، وأتركه يبات ليلاً، خارج الباب، منتظرةً تساقط ندى الصباح على الوعاء، لأسرع به إلى داخل البيت، خوفًا من أن تزحف إليه الحيَّة قبلي. أمسح وجهي بماء الورد، وأنا أقف أمام «البيرو» أتأمّل وجهي في المرآة، وأردِّد: «يا اللّه شو أنا حلوة».

تعمُّني السعادة لأنَّ بيروت لن تكون فيها الحيايا.. بل المرايا الكبيرة . أسأل أمي إذا كان في بيروت الليمون الحامض، فأنا كنت

اعتـدت على حفّه بالجدار، وأكله مع صديقتي تفاحـة. أسمعها تجـيب: «قـال بيـقـولوا الحـامض سـأل ربه مـرة: ليش خلقـتني حامض؟..»

وقبـل أن ننام ليلتنا الاخـيـرة في البـيت وجـدتني أتسلّل إلى حاكورتنا، أمدّ وجهي لأتأكّد من أنّ البقرات لم ترجع، لأنّ تفاحة أخبـرتني، في النهـار، حين كنت أبحث عن بيت البـقـرات الجـديد حتى أودّعها، أنّها سـمعت من أمها أنّ البقر كالحمام يهرب ويعود إلى بيته الأوّل.

«بيروت ١٩٣٤»

نقصد بيروت في سيارة «أبو دعسة»، لا سيراً على الأقدام، كما كانت تفعل أمي كلَّما اشتاقت إلى أولادها الأربعة الذين كانوا يعيشون في بيروت. فقد كانت تصل إليهم بعد أربعة أيام وفقاقيع الماء قد انتشرت على راحة قدميها، وما إن تعود إليَّ وإلى أخي كامل في النبطية حتى تعود تلك الفقاقيع فتظهرعلى قدميها، ثم تفقع كالبالون إنَّما من غير صوت.

كنت أعرف أنَّ لي شقيقين، وشقيقتين، من زوج أمي الأوَّل الذي توفي مقتولاً. إحدى الشقيقتين أتت لي بفستان، ولأخي كامل ببنطلون كحلي وقميص. كلَّما ذكر أحدهم إسم بيروت على مسامع أمي كان يكفهرّ وجهها، وتضع يدها على خدّها، وتغنّي: «بيروت، أخذت ولادي منّي يا بيروت».

كنت قد رأيت، من قبل، شقيقتيّ وشقيقيّ في بيتنا في النبطية، في فترات متفاوتة، ودمغ الأربعة أشكالهم في مخيِّلتي، لاسيَّما سحنتهم المائلة إلى الإسمرار. ولا أعرف كيف كوَّنتُ قصتهم مع مرور الأيام، وكيف لم أصدِّق أنَّ ما جرى فعلاً قد جرى، إذ لم أتصوَّر أنَّ أمي حضنت أحداً قبلي وقبل أخي كامل.

كانت أمي متزوِّجة برجل ينتمي إلى عائلة معروفة في النبطية الفوقا يقال إنَّ أصلها يعود إلى الصليبيِّين، اشتهر رجالها بفروسيَّتهم وبارتداء قفافيز (كفوف) من الذهب. لكنَّ زوج أمي كان يمسك بيده لجام البغال لأنَّه كان مكاريًا ينتقَّل بين القرى الجنوبيَّة وبيروت. شيَّد الإثنان بيتنا الذي نعيش فيه، وأنجبا أربعة أولاد، عاشوا جميعًا في هناء إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، فحدثت المجاعة في لبنان بعد أن قطعت الدولة العثمانيَّة المؤن وصادرتها... وغزا الجراد ما تبقّى من الزرع والشجر. وعمَّمت تركيا على رعاياها، وعلى كلّ رجل يدبّ على أمبراطوريتها الجائعة، الالتحاق بجيوشها، وبدلاً من أن يلتحق زوج أمي بالجيش قرَّر وأمي الفرار، ذات مساء، على بغالهما الثلاثة بعد أن أودعت أمي لدى أهل زوجها عقد جيدها، وكان من الكارب الأصفر، بالإضافة إلى غوازي شعرها، وليرتين من ذهب كانت تشبكان خصلاته، ثم أخفيا كلّ ما يمتلكانه من ليرات ذهبيَّة إنكليزيَّة «عثمليَّة» في قعر صندوق أحد البغال، واضعين فوقها الطعام والزاد للتمويه، حتى إذا ما صادفهما اللصوص وقطَّاع الطرق في الطرقات النائيَّة، سلكا أصعب الدروب بين الجبال والأودية هربًا

من الدوريات العثمانيَّة، إلى أن وصلا «إلى معان» في الأردن. وقبل أن ينعما بسلامتهما وسلامة أولادهما والبغال، إنقضّت عليهما عصابة، وسرقت البغل مع الليرات الذهبيَّة التي خُبِّئت في قعر الصندوق. ناح الزوجان وبكيا طويلاً، ولم يفطنا إلى أن يرفعا شكواهما إلى المسؤولين في الحال، بل فعلا ذلك بعد يوم أو يومين. وأمي الخجول لم تنظر مليًّا في وجوه الذين جاء بهم المسؤولون للتعرُّف على رجال العصابة، ولم يتعرَّف زوجها على وجه المعتدي. وأخذ الإثنان يتحزّران، ثم يشيران إلى هذا أو ذاك، ولا يلبثان أن يبدِّلا رأيهما من غير أن يرسوا على شيء.

وفي عتمة الليل أتى أحد أفراد العصابة، وقتل زوج أمي منهيًا تلك الحيرة، ومفتتحًا سلسلة أحزان أمي. وأمي تعود بأولادها وبالبغلين مع قافلة عائدة إلى لبنان، وتسرع إلى أهل زوجها تطلب ما أودعته في أمانتهم: عقدها الكارب، وغوازي شعرها، من أجل أن تبيعهما، لكن أهل زوجها أقفلوا أبوابهم في وجهها، وفي وجه أحفادهم، زاعمين أنَّ ما أودعته لديهم هو مقابل الدين الذي استدانه ابنهم الراحل عنهم قبل فراره إلى الأردن. ولم تيأس أمي إذ دقَّت أبوابهم من جديد تطلب مساعدتهم، ولم يصبها اليأس إلاَّ عندما ضُربت وطُردت.

وتعود إلى بيتها، نادبة حظّها ثم شاكرة ربَّها لأنَّها ما زالت تملك بيتًا هو مأوى لها ولأولادها الأربعة. مع أنَّه كان قد عرّي في

أثناء غيابها حتى من الفرش والألحفة والأغطية. أسرعت تعمل في الشيء الوحيد الذي كانت تعرفه: التراب والحقول والزرع. رغم نشاطها وكدّها إلاّ أنّها لم تستطع تحمّل عبء مصروف أولادها، لذلك لم تجد بدًّا من طرق أبواب السياسيّين تخبرهم بما حدث لها، وإذا بأحدهم يمدّ لها يد المساعدة، فيُدخل أولادها إلى مدرسة خيريّة أميركيّة في القسم الداخلي في صيدا. وراحت أمي تسير قرابة ساعتين، أو ثلاث ساعات، قاصدة المدرسة كلّما اشتاقت إليهم، فلم تكن الزيارات مسموحة إلاّ مرّةً في الشهر.

تقف أمي تحت نوافذ غرف «البنات» تنادي اسميهما، وما إن تراهما تطلاّن من النافذة حتى تأخذ في البكاء، ثم تقصد غرف «الصبيان» وتنادي إسميهما، وحين لا يطلّ أحد كانت ترشق الشرفة بالحصيّات الصغيرة، وما إن تراهما حتى تغصّ بالبكاء.

وعندما لم تستطع أمي العيش بالقروش التي كانت تكسبها من قطف الحمضيّات، وجدت نفسها مرغمة على تأجير «اسطبل» الغرفة السفلى، حيث البستان والحاكورة، إلى مستأجر بدّل رأيه بعد أشهر، وتركها تنوء بلا مورد، إلى أن جاء شيخ دين تخرّج من جامعة الأزهر في مصر، وعاد إلى الجنوب مسقط رأسه، وفي نيّته إفتتاح مشيخة (مدرسة) للأولاد حيث يعلّمهم أصول القراءة والكتابة والقرآن الكريم. واشترط الشيخ على أمي أن تؤجّر له غرفتين بدلاً من واحدة، وكان صيته قد سبقه لأنّه كان متزوّجًا بإمرأة تركيّة هي آية

في الجمال تدعى «هانم»، وهذه ما إن حلّت في النبطية الفوقا حتى أتت نساء القرية والقرى المجاورة يتفرّجن على سحنتها البيضاء وشعرها الأسود الفاحم، ويستمعن إلى لكنتها التركيَّة. وكان للشيخ ابن واحد تولّى مهمة التعليم وإدارة شؤون المدرسة. أخذ يغازل أمي، الأرملة ذات القامة الطويلة، والعينين الواسعتين، والشعر الأسود الداكن. مالت أمي إليه إذ لم يكن كأيّ رجل في عائلتها أو في القرية. كان متعلِّمًا، صاحب نكتة، ينظم الشعر الارتجالي، ويحفظ الشعر الجاهلي. أيقنت أنَّه سيتحمَّل معها مسؤولية أولادها الأربعة، رغم أنَّها كانت تكبره بعشر سنوات، وأطلق عليها الشاب لقب خديجة بنت خويلد، متمنيًّا لو أنَّ أمي ثريَّة تفهم في التجارة، كخديجة أولى زوجات النبي محمد (ص).

سرعان ما قرَّرت أمي أن تأتي بأولادها الأربعة من المدرسة ليعيشوا معها، لعلّ وخز ضميرها يتوقَّف لأنَّها تزوَّجت أبي للمرة الثانية. قصدت مدرستهم ذات ليلة تناديهم واحداً واحداً، تشجِّعهم ليقفزوا من سور المدرسة لتعود بهم إلى البيت. لكنَّ أولاد أمي الأربعة لم يميلوا إلى زوج أمهم، بل لم يصدِّقوا أنَّ أمهم قد تزوَّجت. فكيف يكون الأمل وقد تزوَّجت رجلاً يكاد يكون مهرِّجًا وهم الذين يتحلُّون بالجديَّة والرصانة، ويعانون وطأة فقدانهم لأبيهم، وحرمانهم من المدرسة؟ سرعان ما ترك الابن البكر الجنوب، وحاول أن يجد له عملاً في بيروت، ثم لحق به الابن الأصغر، بعد أشهر، فور عودته من إحدى جولاته مع زوج أمه حيث كان يعمل إسكافيًّا «مصلح

ستيكو»، وذلك بعد حادثة زعزعته بدلاً من أن تضحكه. فقد هجم عليه زوج أمّه متخفيًّا بعباءة، صائحًا به «هات كلّ ما معك وإلاّ ذبحتك». ويُصاب الابن بالهلع خاصة أنّ ما حدث لوالده في الأردن لم يكن قد بارح ذهنه... ويلتفت حوله ليستنجد بزوج أمه فلا يجده، وإنّما يسمع صهصهة وضحكات، ثم يكتشف أنّ اللص هو زوج أمه الذي أراد أن يمازحه في منتصف الليل بعد يوم طويل ومضنٍ.

بعد مرور أشهر لحقت الأختان بشقيقهما في بيروت، تاركتين البيت لأمي، ولزوجها ولأخي كامل. ثم ولدت أنا بعد ثلاث سنوات.

لا بد أنّ بيروت تقع بعد هذا الجبل، وذاك الوادي، وذاك الخط الأزرق. أرى كلّ شيء يختفي ورائي. أرى البحر الأزرق للمرة الأولى. أفكّر أنّ البحر هو أخ السماء، أراقبهما وهما يلتقيان معًا، ثم يبتعدان، البحر يذهب في سبيله ومع ذلك يبقى ممتداً إلى نهاية نظري. أفكّر إذا كان الهواء الذي يلفح يدي الممدودة خارج نافذة السيارة هو الهواء عينه، أو أنّه يتغيّر كلّما أسرعت بنا السيارة. نصل بيروت والتي كانت أكبر من سوق النبطية، وأفكّر أنّها الدنيا الكبيرة.

لكنّي لم أرَ أكياسًا كبيرة تتساقط منها حبيبات الأرز والسكر، ولم أرَ الناس تهجم، وتدنو بوجوهها، وتأكل، وتلحس الدبس من براميل، بل رأيت أناسًا آتية وغادية من غير أن تتوقف وتتحدّث إلى

بعضها البعض كما في النبطية. أناس يطلُّون من شرفات لم أفطن في بادئ الأمر إلى أنَّها تتمّة للبيوت. أسأل أمي كيف يعيش فيها الناس وهي من غير سقف، وإذا كانت ذات سقف فهي ينقصها جدار أو جداران... وكانت هذه البيوت مسقوفة بالقرميد الأحمر، قرميدة تلي الأخرى، كأنَّها لبّ الرمان. وثمة نوافذ كثيرة مرتفعة تدعى شبابيك، لا «باب السر»، وكوى مستديرة أظنّ أنَّها بيوت للحمام الذي كنت أراه بكثرة. أما أشجار بيروت فلم تكن كالأشجار التي اعتدت عليها، لكنِّي حفظتُ أسماءها بعد أيام: زنزلخت، ولحلح، وبلح، وتوت، وأكيدنيا.

نصل إلى بيت شقيقتي الكبرى، وزوجها، ومعنا صندوق أمي الخشبيّ المطعَّم بقطع من القماش المخمليّ والنحاس والتنك، وفيه كلّ ما نملكه من فساتين لوالدتي، وبنطلونين لأخي، ومناديل، وزوفا، وزهورات ومردكوش.

وفي بيروت رأيت شقيقي الذي أصبح أكثر عبوسًا، أتذكَّر جملته التي كان يقولها عندما كان يعمل «مصلح ستيكو»: «عندي نقفة دين دقّة مسمار بترنّ رنّ»، وكان يفصل بيت شقيقتي عن شقيقي العابس حديقة صغيرة.

لم تبحث أمي في الليل، بين الأعشاب الخضراء، عن الخبَّيزة وقرص العنّة كما كانت تفعل في الحاكورة لتحضّر لنا وجبتنا. ولم نجلس تحت أكياس بيروت الكبيرة، نلحس ونأكل، بل جلسنا حول

صينية على الأرض، نمدّ أيادينا أنا وأمي وأخي كامل بكلّ تردُّد، رغم أنَّ الطعام الذي كان أمامنا كان أكثر بكثير ممَّا كانت تقدِّمه لنا أمي في الجنوب.

كلَّما مددتُ يدي إلى الصحن أنظر إلى زوج شقيقتي وهو يعلِّمني ويعلِّم أخي وأمي كيف نأكل: «حطّوا وجّكم فوق الصحن.. حرام هالفتفوتة حرام»، والفتفوتة هي ما هرّ من الخبز بحجم شعرة الحاجب. وكانت لهجته غريبة، أسمعها للمرّة الأولى مع أنَّه كان من الجنوب. ويجيء شقيقي البكر الذي يحبّ النقر على العود، فيقبِّل يد أمي، ويأتي لها بالخبز الطويل والذي يشبه «الشوبك»، فاحفظ اسمه «الخبز الفرنجي». ثم تأتي شقيقتي الأخرى التي ما إن رأت أمي حتى أخذت تعانقها، وتبكي، وتخبرها عن زوجها المدمن القمار وسباق الخيل. وأسمع أنَّ أولادها جائعون، متشرّدون، ولا أفهم السبب مع أنَّهم يعيشون في بيروت.

ولم أهتمّ بأيّ فرد في العائلة، ولكنِّي صببتُ كلّ اهتمامي على الحلوى التي أصبحت شغلي الشاغل، أهدس بها وبأسمائها: «النعومة، البندقيَّة، والسمسميَّة». يضعها البائع في فاترينة من زجاج، وينادي في الشوارع: «البندق طايب..». أتحايل على أمي، حتى تمنحني نصف قرش، أبكي أمام شقيقتي، أهرع إلى البائع أقف أمامه بعينين متوسلتين جائعتين، ولعابي يسيل وكأنَّني كلب، ورجلاي في القبقاب الخشبيّ، أراقب الأولاد بأحذيتهم يشترون

الحلوى، ويلحسونها، فيسألني البائع: «بدّك شيء، ليش ما بتشتري» أجيبه: «بَسْ عم بتفرَّج». وعندما لا يمنحني قطعة من غير مقابل أجدني أضيف: «ما حدا بيعطيني قرش، أنا من الضيعة وأبوي ميّت». لكنَّ البائع ينظر إليَّ وكأنّي لم أقل شيئًا، وأشعر أنِّي أكرهه. وعندما أخمد شهوتي للحلوى، تنبت لي شهوة أخرى وهي أن أشتري بِكَل الشعر والدبابيس والأساور الملوّنة التي أخذت أراها حول أيادي البنات. أحاول أن أحصل على ربع قرش، أو نصف قرش، من كلّ شخص يزور بيت شقيقتي، لكنّ جهودي كانت تسفر عن جملة واحدة أسمعها دائماً: «يا ريت.. بكرة.. يا ريت معي...» ولم أجرؤ على سؤال شقيقي العابس، إذ كان يراقبني بانزعاج، ويتمتم بينه وبين نفسه كلّما مددتُ يدي إلى عنقود العنب، أو أدنيت حبّةً إلى فمي. أهمس لأخي في الليل، وأمي تتوسّطنا، إذا كان يفضِّل لو بقينا في النبطية. جوابه يسكتني: «كنت تموتي ألف موتة قبل ما تلحسي لحسة دبس...». ولم أشأ إخباره أنَّ أمي قد تبدَّلت، فهي تنهرني على غير عادتها، تنهرني لإسراعي في المشي، أو لقفزي، أو لقولي إنِّي جائعة. ألاحظ كم أنَّ كلامها القليل قد انعدم. تجلس وكأنَّها الكرسي أو الطاولة، ليصدر عنها تنهّد، أو زفرة، أو كلمة «يا اللّه». تخطر ببالي فكرة: لو أنِّي أخذت سكيناً ونحن في النبطية، وغافلت «اللحّام» في السوق، وقطعت قطعة كبيرة من الخروف المعلَّق، لكنَّا ما زلنا في بيتنا في النبطية، وبقيت أمنا لنا.

أراقب البنات اللواتي كنَّ في مثل سنِّي، وأتحرَّق إلى اللعب معهنّ، خاصة مع فتاة كانت تتأمَّلني بازدراء، ربَّما لأنِّي أنتعل قبقابًا خشبيًّا. لكن كيف أخفي فستاني الذي لم يكن كفساتين بنات بيروت؟ كان فاقع اللون ذا تعريقات كبيرة. أحاول أن أستدرّ شفقة الفتاة فأبادرها: «أنا مش من بيروت، وأبوي ميِّت، ما حدا بيعطيني قروش». وإذا بها تدير ظهرها بعد أن تقول: «أهلك فقراء». وأوشك أن أقول لها إنَّني كنت فقيرة في الضيعة، أما في بيروت فأنا آكل السكّر والدبس. لكنِّي لا أفعل، وأصمِّم على أن آتي بالقروش بأيّ طريقة ممكنة. أعود أستجدي أمي وشقيقتي بلا فائدة، ويا ليتني لم أفعل ذلك، إذ قرَّر زوج شقيقتي أن أدور على البيوت في محلتنا لأبيع القبّات من الكاوتشوك المستخدمة للرضّع والأطفال، كما قرَّر أن يأخذ أخي كامل معه إلى «المدينة» كي يبيع الخيطان.

وكان كل من في البيت يعمل: أمي التي كانت تساعد شقيقتي في تربية طفلها وفي شوؤن البيت، شقيقتي تكبّ على مكنة الخياطة طوال النهار تخيِّط الملابس، إلى جانب تطريزها «رجل العصفورة» على المناديل الملوّنة وأغطية الرأس، من أجل أن يحملها زوجها في اليوم التالي ليبيعها في الأسواق. وأنصاع إلى ما طلبه إليّ زوج شقيقتي مكرهةً بعد أن قالت لي أمي محاولةً أقناعي: «أختك وزوجها مش مجبورين فينا، بِكفِّي عم ننام عندهم».

أسير في الحيّ والأحياء المجاورة، أصعد السلالم والدرجات، وأدخل حدائق البيوت حتى أصل إلى أبوابها. تسترعي إنتباهي بركة ماء فيها نافورة، فأتذكّر كم كنت أفرح حين كان البول ينساب منّي أشكالاً. أخبِّط على الأبواب، وأستجدي أصحابها أن يشتروا منّي « قبّة » ألحّ عليهم. أو أمثّل البؤس، ولا أغادر، بل أظلّ واقفة إلى أن يشتروا منّي، أو يغلقوا الباب في وجهي. أمضي من بيت إلى آخر وفي حلقي غصّة. ولم أفهم سبب هذه الغصّة إلاّ عندما تفتح لي امرأة باب بيتها وتبتسم لي، وما إن أطلب منها أن تشتري منّي « قبّة » حتى يصيبها الذعر.

تسألني إذا كان لديَّ عائلة، وتسألني من أرسلني؟ وعندما أخبرها تمسك رأسها، وتقول بلهجة لم أسمعها من قبل « يي يي! مش مصدقة، كيف ما بيخافوا أهلك عليك، بنت مثل القمر.. يي! ». تعود المرأة تنادي امرأة أخرى وتخبرها عن أمري، وتقصّ عليها، ثم تمسك رأسها وتصيح: « يي يي مش مصدّقة. يا لطيف تتلطّف بعبيدك، بعمري ما شفت بنات بدوروا عا البيوت وببيعوا.. قال عندها أهل!! يي! ». ثم تشتري كلّ ما أحمله من قبّات، وتقرصني في خدي قرصة خفيفة، وهي توصيني أن أنتبه إلى حالي: « إسمعي يا حلوة، انتبهي على حالك! فاهمة؟ أوعي تخللي حدا يضحك عليك.. أوعي إذا ما فتحتلك مرا الباب تفوتي ». أسرع وأخبر أمي بما أوصتني به المرأة، وأسألها لماذا لم يوصني أحد بأن أنتبه إلى نفسي، وبأنّه عليَّ الهرب إذا فتح لي الباب رجل. ثم أسألها لماذا

لا ترسلني إلى المدرسة، وكلّي ظنّ أنّه عليّ أن أرسل إلى مكان ما حتى لا أبقى في البيت، إذ بيروت غير النبطية؟! لكنّ أمي لا تجيبني إلاّ بالتنهُّد، وأفهم أنّ الأمر لا يتعلّق بها، ولا حتى بشقيقتي، بل بزوج شقيقتي، وأيضًا بشقيقي العابس، وهما لن يشتريا لي الأقلام والدفاتر. وأخذت أبكي وأنوح، وإذا بأمي وبشقيقتي تهرعان محاولتين اسكاتي وهما تخيفانني بزوج شقيقتي: «إجا ولكْ إجا ليك» تمامًا كما كنّا نخيف بعضنا بعضًا في النبطية... من الغول والضبع وإبليس.

حتى الحمام بيروح عالمدرسة

«حتى الحمام بروح عالمدرسة هون، وحياة اللّه وحياة النبي وحياة الإمام علي!» أقول لأمي، فأنا منذ أن حللت بيروت وأنا أرى الحمام يطير أسرابًا في حلقات، ثم يتفرّق، ويتجمّع، ثم يغطّ ويطير، ينخفض ويعلو، يبدّل إتجاهاته حسب ضربات السوط الذي كان صاحب الحمام يضرب به الباطون، وحسب تصفيره، وتلويحه بخرقة سوداء شكّها على قصبة في يده. كان هذا المعلّم يدعى كشّاش الحمام، نسيب البنت التي صارت تردّ عليّ وتحدّثني، بعدما حثّتني على أن أنتعل الحذاء بدل القبقاب الخشبيّ لتصبح صديقتي. وجدتني أحسد الحمام، تمنّيت لو أنّي حمامة حرّة، طليقة، بعيدة عن البيت وعن أنظار شقيقي العابس، وزوج شقيقتي، حتى عن أنظار شقيقتي التي كانت عادلة، تحبّني لكنّها قليلة المزاح، ونادرة

الضحكات. أتمنّى لو أنّي تلميذة أستمع إلى أوامر المعلّمة، وأجلس في الصفّ مع بنات في مثل عمري، ولم أقل لأحد إنّي أودّ الذهاب إلى المدرسة حتى لا أبيع القبّات، وحتى لا أساعد شقيقتي في أعمال البيت. وجدتني أطلب إلى شقيقي، عاشق العود، أن يتوسّط لي من أجل أن يرسلوني إلى المدرسة. لكنّه أدرك استحالة طلبي، لذلك اكتفى باطراء فطنتي حين قصّ عليّ كيف أجبتُ رجلاً كان يلقب بابن النملة راح يشكو همه لأمي: «واللّه يا أم حسن أنا مجنون تركت البرازيل ورجعت لأنكش وأحكش وأزرع، قال شو؟.. قال ما طقتش فراق أهلي ووطني..» وإذا بي أجيبه وعمري لا يتخطّى أعوامًا أربعة: «عمرو لا ينحكش ولا ينتكش يا ابن النملة»..

فطنتي هذه علّمتني بأنّي المسؤولة الأولى والأخيرة عن نفسي، لذلك عندما تطلب إليّ شقيقتي في اليوم التالي أن أصعد إلى «التتخيتة» وآتي بخمس قبّات لأبيعها، أجد نفسي أقف أمام الأشياء المكدّسة، وأتخيّل القروش تلتمع وترنّ في ذهني، فآتي بعشر قبّات. أخبّئ خمسًا منها حول خصري، وأمسك بخمس أخرى، ثم أغادر البيت، وأتجوّل كعادتي بين المنازل والبيوت أستدرّ عطف الناس، وأحاول رغم قسوة بعضهم أن أبيع القبّات العشر. ولا أعود إلى البيت فوراً، بل أهرع إلى بائع الحلوى، أعطيه ثمن القبّات الخمس، وأشير بأصبعي إلى «البندقيّة»، وغزل البنات الأبيض، «وقرنفل الأصبع». وأخيراً أهرع إلى البنت التي تتأمّلني بازدراء، وأكشف عمّا ما في يدي من حلوى حتى تشاركني بها، في الوقت الذي أبتهل فيه

سرًّا للإمام عليّ لتمدّ البنت يدها، فأكسب رضاها، وتلعب معي. وفعلاً تمدّ البنت يدها، وتأكل كل ما كان في يدي. تلعب معي قليلاً، ثم تبتعد عنّي، فأعزم على الاستدلال إلى «حاووز الساعاتيّة» حيث الساعات حول الحاووز، كما سمعت، لأجلب ساعة إلى البنت حتى تلعب معي مدّة اطول. لكنّي لم أجد الحاووز ولا الساعات، بل وجدت بابًا مشرَّعًا، ونساء التفففنَ بأغطية بيضاء، يهتززنَ ويرتعشنَ على إيقاع أصوات لا أفهم ماذا تعني. أدنو من المرأة التي أشارت إليّ أن أقترب، وإذا عيناها متحجّرتان كالزجاج، وإذا بي أصيح: «يا أمي.. يا أمي»، وأهرع خارجةً، فأعرف بعد ذلك أنَّ النساء كنَّ في حداد لذلك يلبسن الأبيض، «عادة أهل بيروت»، وأنّهنَّ يقمن ذكرًا لميت يخصّهنَّ .أهرع عائدة إلى البيت أقصّ على أهلي هول ما رأيت، وأرمي القبّات، وأنا أحلف بأنّي لن أبيعها بعد الآن.

أتأكّد من أنَّ أمي لم تعدْ لي، ولا لأخي كامل، فهي أصبحت أما للأربعة الآخرين، تعمل بما يشير إليها كلّ من شقيقتي وزوجها، وشقيقي العابس، وتحمل مشاكلهم جميعهم إلى الفراش، فتزداد زفراتها، وتنهداتها، وتمتماتها، بجمل وكلمات لا أفهم منها سوى «معليش يا روحي. معليش يا روحي». تصاب أمي بالقلق إذا كانت مَعِدة ابن شقيقتي «ماسكة»، وإذا كان شقيقي عاشق العود الذي يعمل في الفرن قد يتعرَّض يومًا للاحتراق بالنار، أو إذا كان شقيقي العابس قد زاد من تجهُّم وجهه كلَّما رآها ورآني.

لكن في الأشهر التالية لم أعد أبالي بتبدُّل مزاج أمي، فالتعب أخذ ينهكني، ولا يدعني أفكّر إلاّ بالليل وكيف سأخلد إلى الفراش، وأنام بقرب أمي، وأنعم بدفئها وحنانها. بالنوم فقط كانت المسؤوليات تحيد عن كتفي، خصوصاً حين أوكلت بمهمة إضافيّة، إلى جانب بيعي للقبّات، وهي أن أرافق ابن شقيقتي وابن شقيقي العابس إلى مدرستيهما، ثم أعود إلى البيت حيث تنتظرني قبّات الكاوتشوك والمناديل. أطوف من جديد على البيوت، ثم أعود إلى البيت لأحمل طعام الغداء إلى المدرستين. أعود إلى البيت فأساعد شقيقتي التي وضعت صبيًّا آخر، في هزّ السرير للرضيع، وفي غسل الحفاضات ونشرها على حبل الغسيل، ثم أهرع بحماسة إلى المدرستين لأصحب ابن شقيقتي وابن شقيقي العابس إلى البيت حيث تنتظرهما الحلوى كما تنتظرني «عالبيعة»، ولأنّي سوف «أطجّ» الطابة عدّة طجّات كلّما لعبنا بها قرب المنزل وسقطت بعيداً في الخندق، فقد كانت هناك خنادق محفورة حولنا، ولذلك دعيت محلتنا بالخندق الغميق. أسرع إلى الخندق آتي بالطابة، ألمسها، أقرّبها من صدري، فَرِحةً، غير آبهة بصراخ الولدين لأنّي لا أرميها لهما بعد أن ألتقطها. أمسكها حتى يراني الأولاد، ويظنّوا أنّ هذه الطابة هي لي وحدي، وأنّ والديّ اشترياها لي، والديّ اللذين يسكنان في أحد البيوت الكبيرة ذات الحديد المزخرف، والشرفات الواسعة، والواجهات ذات الزجاج الملوّن. وأجدني ألوّح بيدي إلى شرفة ما، خاليةٍ من الناس، لكنّ هتاف الولدين، لأسرع في رمي الطابة إليهما، سرعان ما يعيدني إلى واقعي.

يقترب عيد الأضحى، وأسمع بنات الحيّ يتحدَّثن عن فساتينهن الجديدة، فأسأل أمي عن فستان العيد. لكن أمي تطلب إليَّ الصبر لأنَّ شقيقي العابس وزوج شقيقتي ما زالا يتشاوران بأمر فستاني.

أجدني أفكِّر بحيلة عظيمة: لو أُحمل ويُدار بي من بيت إلى آخر، تستجدي من تحملني عندما يفتح لها الباب: «عطوا المكرسحة فستان للعيد مشان تقوم» والباب الآخر: «عطوا المكرسحة سكربينة للعيد مشان تقوم» وللباب الثالث: «عطوا المكرسحة كلسات بيضاء وجزدان من القش للعيد مشان تقوم»، تمامًا كما طلبت إليَّ زوجة شقيقي العابس ذات يوم أن أحمل ابنتها التي أتمَّت الأعوام الثلاثة، ولم تمشِ بعد، حتى أدور بها «أشحذ» أي شيء من البيوت من أجل أن تنهض وتمشي. ظننت أنَّ هذه العادات تجري في النبطية لا في بيروت. فنحن قد اعتدنا على أن نشحذ من سبعة بيوت كسرة من الخبز ليختفي الجنجل أو «شحاذ العين». وأخذت أطوف بابنة شقيقي، وأنا أردِّد كلَّما فتح لي الباب: «عطوا المكرسحة شي حتى تقوم» ولدهشتي لم يتعجَّب أحد من طلبي هذا، بل كان الناس يقدِّمون لها الطعام والفاكهة والحلوى.

بعد تشاور زوج شقيقتي وشقيقي العابس طويلاً بأمر فستان العيد، اقترح شقيقي أن يتقاسما ثمن شراء قطعة من القماش لتفصِّلها وتخيِّطها لي شقيقتي، بينما يصرّ زوج شقيقتي أن يشتريا لي فستانا مستعملاً، وهكذا كان.

أرى الفستان الذي أتيا به، والبقعة البنيَّة تحت إبطيه، والخط الأصفر عند الرقبة، وأنفجر بالبكاء. أرى الحذاء المستعمل ذا النعل الضخم وميَّالات الحديد. أشدّ شعري، وأقسم بالنبي محمد والإمام علي بأنِّي سأقاطع العيد... أصبّ كلّ غضبي على أمي، ألكزها وأنا أردِّد: «قوليلهم يشتروا لي فستان جديد، قوليلهم». ينهرني زوج شقيقتي قائلاً: «كل يوم هو عيد».. «كل يوم لا يُعصى اللّه فيه هو عيد».

ولم أقاطع العيد بل استدلّ على المكان الذي كان يذهب إليه الصغار والكبار: «الحرش». أمسك بيد ابن شقيقتي، ألحق بفتاة الحي التي ظننت أنِّي اصبحت صديقتها بعد أن بدَّلت قبقابي الخشبيّ بحذاء، وبعد أن أغدقت عليها الحلوى، لكنَّها مدّت لي إصبعها الصغير وراحت تغنِّي: «سنكف، سنكف عالتابوت يللي بحاكيني بموت». ولم أشأ أن أسير إلى جانبها بفستاني الكريه، وحذائي المخجل. أتبعها مع ابن شقيقتي الذي كان في الخامسة من عمره، أرى الدنيا «قايمة قاعدة» بين الأشجار العالية، أرى الخيار واللفت والمقتي المخلَّلة، وأشتري لي ولابن شقيقتي كل شيء حتى الثلج الملوَّن «الفرسكو»، أركب المرجوحة وابن شقيقتي إلى جانبي، المرجوحة تطير، وأولاد بيروت يصيحون: «يا ولاد محارب يويو». ثم أنظِّف حذائي، وحذاء ابن شقيقتي، قبل أن ندخل إلى البيت خوفًا من أن يفضحنا التراب الأحمر، محذِّرةً ابن شقيقتي، حتى يبقي أمر ذهابنا إلى الحرش سرًّا وإلاَّ عوقبت.

«الوردة البيضاء»

أصطحبني أخي كامل إلى «المدينة» حيث يبيع الخيطان ولوازم الخياطة على «الكشّة»، وإذا بي أصيح: «يا اللّه يا كاملة! هيدي هي بيروت مش خندق الغميق مثل ما كنّا مفكرين!» أرى «الترين» الذي أخذ شقيقي العابس يسوقه، والسيارات الكثيرة ذات الأبواق، عربات الحنطور، الأضواء التي تنطفئ وتضيء حتى في النهار، بائع السوس وهو يخشخش بالطاسات النحاسيَّة، نساء شقراوات من غير مناديل الرأس، أستغرب لرؤية الكثير من الرجال يلبسون الشراويل وكأنِّي ما زلت في الجنوب... لم أعرف أين أحطّ عيني، أردت أن ألمس كل شيء، من الأجبان التي كانت من كل نوع ولون، إلى دكاكين الذهب. أتسمَّر في مكاني وأنا أقف أمام صورة ضخمة: وجه امرأة حزينة، ورجل يعتمر الطربوش، وبينهما وردة بيضاء. كانت الصورة كبيرة بحجم بناية، يقول لي أخي كامل: «هيدا فيلم سينما». أتسمَّر أمام

ما أرى، ولا أتزحزح قيد شعرة. المرأة جميلة، تبتسم وتظهر أسنانها البيضاء. شفتاها مطليتان بأحمر الشفاه، لا بقشر الجوز، كما كنّا نفعل أنا وتفاحة، و تسريحة شعرها تصل إلى خدها. وجدتني أرفع المنديل عن رأسي الذي أمرني زوج شقيقتي أن ألفَّ به شعري، أحاول أن أقلِّد تسريحة الشعر أمامي. يلكزني أخي، ويجرُّني من يدي، ونسلك منعطفًا، لكنَّ الصورة الكبيرة تلحق بي كيفما استدرت، ولاسيَّما دموعها التي ظهرت على خدها وكأنَّها فقاقيع صابون.

كنت أحبّ الرسوم التي كنت أراها في النبطية لأنَّها كانت تختلف عن كل ما أراه حولي، خصوصًا صور الإمام علي، والحسن، والحسين، بحواجبهم الثخينة كالسيوف، في حين تبدو الشمس من خلفهم بأشعتها السنيَّة. أهرع عند عودتي إلى البيت، فأخبر شقيقتي التي كانت لاتزال خلف مكنة الخياطة عمَّا رأيته في «البرج»، وعن الرسم الذي كان أكبر من كل الرسوم. تجيب شقيقتي أنَّ هذا فيلم «الوردة البيضاء» «وعم يجنِّن العالم». لم أكن استوعبت ما قاله لي أخي كامل، بأنَّه «فيلم سينما»، ولكنِّي توسَّلت إلى شقيقتي كل لحظة، وفي كل يوم، ولمدة أسبوع، أن تأخذني إلى «الوردة البيضاء» حتى رضيت أخيراً مشترطة عليَّ ألا أخبر أحداً ولا حتى أمنا. وما إن أسمعها تكذب على زوجها زاعمةً أنَّها ستزور شقيقتها، وأنَّها ستصحبني معها، حتى يرتاح قلبي لأنِّي لن أدخل النار كما توهَّمت، لكثرة ما كنت ألجأ إلى الكذب، إذ حتى شقيقتي التي تصلِّي وتصوم تكذب على زوجها.

ندخل السينما في العتمة، مع ذلك أتبيَّن غرفة كبيرة، ومقاعد متلاصقة. تتعالى الموسيقى! ترى من أين أتت وأنا لا أرى أي مذياع؟ ثم ويسطع الضوء على الحائط، فجأة، وعليه خطوط. ألتفت حولي لأرى كيف تتبدَّل هذه الخطوط بتبدُّل الضوء والموسيقى، وإذا بكلّ شيء ينبعث من خطّ نور، يصاحبه غبار صادر عن فتحة في جدار خلفنا. وما إن أرى المرأة والقطة والناس تتحرَّك حتى أقول لشقيقتي: «مثل صندوق الفرجة يللّي شفناه بالضيعة، بس هول عم يتحرَّكوا». المرأة تلاعب القطة. إمرأة اخرى تنهرها، ورجل يقبل ابنته التي كانت تلعب مع القطة، ويقبل المرأة الأخرى التي تنهرها. يأتي شاب يعتمر طربوشاً اسمه جلال (عبد الوهاب)، ويلمّ العقد الذي انفرط، ويروح يغنِّي: «يا ما جا كيت وبكيت». ثم أرى الشجر والطيور والنهر، ثم يتحدَّث الرجل العجوز مع الشاب الحزين عبد الوهاب، وينتهي الفيلم والبطل يغنِّي ويبكي، والأطفال يلعبون في الجنينة.

أخرج من الفيلم والغرفة لا تزال غاطسةً في العتمة. تسرع بي شقيقتي، وأنا أحاول أن أسرع مثلها ولا أستطيع، فأنا أريد أن أبقى على المقعد. أسألها لماذا يتحدَّثون بلهجة غريبة، لا أفهم منها إلاَّ بعض الجمل، فتقول لي إنَّها لهجة مصريَّة. أوشك أن أقول لها إنِّي أريد أن آتي لمحمد عبد الوهاب بجاكيت لأنَّه كان يغنِّي ويبكي «ياما جاكيت وبكيت» لكنِّي خفت ألاَّ تدعني أفعل. هل أسرق جاكيت شقيقي العابس سائق الترام؟ لكنِّي عدلت عن الفكرة بسرعة، وأنا

أتخيَّل لونها الكاكي، وأثار العرق تحت الأبطين. هل أسرق جاكيت زوج شقيقتي؟ لكنَّه لو عرف لربما ضربني.

كيف أسرق وهو يتدخَّل في كل صغيرة وكبيرة، يدور في البيت الصغير، ويلمس كلّ ما يجده، ويعيد ترتيبه، ويسأل من وضع هذا الشيء هنا، وذاك الشيء هناك، ومن فكر بإعداد الطبخة في هذه القدر لا تلك؟ أجدني أقلع بسرعة عن فكرة سرقتي الجاكيت خصوصًا لأنَّها كانت قصيرة، ضئيلة الحجم، وإذا ارتداها محمد عبد الوهاب ستكون قصيرة الأكمام، ولن تلامس ربّما خصره. هذا عدا أنَّ زوج شقيقتي يصلي ويقرأ القرآن، في حين أنَّ محمد عبد الوهاب كان يتحدَّث مع المرأة، ويغنِّي لها، ويعانقها، ويصفّر، وهويسير مسرع الخطى.

يحطّ نظري على رجل يمجّ سيكارة، ويرتدي جاكيت تليق بعبد الوهاب. أفكِّر أن أحتال على الرجل، أقول له إنَّ والدي فقير وهو يسعل ومريض، وإذا لم يرتدِ الجاكيت فإنَّه سيموت. لكن ماذا عن شقيقتي التي تمسكني من ذراعي؟ ستقول له إنِّي أكذب، بل لن تدعني أحدِّثه. أحاول أن أحفظ معالم المكان حيث يقف الرجل لأعود ربما في الغد، وأطلب منه هذه الجاكيت وأعطيها لعبد الوهاب. ولم يفارقني فيلم «الوردة البيضاء» وفكَّرتُ أنِّي لو بدَّلت إسمي باسم وردة لأصبحت قريبة من أطفال الفيلم، ومن الناس فيه.

وأخذت أسمع أغاني الفيلم عبر المذياع، وأهرب إلى البرج لأقف أمام اللوحة، وكأنِّي ألتقي بعبد الوهاب، وبالمرأة التي تدعى

سـمـيرة الخلوصي. لا أريد إلاَّ أن أكـون في الصـالة المعتـمـة، حـيث أجلس وأنصت إلى الأغاني والكلام المصري...

أسأل نفسي، إذا كنت أفضِّل السينما على أكل مرطبان الدبس بكامله، فأجدني أفضِّل السينما.

أفضِّلها حتى على محادثة البنت البيروتيَّة، حتى على لعبة «البيوت» في الحاكورة مع تفاحة.

أسترجع فيلم الوردة البيضاء في خيالي، وأرى محمد عبد الوهاب وسميرة الخلوصي أمامي، أسمع الأغنية والموسيقى في رأسي متى شئت، وأقابل بينها وبين غناء أمي وهي تهزّ سرير مولود شقيقتي الثالث: «حبيبي مارق لغليلو زوفا، وإن كان لها البلد ملك لعوفها».

أصبح أكثر انتباهاً وشوقًا إلى شقيقي البكر عاشق العود، أسأله هامسةً إذا شاهد «الوردة البيضاء»، وإذا كان يستطيع أن يغنِّي وهو ينقر العود مثل محمد عبد الوهاب؟ وإذا به يلتفت يساراً ويميناً، ويسأل شقيقته عن زوجها، وعندما تشير بيدها ضاحكةً، يأخذ بالدندنة، ويتصنَّع أنَّه ينقر العود الوهمي ويغنِّي:

«يا وردة الحب الصافي.. تسلم إيدين اللي سقاك

يا هل ترى.. يا هل ترى..يا هل ترى..»

ثم بدا كأنَّه يترك العود، ويمدّ يده بالوردة، وينظر إليها...

وأسأله إذا كان يفهم الكلام المصري لأنِّي لا أفهمه. عندئذٍ يسألني متعجِّبًا عمَّن أخذني لمشاهدة الفيلم. أكذب قائلة إنِّي لم

أره، لكنَّ شقيقتي تضحك، وتقول له « أنا » . وأفهم أنَّها لا تخاف من أخيها هذا، كما تخاف من زوجها وأخيها العابس الوجه، بل إنَّها تمازحه، وتضحك في حضوره.

بقي هذا الفيلم معروضًا لمدة طويلة حتى أصبحت لوحته عالية كأنَّها بناية. أقف أمامها كل يوم في طريقي إلى زوج شقيقتي لأسلِّمه « صطيلة » فيها طعام الغذاء. أقف أمام اللوحه أحدِّق إليها كأنِّي أراها للمرة الأولى، وأتخيَّل بكاء محمد عبد الوهاب لأنَّه يريد « جاكيت »، وأنظر إلى الرجال الذين كانوا يقفون على باب السينما، أريد أن أتحدَّث معهم حتى أتقرَّب من محمد عبد الوهاب وسميرة الخلوصي. ولم أكن أبتعد عن الفيلم وأبطاله إلاَّ عندما أزور شقيقتي الأخرى التي كان زوجها يضربها كلَّما وجَّهت إليه اللوم، وسألته عن النقود التي كان يراهن بها في سباق الخيل بدلاً من إطعام أولادهما، ومنهم الابن ذو الساق الخشبيَّة وكأنَّها سيبة بائع الكعك. ولم أخبر أحداً منهم عن الفيلم، إذ شعرتُ أنَّ عقولهم في مكان آخر، ولم أصدِّق أنَّ شقيقتي تقول لأمي « تركنا عالحصيرة ورهن كل شيء. واللّه فكَّرت روح عالطريق وأشحذ » .. ومع ذلك لم تقترح أمي أن تأتي لها بالنقود من زوج شقيقتي التي نعيش معها، أو من العابس، أو من شقيقي عاشق العود. أفكِّر لو أهرب، فأدخل السينما، ومنها إلى الشاشة حيث أعيش مع الممثِّلين الذين كانوا يتحدَّثون في الفيلم بكلِّ رقة، وينشغل بال بعضهم على البعض الآخر. وأتأكَّد من أنَّهم من طينة أخرى لأنَّهم ذهبوا، وتعلَّموا في المدارس.

«حمير الحجارة»

يتحوّل بيتنا، بين ليلة وضحاها، إلى بكاء وعويل، فشقيقتي ماتت إثر حمّى كاوية. تسمّمت من عضّة الجرذ المختبئ بين كومة من الاخشاب، ووسط صناديق الكرتون الفارغة التي كان يأتي بها زوجها لتسخين ماء «القازان».

تلوم أمي نفسها لموت شقيقتي، وتقول إنّ مجيئنا إلى بيروت وحلولنا فيها كان شؤمًا. تعضّ أصابعها، وتضرب يديها لأنّها لم تجمع الأخشاب ذلك المساء بدلاً من شقيقتي. تلوم الطبيب لأنّه لم يربط عضّة الجرذ بالحمّى الكاوية التي نتجت عنها، ولأنّه لم يكتشف إلاّ بعد فوات الأوان أنّ ما أصابها هو تسمُّم وليس شيئًا آخر.

زوج شقيقتي يحضن صبيانه الثلاثة ويبكي . للمرة الأولى أرى رجلاً يبكي، ويغرق في البكاء، من غير أن يمثّل دور الإمام

الحسين في ساحة النبطية. وأصبحت أُدْعى بعد موت شقيقتي، الكلب المسلوخ، لا «جنيّة الحواكير» كما كنت أدعى في النبطية، وذلك لقصر قامتي وصغر سني، ولعبي الدائم، وشيطنتي. ثم سرعان ما أصبح «حمير الحجارة» لأنَّ الكلب المسلوخ يشرد عن أمه ويذهب في كل مكان، أما حمير الحجارة فهي التي تنقل الحجارة من قرية إلى أخرى بأطرافها الدامية، لكثرة ما تتعثَّر بالأشواك والحجارة.

كانت أم تفاحة تأتي بالشعير للحمارين تضعه أمامهما قائلةً: «يسلم تعب إجريكم وظهركم يا حمير الحجارة»، فيتوقَّف الحماران عن النهيق، ويتلذّذان بأكل الشعير .وأنا بماذا أكافأ؟

يحثّني الكبار حتى أساعد أمي في تدبير شؤون أولاد شقيقتي وقضاء حاجاتهم، خوفًا من أن يشعروا بغياب أمهم، خصوصًا الصغير ولم يتجاوز عمره عامًا ونصفًا. وكانت زوجة شقيقي العابس ترضعه وترعاه وكأنَّه ولدها. وكلَّما تعلَّم الصغير أن ينطق كلمة جديدة، أو يضيف حركة، زاد حزن أمي وخبط صدرها ونواحها. وبدت لي أمي لا تحسن القيام بأعمال المنزل من غسيل، أو تنظيف، أو طهو الطعام، ولعلَّها كانت هكذا في النبطية. أسمع أنَّها ليست «قدّ الحمْل.. معمي قلبها، كسولة»، يتندَّرون أنَّها كانت تقول لزوجها الأول لحظة ركوبه البغل متَّجهًا إلى عمله: «هدّي، هدّي حتى أخبز لك كم رغيف خبز». ويبدو أن كتفيّ النحيلتين لم تستطيعا تحمُّل مسؤولية أولاد شقيقتي ومسؤولية أمي، وبعد مرور عامين اتفق زوج شقيقتي

وشقيقي العابس على الانتقال معًا إلى بيت واحد لينعم صبيان شقيقتي بدفء عائلة أخي العابس، خاصة أنّ «مرات خيّي» كانت قديرة، باهرة الذكاء والفطنة، وربّة بيت نشيطة. كنت أحبُّها، وهي تحبّني وتعطف عليّ، تسرِّح لي شعري الجعد الذي كان يتطلَّب الصبر والوقت، وتدافع عنّي كلَّما صرخ بي زوجها وهدَّدني.

ننتقل إلى بيت أو شقة كبيرة في محلة «رأس النبع» من أحياء بيروت الراقية.

توهَّمت أنّ سبب إختيارهم لهذه المنطقة هو وجود «نبع»، كما في الجنوب، ولم يكن هناك نبع، بل سبيل ماء يتدفَّق من جدار قرب دكان سمانة.

وكان زوج شقيقتي قد تحسَّنت أحواله الماديَّة، وأصبح له مخزن لبيع الأقمشة الأجنبية الرجاليَّة، بعد أن شارك جاراً له في السوق، وانسحب من شراكة شقيقي العابس، وكان الاثنان يحملان «الكشّة» سابقًا ويبيعان الخردوات. وأخذ شقيقي العابس في مساعدة زوج شقيقتي في البيع، وعلَّمه الجمع والطرح والقراءة والكتابة، ولكن بعد انتهاء دوامه في «قيادة الترين». وكان هذا الشريك الجار في غاية الذكاء «تعبان على لسانه» فصوَّر لزوج شقيقتي أنَّه سيفتح أمامه أبواب الجنة على الأرض .

وراح يدفع بالتقسيط، هو وشريكه الجديد، حصّة شقيقي العابس الذي ازداد عبوسًا وضيقًا، فها هي الفرصة الثانية تفوته...

بعد الفرصة الأولى حين أخرجته أمه من المدرسة حيث أحبَّ العلم.
كان بيتنا الجديد عاليًا نصعد الدرج الذي يحيط به «درابزين» أسود ذو زخرفة تشبه أولادًا يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا. وكان عبارة عن شقّة كبيرة يوحي بأنّه بيت منفرد لرحابته، وعلو جدرانه إضافةً إلى الكوى الزجاجيَّة الجميلة المزخرفة التي كانت تتوسَّط أعلى الجدران، فتزيد من النور الذي يشعّ من نوافذه العديدة. ندخل من بوّابته الكبيرة الخشبيَّة إلى «الدار» الواسعة التي كان اسمها «المنزول»، وعلى يمينها غرفة زوج شقيقتي، وكانت إحدى نوافذها تطل على الدرج وعلى حديقة بيت الجيران. هناك أيضًا غرفتان أخريان: واحدة ينام فيها صبيان البيت، وغرفة أخرى حيث تنام عائلة شقيقي العابس وبناته.

بين هذه الغرف تقع «الزاوية» حيث أنام وأمي. كنت أحسّها بيتي، فألعب هناك حيث الفرش الكثيرة المفروشة على الأرض في الليل، يشاركنا فيها الوافدون من أهالي الجنوب إلى بيروت، وهم من الأقرباء والأصدقاء. فبيتنا أصبح محطّة لكلّ من كان على سفر، أو أتى لعلاج طبيّ، أو لمراجعة الدوائر الحكوميَّة.

كان السطح هو الأحبّ إلى قلبي، نصعد درجات قليلة في العراء، ونصبح كأنّنا في حديقة عالية تطلّ على سطوح البنايات، وعلى جنائنها، وعلى بركة الماء والأشجار القليلة، خصوصًا شجرة الزنزلخت الوارفة.

إنتقالنا أجّج حزن أمي لأنّ ابنتها المتوفّاة التي ساعدت زوجها في بداية زواجها لم تنعم بثمار جهودها، وها هو زوجها الآن صاحب مخزن بات اسمه على لسان أهالي الجنوب سواء الذين يعيشون في بيروت أم الذين ما زالوا في الجنوب، وهؤلاء يستشهدون بأمانة زوج شقيقتي وجدّه المتواصل، فخورين بهذا الصبيّ اليتيم الذي أصبح يملك متجراً في سوق سرسق وهو من أهمّ الأسواق في المدينة.

كأنّ مأساة شقيقتي لم تكن الضربة القاضية على أمي. فبعد مرور عام أصيبت شقيقتي المتزوّجة بالمقامر بحمّى وفارقت الحياة بعد أيام. ولم تكن وفاتها نتيجة لعضّة جرذ بل نتيجة إنفجار الزائدة الدودية حين أخذت تعالج نفسها بناء على نصيحة الجيران بوضع لبخات من قشر البصل المغلي والكمون بدلاً من استشارة الطبيب. خلّفت وراءها خمسة أولاد: ابنتين وثلاثة صبيان. لكنّ بيتنا الجديد لم يدعنا نحزن طويلاً، إذ كانت نوافذه مفتوحة دائماً لأسرار، تتسلّل إليها الأغاني والموسيقى من أكثر من مذياع، فأطرب لأنغامها وأرافقها في الغناء ولو في قلبي، مندهشةً من الكلمات ومعانيها التي أخذت أفهمها، كأنّها لغة الكتب، لا تلك الأغاني التي كنت أسمعها على لسان النساء والرجال بين البيادر والحواكير.

«أنت وكيلي»

كنت ألعب على السطح عندما نادتني أمي وزوجة شقيقي العابس، لتطلبا إليّ الدخول إلى غرفة نوم الصبيان حيث أقول كلمتين: «أنت وكيلي»، ثم أخرج وأكمل لعبي.

تُحْكم زوجة شقيقي المنديل الأبيض على رأسي. أدخل وأجد نفسي أمام رجال يعتمرون الطرابيش الحمراء إضافةً إلى رجل ذي عمامة كالبطيخة كالذي ذهبت إليه أمي في النبطية من أجل «الكَلَفْ». أحاول أن أقول: «أنت وكيلي» وأهرب من الغرفة، لكنّي أتسمَّر في مكاني، ولم أنطق شيئًا، إذ كان الرجل ذو العمامة يردِّد الجمل الكثيرة وهو مطرق إلى الأرض. أفهم منها كلمات وقعها كوقع الصلاة، وبسملة، و«صلى اللّه على محمد وعلى آله وسلَّم»، ويتمتم الرجال من بعده: «صلى اللّه على محمد وعلى آله وسلَّم». فجأةً

يسأل الرجل ذو العمامة عن عمري، فيجيبه شقيقي: «عشر سنوات». يتلو كلمات كثيرة قبل أن يسألني أن أردِّد من بعده: «أنت وكيلي»، فأردّد: «أنت وكيلي»، وأسرع إلى باب الغرفة، أفتحه وأغادر لأرى أمي وزوجة شقيقي تقفان كأنَّهما تتنصّتان على ما كان يجري في الغرفة، وإذا بي أخاف أن تبدِّلا رأيهما، وتمنعاني من اللعب على السطح، لذلك بادرتهما قائلةً: «خلص قلت، أنت وكيلي شو بعد بدكن»؟. أركض إلى السطح وكلِّي عجب لأنَّ الكبار يضيِّعون الوقت، وينصتون إليَّ أردِّد بعد رجل العمامة «أنت وكيلي» بدلاً من أن يطلبوا إليَّ مسح الأرض، أو جلي الصحون، أو بدلاً من أن أوبَّخ لأنِّي تلكأت في الإتيان بولدي شقيقتي وشقيقي العابس، أو لأنِّي ضُبطت وأنا ألعب متناسيةً طفل شقيقتي.

أنسى ما حدث في تلك الغرفة، وأنسى هاتين الكلمتين: «أنت وكيلي»، إلى أن ذكَّرني بهما الشاب الذي كان يشبه ممثلي السينما، والذي التقيت به في بيت فاطمة الخياطة بعد عامين حين اصطحبني زوج أختي المتوفاة ذات صباح لأتعلَّم هناك التفصيل والخياطة. أسأل كلّ من في البيت، لماذا لا ألتحق بالمدرسة الحقيقيَّة، حتى أتعلَّم الكتابة والقراءة؟ لكنَّهم كانوا يردِّدون أنِّي كبيرة والتلامذة الصغار سوف يضحكون عليّ. وحين أجيبهم «خلليهم يضحكوا عليّ»، تفهمني أمي أنَّ دوام المدرسة الحقيقيَّة يستمرّ طوال النهار، ومن سيأخذ الصبيان إلى المدرسة؟ ومن سيحمل طعام الغذاء لهما ولزوج شقيقتي، ومن سيساعد في الغسيل؟.

أدخل بيت الخياطة فاطمة من الحديقة، تستقبلني بابتسامة كبيرة، وما إن يغادرنا زوج شقيقتي حتى أشعر بعطفها عليّ، فأحبُّها للتو. كانت تختلف عن أيّة امرأة صادفتها، تتحدَّث بلهجة بيروتيَّة وبصوت مرتفع، تشتم وتلعن وتضحك، حتى ضحكتها كانت متواصلة مثل أصوات «الواوية»، بينما السيكارة تتدلّى من فمها. وتنفث الدخان في وجهي بعد أن تبلعه، وتخرجه من أنفها الطويل. عيناها هما الواسعتان الرقيقتان، والغاضبتان في آن، لا تبكي، ولا تنهمك في شؤون البيت. تدير المذياع بأعلى صوت ، تغلي القهوة طوال النهار تشربها، وتدخِّن، تتلوَّى عند سماعها الأغاني حين تكبّ على مكنة الخياطة، أو حين تكون على الأرض في صحن الدار. تفرش القماش الذي تمدُّه بين فخذيها المبعدين، تعلِّم خطًّا بصابونة رفيعة، وتقصُّه بمقصّ يشبه سمكتين. وكانت النقود تفارق عبّها وجيبها بسهولة كلَّما أرسلتني لأشتري لها علبة دخان. أقول لها باستهجان إنَّها الوحيدة التي تفعل ذلك، لأنَّ شقيقي وزوج شقيقتي يخبِّئان النقود في «حوصلة الدجاج»، فتضحك الخياطة وتمسك بشعري الأسود الكثيف بعد أن تطلب إليَّ أن أرفع عن رأسي المنديل، ثم تطري جمالي، والسيكارة متدليَّة من شفتيها. ولم أكن أعرف أنَّ معاملتها الطيِّبة وعطفها عليَّ كان مصدرهما الشفقة، فكلَّما أجيء متأخِّرة في الصباح أحاول إخبارها عن سبب تأخُّري، كانت تهزّ رأسها وكلُّها شعور بما أعانيه، وكلُّها تقدير لتعبي، وتردِّد: «عارفة، عارفة» أنت مثل «حمير الحجارة». أفرح لأنَّها تستعمل

اللقب الذي كنت قد أطلقته على نفسي. أقول لها هذا فتثني على ذكائي، وتخبرني أنَّها طالما أحبَّت حمير الحجارة، وأشفقت عليها.

أتمنَّى لو أعيش معها، رغم أنَّها كانت تثني على بيتنا، وعلى زوج شقيقتي صاحب المخزن في سوق سرسق وذلك أمام كلّ من يدخل بيتها ويراني. ورغم شعوري بالزهو لما أسمعه من إطراء أحدِّثها وأنا أضحك من كل قلبي، كيف يطرق زوج شقيقتي في سيره إلى الأرض ربَّما عثر على شيء، وكيف يتدخَّل في الصغيرة والكبيرة في أمور البيت، وكأنَّه امرأة.

أخذت أتسلَّى بمراقبة فاطمة الخياطة، ويدها على مكنة الخياطة السحريَّة، كما أتعلَّم منها التسريج واللقط وتثبيت الأزرار، وما إن تتركني وتذهب إلى المطبخ، حيث تنهمك في الطبخ، حتى أدخل غرفتها، أفرش مصلاة أمها وأنسلّ تحت السرير النحاسيّ الذي كان يرتفع عن الأرض أشباراً عديدة، وأحضن نفسي، وأنام سعيدة، إلى أن تأتي وتنهرني: «يللا قومي، قومي أنت متدلعة كثير».

تزداد حماستي للذهاب إليها كلّ صباح يومًا بعد آخر، مع إزدياد حبِّي للتطريز والخيطان الملوَّنة. أجلس والإبرة في يدي، وحيدةً، بعيدةً عن بيتنا، وعن الصخب والطلبات التي تسألني أن أفعل هذا، أو لا أفعل ذاك. أصدح بالغناء، كما يفعل الحصّادون والفلاحون في النبطية، لا كما أغنِّي في حمام بيتنا بصوت منخفض خوفًا من أن يسمعني شقيقي العابس، أو زوج شقيقتي، فيكتشفا

أنِّي ذهبت إلى السينما. هذا عدا أنَّ أمي كانت دائمة البكاء، يعصرها الحزن عصراً.

أغنِّي وأنا أتصوَّر أنِّي البطلة التي تطرِّز، التي ترى الوردة الحمراء المكتملة على القماش، التي أُبعد عنها حبيبها لأنَّه غنيّ وهي فقيرة. أغنِّي مقلِّدة محمد عبد الوهاب «ضحيت غرامي عشان هواك، لو كنت طاوعت قلبي، لم أكن غبت عنك يوم...» ثم أنتقل إلى الأغنية الأخرى لأنِّي لم أكن أعرف الكلمات الباقية... «يا وردة الحب الصافي، تسلم إيدين يللي سقاك، يا هل ترى... يا هل ترى...»

كان في بيت فاطمة الخياطة شاب قريب لها يسمعني أغنِّي، ويطرب لصوتي من غير أن أدري، وإذا به يصمِّم على رؤيتي، فيجلس عند البركة، في الجنينة، يتصنَّع القراءة، منتظراً إطلالتي. أخرج من الغرفة إلى الدار، وأرى شابًّا ذا شعر كستنائيّ أملس، وعينين واسعتين يجلس على حافة البركة، وكأنَّ الجنية أخرجته من الماء.

كان المنظر وكأنَّه مأخوذ من فيلم «الوردة البيضاء» رغم أنَّ الشاب لم يكن يعتمر الطربوش الأحمر. أسمعه يسأل الخياطة فاطمة بهمسة رنَّت في أذني من شدّة رقتها:

«شغل وين هالحلوة»، لتجيبه فاطمة الخياطة: «شغل النبطية».

لم يكن يشبه أيّ شاب رأيته في النبطية أو في بيروت. معظم الرجال شعورهم سوداء، جعدة، وأعينهم سوداء ضيِّقة، وقاماتهم قصيرة، أو سمينة إذا كانت طويلة. جاء هو أيضًا من قرية في الجنوب، قريبة من الساحل، ليتلقَّى العلوم في صيدا. تخبرني فاطمة الخياطة بكلّ اعتزار أنَّ عائلته «هاي لايف». ولما لم أفهم ما قصدته أضافت: «يعني مش كيف ما كان. أصلهم أشراف وأمراء.. وأبوه مختار الضيعة من حوالي ٣٠ سنة، وعندهم فرسان يشغِّلونهما بسباق الخيل».

أقول لها إنَّ جدّي كان لديه فرس يمتطيها، ولو أنَّه ما زال حيًّا لكنت أملك فرسًا. تبتسم لي وتسألني: «يمكن جدك كان عنده بغل.. الفرس غير شكل».

«هاي لايف» هذه الكلمة تعلق في ذهني، كل من حولي من النازحين في الجنوب كانوا يعملون ويكدُّون بمن فيهم أنا، بينما عائلة الشاب، وكان إسمه محمد، تجعل خيولها تركض وتعمل من أجلها.

ثم أفطن إلى زوج شقيقتي المقامر الذي رهن كل ما في بيته «مشان يلعب ويقامر بالسبق» وأفكِّر أنَّ نقوده هذه قد أخذها أهل الشاب هذا. أريد أن أخبر فاطمة الخياطة، لكنِّي ألجم لساني، وأستمع إليها وهي تخبرني بكلّ سعادة وفخر أنَّ الشاب ينام عندها حين يترك صيدا ويقصد بيروت مرّةً كلّ أسبوع. كانت تتقاسم البيت مع أقرباء لها كما هي عادة النازحين من القرى، فيشترك جميعهم في

« الدار »، والمطبخ، والحمام الوحيد. ولم تعد تجذبني الخيطان الملوّنة، ولا الوردة التي أريد أن أكمِّل تطريز ورقاتها الحمراء، ولا مراقبة الخياطة فاطمة، بقدر ما جذبني وجود الشاب في الحديقة وهو يقرأ في كتاب، أتأمَّله وهو ينظر من حين إلى آخر في ماء البركة وصوب البيت. ما إن أخذنا نتبادل الحديث حتى سألته إذا كان قد رأى « الوردة البيضاء »، وأنا أبحلق في الجاكيت خاصته، ثم أسأله إذا كان لديه جاكيت غير التي يلبسها، يتردَّد قبل أن يجيبني بكلمة: « طبعًا، ليش؟ » فأخبره بأنِّي أريد أن أعطي محمد عبد الوهاب « جاكيت » لأنَّه يغنِّي بلوعة: « يا ما جاكيت وبكيت ». وإذا بالشاب يضحك، يضحك عاليًا، يغصّ في الضحك ويغنِّي: « يا ما بكيت وشكيت.. شفت الفرح والهنا وشربت كأس المنى ». يسألني عن عمري وأجيبه ١٢، وأسأله عن عمره فيقول لي: « ١٧ سنة بالتمام والكمال ». يعود ويسألني لماذا أتعلَّم الخياطة؟ هل أحب التفصيل والتطريز؟ أجيبه: « يللا أحسن من بلا شي » يقول: « لو كنت بتروحي عالمدرسة كنت فهمتِ شو عم يغنِّي عبد الوهاب ». أجيبه بسرعة مداراةً لخجلي: « بس هو يغنِّي بالمصري، مشان هيك ما فهمت ». يسألني وهو يضحك: « وكيف كنت ناوية توصليله الجاكيت؟ » يخبرني أنَّ محمد عبد الوهاب لا بدّ أنَّه يملك مائة جاكيت، وأنَّ ما رأيته لا يجب تصديقه على أنَّه حقيقة... رغم أنَّ الأفلام تصوِّر حالة المجتمع. يخبرني أنَّ « الوردة البيضاء »، أول فيلم غنائيّ، هو أعجوبة تصوِّر كيف أنَّ الاثرياء لا يتزوَّجون الفقراء،

وحتى أفراداً من طبقة متوسطة. لذلك يعاني الحب، وينتهي دائمًا بالرفض... ثم يعلّق أنَّ الشاعر الكبير أحمد شوقي، أخذ محمد عبد الوهاب «تحت جناحه». مضيفًا أنَّ أخا عبد الوهاب كان ينهال على المطرب الكبير ضربًا بسبب حبِّه للغناء وللموسيقى. فأخبره بدوري عن شقيقي البكر الذي أراد أن ينقر على العود كمهنة، لكنَّه أخذ يعمل في الفرن، ولم أخبره أنَّه يريد أن يشتري حذاء وملابس، ويريد أن يأكل ويشرب. لكنِّي أخبره كيف أنَّه كعبد الوهاب يخاف أن ينقر العود أمام شقيقه العابس رغم أنَّ هذا الأخير يصغره سنًا... وأخبره عن أخي كامل وصوته الجميل، والذي يودّ لو يصبح مطربًا، ولا يعرف كيف؟

وأخذت أتشوَّق لزيارة محمد خصوصًا أنَّه يقول لي: «تسلملي طبعة ذقنك»، ويلمّ بأشياء كثيرة، كقوله لي عندما أخبرته عن شقيقي العابس إنَّه يحقد على أمنا لأنَّها تزوَّجت أبي، ولأنَّها أخرجته من المدرسة، ولذلك يصبّ غيظه عليَّ.

وأخذ محمد يسدي لي النصائح بكلّ هدوء، وكأنَّه يسير على البيض. فيقترح أن يكون لي شنطة يد صغيرة، حين رآني أعطي ما تبقَّى من ثمن علبة السكائر إلى الخياطة فاطمة.

هذه الشنطة مكوَّنة من كيس صغير أعلِّقه حول رقبتي، فيتدلَّى تحت ملابسي، أو من منديل أخبِّئه بكفّ يدي. ثم يتجرأ محمد بعد مرور أسابيع، ويقترح عليَّ أن أرتدي حمَّالة، وكنت قد

لاحظت أنَّ المارة ينظرون إلى صدري كلَّما أسرعت في السير، ثم يقدِّم لي وهو يعتذر فرشاة ومعجونًا للأسنان عندما رآني أفرك أسناني بالملح والماء. وطرت فرحًا لأنَّ هناك من يفكِّر بي، ومن يهتمّ بي. أراه يكتب فروضه بالريشة بعد أن يغطِّها في المحبرة. فأقول له إنَّ المحبرة كالبئر داكنة، وما تخطّه الريشة يشبه المسامير على الورق. فيهزّ رأسه تعجُّبًا لوصفي هذا، ويسألني ممّن سمعته؟ يكتب بقلم الكوبياء، وبقلم الرصاص. أسأله أن يقرأ لي ما يكتبه فيقرأ لي وكأنَّه المذياع، أو محمد عبد الوهاب في الفيلم. كنت أظنّ أنَّه يؤلّف كلّ ما يكتبه لكنَّه أخبرني أنَّه ينسخ ما يحبه من المجلة.

« يا حياة الروح يا روح الحياة. يا عروس الشعر يا أجمل فتاة

قلبي إلك، يا هل ترى قلبك إلي.. خبريني دخل اللّه يا حياة »

واذا بي أتلو عليه الأغنية التي ألفتها وأنا في الجنوب..

« لا تفرحي يا سنابل الشعر الطويل

بكرة المنجل.. بيتحنجل وبخرمشلك بطنك

وبيقصّلك شعرك الطويل...

وبتخلص المواويل...»

يطلب إليَّ أن أقسم باللّه إنَّ ما تلوت عليه هو من كلماتي. أعرف لماذا لم يصدِّقني لأنَّه أمسكني القلم مرّةً حتى يعلِّمني كيف أكتب اسمي، ولم أعرف كيف أمسك به. ولم يحزر أنِّي أستطيع أن

أكتب فقط بعقلي، من غير ورقة أو قلم. يقول لي إنَّ صورة المنجل عم «يخرمش» البطن صورة رائعة، ولم أفهم لماذا وصفها بالصورة وأنا لم أرسمها، لكنِّي أهزّ رأسي، وكأنِّي أفهم ما يقصده. ولم تكن كلّ هذه الأوراق التي يخبِّئها في جيوب بنطلونه هي أشعار نسخها، بل «تحارير» من أخوته، ومن أهله، ومن أقرباء له في الضيعة. أسأله وكلِّي فضول لماذا يكتبون له؟ وكنت قد فكَّرت أنَّ كتابة الرسائل للذين يهاجرون إلى البرازيل أو إلى أستراليا، لا من الضيعة إلى بيروت، فأفكِّر لماذا لا يرسل لنا أبي التحارير يسأل عن صحتي وصحة أخي كامل، خصوصاً أنَّه كان ينظم أبيات الزجل والشعر؟ لماذا يهتمّ أهل محمد ببعضهم بعضاً، وكل فرد من عائلتي يهتمّ بنفسه فقط؟ لماذا لم تصلنا «التحارير» عندما توفيت شقيقتي، ثم شقيقتي الثانية؟ يطوف في خيالي خالي الاسكافي في سوق النبطية، وخالتي التي تسبح في بطنها الحيَّة، ولم أعد أتساءل لماذا لا تأتينا «المكاتيب».

أسأل (محمد) أن يقرأ لي أيّ تحرير، والفضول يعتريني، لأعرف ما يخبرون لبعضهم بعضاً، فيقرأ لي محمد وأنا لا أحيد نظري عن فمه وعينيه، وكأنِّي أشهد أعجوبة.

«عزيزي محمد: ما أجملك وما أجمل اسمك... أنت جميل وقد توّج جسمك بهذا الاسم الجميل فأصبحت كلُّك جمالاً بجمال، وأصبح فرضاً واجباً أن يحبّك كلّ من رآك وحدَّثك من رجال ونساء، فكيف بأخيك؟.»

وقلّما أرى (محمد) من غير كتاب أو مجلة في يده. ولم تكن كتبًا تتعلّق بدراسته، بل كانت قصصًا وشعرًا، كما أخبرني. ولم أكن قد رأيت كتبًا في بيتنا غير الكتب المدرسيّة الخاصة بأولاد شقيقتي وشقيقي العابس، وطبعًا القرآن الكريم الموضوع على قطعة أثاث صغيرة ندعوها «بالمغسلة» لأنّ عليها لوحًا من الرخام. أسأل (محمد) عن كلّ كتاب، ليقصّ عليّ قصصًا عن هارون الرشيد وبغداد والجواري، عن ناس عاشوا قبلنا بمئات السنين. وكانت الخياطة فاطمة تسألني عمّا نتحدّث، وأخبرها بدوري كلّ ما يقصّه عليّ، فتعلّق: «بس يعني عطاك صف تاريخ»؟.

أشبّه نفسي وأنا بالقرب من محمد بالقطط التي تحفّ جسدها بمن يقدّم لها قطعة من اللحم أو كسرة من الخبز، وأحيانًا تحفّ جسدها بالجدران الدافئة كلّما شعرت بالبرد.

يدعوني محمد لأشاهد فيلم «الوردة البيضاء» معه، فيجيبه لساني غضبًا عنّي بأنّي لا أستطيع أن أتأخّر عن ولدي شقيقتي وشقيقي لأوصلهما إلى البيت بعد المدرسة. لم أفكّر لحظة بأنّه كان يقصد مشاهدة الفيلم في الليل، فأجيبه: «بدك خيّي يموتني»؟ يضيف بأنّ فاطمة الخياطة ستكون معنا عندئذٍ أجبته: «ولو فاطمة بنت النبي إجت معنا، خيّ بموّتني». يضحك محمد لجملتي هذه، ونتفق على أن نذهب يوم جمعة، في عطلة المدرسة الأسبوعيّة. وهكذا كان. فقد أتى لفاطمة بعلبة سكائر، ووضع تذكرتي السينما

بداخلها، لأنَّ أقرباء فاطمة الخياطة الذين كانوا يشاركونها البيت قد بدأوا يشكون بنيّاتها.

ندخل السينما في العتمة، وتجلسني الخياطة فاطمة على الطرف. لحظات ويأتي محمد ويجلس إلى جانبها. يمدّ وجهه حتى يشرح لي هذا المشهد أو ذاك، بينما لم تتوقَّف الخياطة فاطمة عن مسح دموعها والتنهُّد. يلامس كفها رأسه مرّةً أو مرّتين، وفجأة أخذت أفهم الكلام المصري وما يجري، وكأنَّ البطلة «رجاء» ترفعني عن مقعدي، تلبسني فستانها، أنا معها إلى جانبها، أرى الحدائق، وأرى الأزهار والوردة البيضاء، أقطف معها الوردة... أمتطي معها السيارة، أذهب إلى الريف، أصبح هي... قلبي يطرب لما يغنّي لي... ماذا أفعل... أنا هي... أغني مع عبد الوهاب... أنّي أحبُّه... هو لي.

أحبّ البيت الكبير وأتمنّى لو أنَّ في بيتنا «غرامافون»، لو أنَّ في بيتنا مزهريَّة، لو أرتدي فستانًا ذا كشاكش، وأصنع عقداً يتدلّى من رقبتي. لماذا لست مثل «رجاء» في الفيلم يحبُّها الجميع ويدلِّعها بدلاً من أن أكون حمير الحجارة؟ لماذا إذا نظرت في النجوم أنَّبتني أمي خوفًا من أن تنبت «التواليل» على وجهي، بينما عبد الوهاب يغنّي وهو ينظر إلى النجوم «يا ما قضيت الليالي سهران... سهران أعد النجوم...»

كنت على حقّ عندما فكَّرت أنَّ (محمد) يشبه الممثِّلين، إنَّه يرتدي ثيابًا شبيهة بملابس عبد الوهاب، يتحدَّث عن لغة الشعر

والعلم. تسحبني الخياطة فاطمة من يدي إذ أردت أن أظلّ في مقعدي، ونغادر غضبًا عنّي، قبل أن تُضاء الأنوار.

تزداد الهمسات بين سكان بيت فاطمة الخياطة بأنّ محمد قد وقع في غرامي. أسمع فاطمة الخياطة تخبرني بهذا وهي في أوج السعادة: «الملعون عم يروّج ها الإشاعة حتى ما يصيرش قيل وقال، ويوسّخلي سمعتي عالفاضي.. يا اللّه الحب شو بيعمل!». ووجدتني أتذكّر فيلم «الوردة البيضاء»، وأقلّد ما قاله والد رجاء عندما رفض أن يزوّج ابنته للمغنّي عبد الوهاب: «أنا أب، إزاي أزوّج بنتي لمغنواتي؟ أتركك لضميرك... قدّر مركزي كأب... ربنا يساعدني...»

وأضيف: «وأهل محمد راح يقولوا كيف بدّك تتجوّز من خياطة ونحنا هاي لايف، وعندنا أحصنة وأبونا مختار»، وإذا بفاطمة تقهقه مثل الجنيّات: «يلعن أبوك على خفّة دمك.. محمد ما معوش نكلة، بعده تلميذ، ومش قادر هلق يتجوّز ويفتح بيت».

ثم ينقطع محمد فجأة عن زيارة فاطمة الخياطة، لا بدّ أنّ أهله منعوه من زيارتها بينما تفكّر فاطمة الخياطة أنّه منهمك في دروسه ليقدّم الامتحانات. أكتشف عندئذٍ وكلّما مررت بالبركة ولم أره واقفًا أو جالسًا على حافتها، كلّما رأيت المحبرة والريشة موضوعة على «البيرو»، أكتشف ماذا تعني كلمة الاشتياق. وبقيت ملتاعة إلى أن رأيت محمد في الأسبوع الثالث واقفًا عند البركة، فأسرعت إليه

والسعادة تطفح منّي، فقابلني ببرودة ظاهرة. هل لأنّي لم أرتدِ حمّالة لأنَّ حمالتي قد انقطعت؟ يمضي محمد في تجاهلي يقرأ في الكتاب الذي كان في يده، فأسأله إذا كان يقرأ قصة تاريخيَّة، فيجيبني باقتضاب أنَّه «كتاب شعر». أسأله «ما اسمه؟» فيتمتم: «أرجوحة القمر»، فأضحك أريد إضحاكه معلّقة: «نيالو القمر عندو مرجوحة» وعندما لا يضحك، يذكّرني بشقيقي العابس، لذلك أنصرف عنه محتارةً بأمره، وإذا به يسألني بل يتّهمني: «أنت مخطوبة وعم تخبّي عليّ... مكتوب كتابك وعم تخبّي عليّ!؟» يطوف في خيالي البائع الذي أراد قبلة منّي ليزيد كميَّة السمنة، فهل من المعقول أنّه خطبني من غير أن أدري؟ ووجدتني أنكر أنّي مخطوبة، لا لأنَّ هذه هي الحقيقة، بل لأنّي اعتدت أن أنكر كلّ شيء أخاف من عاقبته. وإذا بمحمد يرفع صوته:

ـ بلا كذب ونفاق... مكتوب كتابك على جوز أختك المرحومة...»

ـ أنا للبعبع؟، وحياة اللّه، والنبي محمد، والإمام علي، إنّي مش مخطوبة لحدا. كذب ونفاق.

ـ اللّه يباركلك... على كل... أنا بتفهم ظروفك...

أخذت أنوح وأبكي طالبةً إليه تصديقي. أزيد من بكائي لأنّي رأيت نفسي، فجأةً، وكأنّي في مشهد سينمائيّ: بطل وبطلة، يقفان حول البركة، يوجّه البطل التهم للبطلة ذات البشرة البيضاء، والشعر

الفاحم التي تتحرّك بخفّة الفراشات، وترفرف حوله باكيةً لأنّها بريئة تحاول الدفاع عن نفسها. وتأتيني رغبة في أن ألقي رأسي على صدره وأبكي، بدلاً من أن أتقوقع على نفسي كالعادة، إذا ما مسّت كبريائي كلمة أو تعليق من أفراد عائلتي، ككلمة «فجعانة أو أم نفس دنيّة»، وإذا بمحمد يحاول تهدئتي، وينادي عم الخياطة فاطمة الذي كان منشغلاً بتصليح «بابور الكاز»، فيقترب منّا وقبل أن يسأله محمد شيئًا يهتف: «واللّه أهلك مجرمين وعلى راسن الشيخ يللي كتب كتابك.. واحد من الشهود خبّرني القصة! ما طاوعوا قلبو يكون شاهد على كَتْب كتاب بنت عمرها عشر سنين.. صار يطلع درجكم وينزل، يطلع درجكم وينزل بدّو يهرب، وبعدين قنع حالو.. وقال يللا كَتْب الكتاب هو حبر على ورق».

وقبل أن أدافع عن نفسي أفطن فجأة إلى كلمة «أنت وكيلي»، كما أفطن إلى الشيخ ذي العمامة، والرجال في غرفة الصبيان في بيتنا، قبل عامين. وكانت فاطمة الخياطة قد أصبحت على مقربة منّا، وعندما رأيت عينيها تتأمّلانني بإشفاق، ورأسها يميل إلى الجهتين بأسف، وشفتها تعضّ على الشفة السفلى، حتى أسرعت راكضةً إلى البيت، أسأل أمي إذا كان ما سمعته صحيحًا، فتجيبني «أنّ كَتْب الكتاب هو من أجل الحلال والحرام»، حتى لا يعاقبني اللّه اذا ما رآني زوج شقيقتي مصادفةً من غير منديل على رأسي.

أكرّ راجعة إلى بيت الخياطة فاطمة حتى أؤكّد لمحمد أنّي لست مخطوبة إلى زوج شقيقتي المرحومة، وأتوسّل إليه ألاّ يصبح كأفراد

عائلتي قاسيًا، لكنَّ فاطمة الخياطة تخبرني أنَّه غادر إلى مدرسته في صيدا، وأقسم ألاَّ يعود قطّ إلى بيروت. يغوص قلبي في أحشائي، لكن ما إن تغمرني فاطمة، وتفهمني أنَّه يحبني حتى أشعر بالسعادة. تزيد أنَّ محمد قد وقع صريع غرامي «ساح كأنُّو سمنة» أمام جمالي وخفَّة دمي، منذ أن طلبت إليه الجاكيت لأرسلها إلى محمد عبد الوهاب. لكنَّ (محمد) عدل عن قراره بعدم المجيء إلى بيروت، فرأيته ذات يوم يقف بانتظاري عند البركة عينها.

وكانت الدبابير تحوم حول الماء، وهو ما جعلني أتراجع وأقول من بعيد «مظبوط... قلت للشيخ أنت وكيلي بس مشان الحلال والحرام، مش مشان التِّرْ...» سألني عن الكلمة الأخيرة وأعدتها «التِّرْ»، استفهمني ماذا أقصد بكلمة «التِّرْ»، أخبِّئ وجهي ولا أجيبه، لأنِّي لا أعرف لماذا نطقت بهذه الكلمة، وكيف لفظها لساني، وهل يا تُرى سمعتها من قبل؟ هل «التِّرْ» هو الزواج؟ هو القبلات؟ هل هو انجاب الأطفال؟

«نقطة دم واحدة»

عام يمرّ، ورؤيتي لمجمد أصبحت ضرورية كالخبز. يأتيني بضمّة من البنفسج، ويطير عقلي، ويخفق قلبي، وآخذ في البكاء. من غيره يفكِّر أن يعطيني شيئًا من تلقاء نفسه؟ فكيف إذا كان هذا الشيء جميلاً؟ أسأله إذا كانت ضمّة البنفسج هذه هي لي. يؤكِّد أنَّها لي. فأسرع أدور حول نفسي، كما البطلة في الفيلم، متمنِّيةً لو أنَّ الحديقة أوسع ممّا هي، لو أنَّها تغصّ بالأشجار حتى أغنِّي وأخبِّئ وجهي خلف شجرة، وأعود فأظهره.

لكنَّ نقطة دم واحدة تقع على سروالي التحتي جعلتني أركض إلى فاطمة الخياطة، وأنا أبكي وكلي اقتناع بأنِّي سأموت، وكنت قد رأيت الدماء تغطِّي زندي قبل أشهر عندما صعدت على كرسي لآتي لابنة شقيقي بمرطبان مربّى السفرجل من «النمليَّة»، فوقعت أنا

والمرطبان على الأرض، وتناثر المربى على الأرض، وهو ما جعل شقيقي العابس يتمتم: «يا ليتها القاضية».

وأخذت أولول وأبكي لأنَّ زجاجة دخلت زندي، وراح الدم يتدفَّق منها. أركض إلى أمي أعانقها وأقول لها: «بدي بوسك يا أمي قبل ما موت». ويبدو أنَّ شعوري بأنَّ الموت قد اقترب لرؤيتي نقطة الدم على سروالي، لم يكن من غير حسبان أو بعيداً عن الواقع. كأنَّ نقطة الدم هذه ساعة غير موجودة على معصمي أو في البيت، هي التي ترّمت الوقت والشهر والسنة واليوم.

والحيلة التي انطلت عليّ حتى تأخذ الخياطة مقاسي من أجل قريبة زوجة شقيقي، كما قيل لي، تنكشف ما أن أرى الفساتين متكدِّسة بعد شهر على الطاولة، وما أن أرى فستاناً أبيض في بيتها هو فستان زفاف. وكما يحدث في الفيلم أرى نفسي البطلة التي تكتشف مصادفةً ومن خلال فستان الزفاف الأبيض، أنَّها ستتزوَّج. يتعالى بكائي، أشدّ شعري، وأمدّ يدي أمام أمي وزوجة شقيقي حتى تتبينا أنِّي نزعت فعلاً خصلة من خصلاته، أضرب صدري وأنادي: «غمي على قلبي دخيلكم غمي على قلبي». أهرب إلى الخياطة فاطمة أخبرها بما حصل، لتعترف لي بأنَّ زوج شقيقتي قد أتى بي إليها من أجل أن تعلِّمني الخياطة، وأصبح صورة طبق الأصل عن زوجته أي شقيقتي الراحلة. وأخذت أضرب صدري بكلّ عزم، وأنا أبكي، وأضرب وجهي لأنِّي وقعت في المصيدة، كأنَّ وجهي

وجسمي، وكل ما بي، يقف ضدي. كيف صدَّقت للحظة واحدة أنَّ عائلتي تودّ أن تعلِّمني الخياطة لتصبح لي مهنة؟ وكيف صدَّقت أنَّهم لا يريدون إدخالي نار جهنم حين طلبوا إليَّ أن أردِّد: «أنت وكيلي»؟ «إذاً أنت وكيلي» هي من أجل التِّرْ. وحتى الشيخ ذو العمامة علم بذلك ومضى في الخطّة. أسأل أمي وأنا أبكي، لماذا فعلت هذا الأمر بي؟ تبكي أمي وتبكي زوجة شقيقي، وهما تحاولان اقناعي، تحاولان أن تستدرّا عطفي على أولاد شقيقتي المتوفاة. هما، خائفتان من أن يتزوَّج زوج شقيقتي بسواي، فتأتي زوجة أب قاسية تسقي أولاد شقيقتي المرّ والحنظل، وربما تهملهم عمداً، خصوصًا الصغير، إلى حدّ المرض ثم الموت. وكان كلّ ما يتعلَّق بصبيان شقيقتي الثلاثة محزنًا، حتى إذا ضحكوا بكى كل من في البيت لأنَّ أمهم لا تسمعهم يضحكون. حتى أسماؤهم الدينيَّة كانت مصدر حزن كبير: حسين، الإمام الذي استشهد وقطع رأسه، شقيقه حسن الذي سُمِّمَ أيضًا، ووالدهما الإمام علي الذي قتل قبلهما...

وراح الجميع يصوِّرون لي أنِّي أمسك بقلوب الصبيان الثلاثة في قبضة يدي. أتزوَّج والدهم فينبضون بالحياة. أرفض الزواج من والدهم فأترك قلوبهم تتلاشى وتتوقف. أفرّ هاربةً إلى سطح البيت، وإذا رأيت الدرج، أيقنت أنَّهم لا بدَّ أن يعثروا عليَّ، فأسرع هاربة إلى شقيقي عاشق العود، وقليلاً ما كنّا نراه لأنَّه لم يكن يحبّ زيارتنا. أستجير بشقيقي باكيةً، أشكو له أمي وشقيقي العابس لأنَّهما يريدان

تزويجي. أقول له: «مش إنت الكبير وهو أصغر منَّك، لازم يسمع كلمتك»، يطبطب شقيقي على كتفي قائلاً: «طوِّلي بالك...».

أنتظر أن يكمِّل جملته مؤكِّداً مساعدتي، أمسح عيني وأشرق بأنفي. ما إن يراني أتمالك نفسي حتى يتناول عوده، ويسألني إذا أردت أن أسمع أغنية «يا وردة الحب الصافي». أهرب منه إلى الخياطة فاطمة أبكي، وإذا بها تقترح عليّ أن «أكعّيهم» أي أن أطلب الطلبات الكثيرة المستعصية شرط موافقتي على الزواج: «هيك بتكسبي وقت خاصة إنو جوز شقيقتك بخيل...»

وكنت في النبطِية أستمع إلى القصص الخرافيَّة حيث التكييع فيها مهمّ: «بدي يا شاطر حسن حبّة قمح من بطن عصفور شرط يكون بجناحو ريشة زرقاء». وأستمع أيضاً إلى حكاية المارد الأسود الطويل الذي خرج من القمقم وقال: «شبّيك لبّيك عبدك بين إديك». فقالت له العجوز الشمطاء: «بدي إيَّاك تطير فيّ وتأخذني على بلاد فيها صرامي بتحكي وبتضرب وبتصّقف».

أشترط على أعدائي أن يأتوا لي بدجاجة محمّرة شرط أن تكون من المطعم، وكلّي يقين بأنَّهم سيأتون لي بدجاجة يحبسونها في الحمام لعدة أيام، ويرمون لها الحب والزؤان لتسمن، ثم يذبحونها ويطبخونها، فتأكلها العائلة ومن كان يزورنا.

وكلي ثقة بأنَّ أحداً من أعدائي لن يطأ عتبة المطعم... فقد كان لعلية القوم الذين لينسوا بحاجة إلى التوفير. لكنَّ الدجاجة

المحمَّرة رغم خيبة أملي أتتني، إشتراها زوج شقيقتي على مضض، فانقضضتُ عليها أبلع لحمها الشهيّ، وأمصّ عظامها، وأقرقش بعضها غير مبالية باتهام شقيقي العابس لي بأنّي شرهة.

بعد يومين من أكلي الدجاجة أصيح بأعدائي من جديد بأنّي لا أريد أن أتزوَّج زوج شقيقتي. أصيح بأعدائي وهم يسألونني عن سبب خوفي من زوج شقيقتي الذي كان يسري في دمائي حين أسمع وقع قدميه، أصيح بهم بأنّي ما زلت صغيرة، وتنضمّ خالتي الآتية من النبطية لمراجعة الطبيب من أجل الحيَّة في بطنها. تلومني وهي تبكي لأنّي أنانية لا أفكّر إلاّ بنفسي، لا بصبيان شقيقتي الثلاثة. يحاولون إقناعي بالزواج، وأعود إلى «التكييع» وهذه المرة أشترط أن تأخذني أمي وخالتي إلى السينما. تشهق أمي وتستغفر اللّه: «بناتي متل طرابين الحبق بموّتولي، وبدّك ياني فوت عالسينما»؟. أؤكّد لها أنَّ الفيلم الذي سآخذها عليه ليس فيه حب وغرام وأغانٍ، إنَّه عبارة عن مقالب مضحكة، «ولو بدّك ياني أضحك. وليش فيني أضحك بعد؟ ليش فكرك فيني طلّع الضحكة»؟ لكنَّ خالتي تحثُّها كي تلبّي طلبي، حتى أوافق على الزواج. تسألني أمي وهي تريد التأكّد: «يعني مظبوط بتاخذي جوز إختك! أو عم تتملْعني عليّ يا جنيّة الحواكير»؟. أقسم لها بالنبي، وبالإمام علي، وبرحمة شقيقتي، بأنّي لن أبدّل رأيي. أهرع إلى المرآة، أسوّي شعري وكلّي سعادة لأنّي سأذهب إلى السينما، للمرة الأولى، من غير خوف أو تردُّد... حتى ولو صادف ورآني شقيقي العابس.

نمرّ بكباريه، ويخبط قلبي خوفًا من أن يعلو نظر أمي وترى الصور الخلاعيَّة هنا وهناك. لكنّني أبعد الفكرة وأنا أرى منديلها الأسود ينسدلّ فوق عينيها اللتين تعانيان ضعفًا في النظر. أسمع صوت رجل ينادي عند باب الكباريه: «يللاّ بربع، يللاّ بربع ليرة، يللاّ على رقص، يللاّ على فقش، يللاّ على هزّ بزاز، على لقّ طياز، يللاّ بربع». يسقط الصوت في أذني أمي، فإذا بها تصيح به: «روح يلعن بيّ بيّك كلب»، أشدُّها من يدها، ندخل السينما ونجلس في الصالة. أترقَّب شعاع النور والغبار الذي يضرب الشاشة، فتنبثق عنه صور الممثلين والممثلات بأصواتهم وأغانيهم. لكن ما إن تطفأ الأنوار حتى تتعالى النداءات من المشاهدين: «الطويل لازم يرجع لورا، الطويل يقعد بآخر الصف». ولم أنتبه إلى أنَّهم كانوا يقصدون خالتي التي جلست على المقعد وهو ما زال مرفوعًا، إلاّ عندما جاء أحدهم يطلب إليها أن تخفض رأسها.

أسألها أن تقف حتى أسوِّي مقعدها، لكنَّها أخذت تصيح: «بدِّك ياني أوقع»! وعندما أصرّ عليها أن تقف تصيح بي من جديد: «تقبر قبرتهم خلليهن يضوُّوا الضوّ... عشان شوف قدامي...» ولم تجلس على الكرسي كما يجب إلاّ عندما قرصتها أمي في يدها.

نشاهد قبل الفيلم «المناظر» وكانت عن الحرب التي سوف تقع. رأينا «الايطالي» يخطب في الجماهير، ورأينا الألماني ذا الشارب المقطوش، والإنكليزي وفي يده سيكارة. أيقنت أنَّها ثخينة،

ليست بيضاء لأنَّ الحرب ستقع. ثم رأينا الدبابات الألمانية تدخل بولندا، وتتسابق أمامنا وتسرع، وتقترب دبابة، فتملأ صورتها الشاشة، وإذا بخالتي تقف وتصيح من جديد: «ولك رحنا رحنا... لوين جبتينا يا بنت الكلب».

لم تجلس خالتي إلاَّ بعد أن أقرص يدها هذه المرة بين الضحكات والصفير. أشعر بالخجل، وأفكِّر بطريقة أخرج بها وحدي من السينما، لا أريد أن تشير إلينا الأيدي... ينتهي عرض هذا الفيلم القصير الذي لم يكن على الخاطر ولا على البال. ويبدأ الفيلم الذي جئت من أجله، وكان مقالب «لوريل وهاردي»، وهذان يذكِّرانني بزوج شقيقتي وشقيقي العابس.

لوريل النحيف قصير القامة، قليل الكلام هو زوج شقيقتي، وهاردي الممتلئ طويل القامة، ذو الشاربين الغليظين والذي كان يستشيط غضبًا من لوريل هو شقيقي. أضحك وأضرب وجنتي من شدَّة الضحك، وأمي تتململ في مقعدها، وتتململ إلى أن نفد صبرها، فتقف و تنادي: «دخيلكم، قوليلهم يرتاحو شي شوي ويريحونا من كبرتهم.. رايحين جايين مثل مكوك المكنة... زوغلولي عيوني يا شيخ!»، تضجّ الصالة بالضحك على أمي بينما يعتريني الخجل الشديد. تسير أمي قاصدةً الخروج وأنا أشدّ بيدها، وإذا بمشاهد يطلب منها الجلوس، تلتفت إليه خالتي وتقول له: «روح هاك راح! بتعرفنا شي، في سابق معرفة يا عمي بدك تقعد معنا»..

أنكث بوعدي أن أتزوَّج من زوج شقيقتي حتى قبل أن نصل إلى البيت. أسرع إلى الخياطة فاطمة التي أجابتني عندما أخبرتها أنَّني «كعَّيتهم بالطلبات» فتجيبني: «صحيح إنَّك ولد... ولو بتطلبي تروحي عا فيلم سينما؟ وبتطلبي دجاجة محمَّرة؟ أطلبي ساعة ذهب وأساور ذهب، ومبرومة».

أعود إلى البيت، أطلب ما لقنتني إيَّاه فاطمة الخياطة. أنام تلك الليلة بكلّ راحة وأنا أنتظر رفض زوج شقيقتي لطلباتي، وكلِّي ثقة أنَّ الليرات لن تغادر جيب بنطلونه، فهو كان يؤنِّبني ويؤنِّب أمي وكل من يترك ماء الحنفية ينساب أكثر من الخيط. يلصق الصابونة التي أصبحت كالقشرة بصابونة جديدة. يبكي عندما تسرق له القطة اللحمة التي أتى بها إلى البيت تاركةً «قطعة الدهن» ليقف مذهولاً وهو يمسك بالورقة الفارغة يقلبها غير مصدِّق. وعندما يفيق من الصدمة يأخذ في البكاء، ولا يتوقف إلاَّ عندما يتوضأ ويصلِّي. يركع مادًّا يديه إلى السقف يتضرَّع إلى اللّه، فأظنّ أنَّه يطلب إلى اللّه أن يعيد له اللحمة. ولأنِّي سمعت منذ وعيت أنَّه سيدخل الجنة حتمًا لحسن سلوكه ولإيمانه الشديد، فقد آمنت بأنَّ اللّه سيسمع تضرُّعه ودعاءه، فأسرع آتيه بقطعة الدهن، وأضعها في الصحن أمامه قرب المصلاة، لربما استجاب اللّه دعاءه، وسحر قطعة الدهن هذه إلى قطعة من اللحم.

ولم يكذِّب زوج شقيقتي الخبر. أتى لي بكل ما طلبته، وما إن وقع نظري على الذهب في يدّ أمي وزوجة شقيقي حتى أغمي علي،

أسمع «ماء زهر، ماء زهر» وأستنشق الرائحة الزكيَّة التي بدا أنَّها أطلقت لي لساني، فتوسَّلت إليهما وكنت أردِّد في غيبوبتي: «هو ختيار وأنا صغيرة ـ ولد ـ».

أردِّد ما أسمعه من الجارة، والخياطة فاطمة، وعمها ومحمد.

أهرع إلى الخياطة فاطمة في الصباح الباكر، وكان محمد ينتظرني عند باب الحديقة، وقبل أن نتحدَّث يطلب منِّي أن أماطل أهلي لمدة ستة أشهر، ريثما يتخرَّج من دورة الأمن العام ويلتحق بوظيفته. ندخل الحديقة وكأنِّي أدخل فيلمًا سينمائيًا. أنا الممثّلة ذات البشرة البيضاء والشعر الأسود والعينين الواسعتين أتحرَّك بخفّة الفراشات، وأرفرف حول محمد باكيةً، وهو يمدّ يده إلى صدره، حيث قلبه، ويشير إليه، يمسك كتفي: «ما تقبلي مهما جبروك... ستة أشهر بخطبك، ما تخافي».. ثم يتناول صورة صغيرة من جيب سترته، ويقدّمها لي، فأنتشلها منه، وأضعها في حمّالتي، وأتنهّد: «وعديني مهما حصل أنَّك ما تتزوجي» فأردِّد: «أوعدك وعد شرف... مش راح إتجوَّز».

يمدُّني لقائي بمحمد بالقوة، فما إن وصلت إلى البيت حتى قرَّرت أن أعدهم بالموافقة على الزواج بعد ستة أشهر، أكون في أثنائها قد كبرت... وأصبحت في الثالثة عشرة وستة أشهر، لكن سماعي وقع خطوات زوج شقيقتي على الدرج جعل كلّ خطوة تشدّ على رقبتي تريد خنقي. أسمع صوته يقول: «مساء الخير»، وأقرِّر الهروب إلى الجنوب حتى أستنجد بأبي من أجل إنقاذي.

هل أذهب سيراً على الأقدام؟ لا. لربما لحقوا بي؟ هل استجدي «المكاريّة» الذين كنت أسمع حوافر دوابهم وضجيج أصواتهم في الصباح الباكر، وهم يمرُّون أمام بيتنا متوجِّهين إلى الجنوب محملين على الدوّاب كلّ شيء حتى الخزائن الخشبيَّة؟ هل أتسلَّل في الصباح الباكر، وأختبئ في بوسطة ذاهبة إلى الجنوب قبل مجيء السائق؟ أو أنَّه عليَّ أن أجمع النقود، وأسرع في الفجر إلى «البرج» حيث تقف البوسطات؟

«الهروب إلى الشرك»

أتسلّل في الصباح الباكر بعد أن أسرق من جيب زوج شقيقتي بعض القروش، وأضيفها إلى قروشي التي كنت قد ادّخرتها. وما إن تصل البوسطة إلى النبطية، وأترجَّل منها، حتى يفرح قلبي، فأنا أستطيع أن أبقى هنا، ولن يطالني أهل بيروت. أقصد خالي الاسكافي، وأخبره عن سبب مجيئي. ولأنَّه لم ينتشل المسمار الذي كان بين شفتيه، ولم يضع القدوم من يده بل مضى يطرق به، فقد أدركت أنَّه لن يساعدني. أقصد نسيبة شقيقتي الثرية. تستقبلني أفضل استقبال، وتستمع إلى شكواي، وتهزّ رأسها أسفًا متأثِّرةً كلّ التأثُّر لحالي. تشرد وتفكر ولا تصل إلى نتيجة، بل تقدِّم لي الأكل الوفير وخصوصًا اللحم المشوي «والسفيحة». نجلس معًا في الجنينة، حيث شجرة البرتقال ورائحتها الشذيَّة... تصرّ عليَّ أن أبقى في

ضيافتها، إلاَّ أنِّي أقرِّر عدم إضاعة الوقت، وأتَّجه إلى حيث يعيش أبي، وأنا أعزم على مخاطبته حين أراه: «بدّي عيش معك ومع مرتك يا بيّي، وبدّيش عيش ببيروت» وإذا ذكَّرتني زوجته بهروبي أنا وأخي كامل، سأطلب السماح وأقول إنَّني كنت صغيرة.

ولم أستطع وأنا في طريقي إلى والدي إلاَّ أن أتذكّر أمي مع كل خطوة أخطوها. يذكِّرني لون الحجارة والتراب بتجوالي في الحقول مع أمي، أتذكَّر علي الأطرش، وأتمنَّى لو أنِّي ما زلت هاربة مع أخي والمجدَّرة في حرجه. ولم أنظر إلى الطريق المؤديَّة إلى بيتنا حتى لا تأتي على بالي ذكرى أمي التي كانت تنتظرنا في نهاية الطريق. فهل من المعقول أنَّها تريد تزويجي بالبعبع؟

أصل إلى بيت أبي، أخبره وأنا أغصّ بالبكاء، بأنَّ أمي وشقيقي العابس ينويان تزويجي بزوج شقيقتي، أطلب إليه التدخُّل السريع، أطلب إليه أن يعدني بأن أعيش معه. لكنَّ أبي الذي ذاع صيته لطلاقة لسانه، وطلاوة نوادره، لم يحثَّني على الزواج، أو يجبرني عليه. لم يعدني بالحماية، ولم يستفسر، لم يطمئنني، لم يصرخ بي، لم يحاول إقناعي، لم يربّت على كتفي محاولاً التخفيف عنِّي، بل لاذ بالصمت، ومضى يقطع الأكل عنِّي. أقول في نفسي إنَّ أبي ما زال غاضبًا لأنِّي هربت وأخي عائدين إلى أمنا. ولم يدعوني لأدخل البيت، فبقيت عند «البلاطة»، وهي خيمة صغيرة أقيمت قرب البيت، حيث تخبز زوجته الخبز. يأتي الليل ولا يسألانني أن أدخل

وأنام في البيت. أتكوَّم على أرض الخيمة، وأنا أرتعش خوفًا من سماعي عواء الذئاب «والواوية»، أفكِّر إذا كانت الحيوانات ستشمُّني وتمزِّق الخيمة، وتفترسني. وكان الضبع هو الحيوان الذي كنت خائفة منه، ولم يتفقَّدني أبي. ولم يعرض عليَّ الطعام في اليوم التالي، كما أنِّي لم أطلبه. لكن ما إن تنتهي زوجته من خبز الخبز على الصاج، وتكوِّمه أمامها كأنَّه «فرش النوم» وتدخله البيت، حتى أهجم على فتات الخبز وعلى الرغيف المرمي الذي احترق معظمه. وقبل أن أطلب المزيد من الطعام أسير في البرية التي كانت تحيط بالبيت لعلَّني أعثر على ما كانت أمي تبحث عنه: «قرص العنة»، الهندباء، وحتى أغصان البندورة، لربما شبَّت غرسة حبّ الحمص أو الفول مصادفةً. ولم أكن أرى إلاَّ الأشواك، ولم أكن أشعر إلاَّ بالشمس اللاذعة، وهبوب الريح أحيانًا. أصحو يومًا والعادة الشهريَّة قد أتتني من جديد. وكنت أرى أمي أحيانًا تستعمل القماش البالي وخصوصًا سروال أبي الذي كان مرميًا قرب الأبقار لتستعمله خرقًا لها. و لم أجد سوى قميصي التحتي، فمزَّقته قطعًا واستعملته، ثم خبَّأت القطع الملوَّثة في البرية، بين الحجارة وتحتها ،خوفًا من أن ينقدها الدجاج، ويصاب بالمرض. ولم يكن قد أخبرني أحد بهذا المرض، بل أيقنت هذا لأنَّ أمي كانت تتطهَّر كلَّما أتتها العادة الشهريَّة. وتأخذ دجاجة في تعقبي كلَّما ذهبت إلى «الخربة» لأتريَّض، تنتظر معي، ثم تلحق بي، فأطمئنّ لوجودها إلى قربي وكأنَّها تفهم حالي، وأقسم لها بأنِّي لن آكل الدجاج بعد الآن.

يوشك الجوع أن يحدّ من قوتي لكنّه لا يشلّ عزيمتي على عدم الزواج. أتحامل وأصبر وأتذكّر ما تردِّده أمي: «واللّه بدّي أصبر حتى يعرف الصبر أنِّي صابرة...» أتذكّر كلامها كلّما شعرتُ بالجوع وبالوهن وأنا أسير بين «الحاكورة»، وأنام في الخيمة، وأجلس على «البلاطة»، كلّما رضيت بواقعي هذا، لأنّي لست في بيروت، كأنَّ بيروت أصبحت عبارة عن زوج شقيقتي المتوفاة.

ولم أعرف مدى تعبي وجوعي إلاّ حين تراني جارة لأبي أسير على غير هدى في البرية، وتستغرب وجودي وحيدة في «طقّة الشمس». أنهار وآخذ في البكاء وأردِّد: «أنا جوعانة... أنا جوعانة». عندئذٍ تمسكني المرأة من يدي، تقودني إلى بيتها، وأنا أتلو عليها قصة تزويجي، وهربي من بيروت، ولا تتوقَّف الجارة عن شتم أبي وقلبه القاسي إلاّ حين تجلسني وتقدِّم لي صحنًا من «اللوبياء بالزيت» ما زلت أسترجع طعمه اللذيذ، الشهيّ، حتى هذه اللحظة.

يعيدني أبي إلى بيروت بعد مكوثي لديه شهرين، فأكتشف لحظة عودتي أنّه قصد تجويعي حتى أرجع إلى بيروت في أقرب فرصة، لأنّه وُعِدَ بعشر ليرات ذهبيَّة إذا تمّ زواجي بزوج شقيقتي. بعودتي إلى بيروت أفقد الأمل في أن يعدل أهلي عن تزويجي، فأضع خطّة لم أفصح عنها إلى أحد حتى إلى فاطمة الخياطة، وهي أن أجهز على زوج شقيقتي وشقيقي العابس بالتدريج. أخذت أضيف الملح إلى قنينة زيت السمك التي دأب الاثنان على تناول جرعة منها كل يوم.

الذي نبّهني أنّ الملح سم قاتل هو مصير «البزاقة» التي نجدها زاحفة ما بين المطبخ والباب الخارجي، وأحيانًا في الحمام، فإذا رُشَّ عليها الملح تقوقعت وماتت. هذا عدا أنّ الملح هو المالح أي السمّ، عكس السكّر الطيِّب المذاق. كلّما زدت كمية الملح، ورأيتهما يغمضان أعينهما، ويشدّان على شفاههما وهما يأخذان جرعة من القنينة، أيقنت أنّ الفرج آتٍ في طريقه إليّ.

في هذه الأثناء أخذت الفساتين الجميلة الموضوعة على «المغسلة» تدعوني إلى أن أداعب ألوانها وموضتها، إلى أن أرتديها، وأنا أتمنّع وأقاوم. ثم عزمت على سرقتها وتخبئتها لدى فاطمة الخياطة حتى إذا ما تزوّجت محمد أصبحت لي. وبقيت أقاوم رغبتي إلى أن سمعت أغنية عبر المذياع كنت أحبُّها، وركضت أختار فستانًا لأرتديه، وكان من الحرير المتهدّل، فدرت حول نفسي، ورأيت فستاني يدور معي وكأنّه غرسة أو دوار الشمس، ثم رأيت نفسي في المرآة، وتذكّرت زواجي المحتمل، عندئذ وجدتني أدخل مشهداً سينمائيًّا. أمسك بحديد النافذة الأسود المزخرف، وأهزّه كأنّي أحاول فتح قضبان السجن، وأنا أتلوّى وأنادي في اللغة الفصحى أو المصرية: «أنقذوني يا ناس، أنقذوني يا ناس».

لكنّ الملح لم يجعل الرجلين ينكمشان ويفوران في الأرض مثل «البزّاقة». ونهضت ذات صباح ورأيت فستان الزفاف الأبيض، ذا الورود الاصطناعية، وإكليل الرأس على الكرسي. رحت أولولُ،

وكضتُ إلى الجارة، أسألها أن تخبِّئني في الخزانة، تحت السرير، أقنعها بأن تخبِّئني على التتخيتة لتقدِّم لي أكلي وشربي سرًّا. وبكت الجارة على بكائي لأنَّها لا تستطيع حمايتي. بل انبرت تردِّد: «يا دِّلي عليك... إنتِ مثل الحشرة اللي عمّ تهرب من العنكبوت، ومش دريانة أنَّها صارت بنصف دين قلبو».

ـ «مش عايزاه أعمل معروف ما حبّوش»

ترفرف جملة «رجاء» في الوردة البيضاء، فأقلِّدها: «بديش ياه.. اعملوا معروف.. أنا ما بحبّوش».

وبدلاً من أن يجيبني شقيقي العابس كوالد رجاء:

ـ «أنا وعدت خلاص..»

ينهال عليَّ ضربًا.

لا أعرف كم من يد امتدَّت لتلبِّسني الفستان الأبيض، لكن أعرف كيف هربت من الأيدي الكثيرة، إلى «بابور الكاز»، أمسح بيدي الشحار الأسود عن فوهته، وأمرِّغه على وجهي. أهرع إلى طناجر الطبخ لأزيد من الشحار على رقبتي، كما رأيت الأم التي فقدت ولدها تفعل ذلك في النبطية، وكما رأيت العروس الشابة تفعل ذلك عندما مات عريسها بعد أسابيع من زواجهما. ثم أشدّ بفستاني أشرطه، وأخلعه، أهرع إلى أكياس الجنفيص التي كنَّا نمسح بها الأرض. ألفّ نفسي بكيس وأنا أصرخ وأبكي، أهجم على نافذة المطبخ أريد أن أرمي نفسي منها، لكنَّهم يبعدونني عنها. أتدحرج

على الأرض، وأبكي، وأولول، وأضرب نفسي، ولما لم يعد بوسعي سوى المزيد من الصراخ والبكاء إذا بشقيقي العابس وأمي يدفعانني إلى الغرفة حيث كان زوج شقيقتي ينتظر. أهرب من الغرفة إلى فراش أمي، ألتصق بها وأبكي، وأفكّر لو أنّي أستطيع أن آتي بكميّة من الصمغ فألصق نفسي بها، تمامًا كما يفعل الصبيان في النبطية على القضبان لتلتصق بها العصافير.

وهكذا يتكرّر المشهد ليلتين متتاليتين، إلى أن حاول زوج شقيقتي إضرام النار بكلّ الفساتين الذي جاء بها، متحسّرًا على ثمنها، فتسرع زوجة شقيقي العابس تطفئها، ويعده الجميع بتأديبي. ألوم نفسي لأنّي ارتديت هذه الفساتين في النهار ورقصت بها... لا بدّ أنّ فرحتي بها فسّرت للعائلة بموافقتي على الزواج.

وفي الليلة الثالثة أدخلوني إلى الغرفة بعد أن انصعت إلى أوامرهم، لكن ما إن رأيت زوج شقيقتي حتى صرخت ودفشته مولولةً: «جيبولي ماء الزهر... جيبولي ماء الزهر»..

لكنّ شقيقي الذي كان ينتظرني عند الباب قال لي: « فوتي وإلاّ قالت الناس إنو قريب الخياطة فاطمة لعب بعقلك... عاملك شي».. ولم أفهم قصدَه، لكنّ خوفي العظيم من أنّه علم بأحاديثي مع محمد، واحتفاظي بصورته، وذهابي معه إلى السينما، وطلبه لي أن أنتظر ستة أشهر، وحثّه أن أرفض الزواج مهما كلّف الأمر... كل ذلك جعلني أعود إلى الغرفة.

عندما دفشوني من جديد إلى داخلها... وعندما رأيت زوج شقيقتي جالسًا ينتظرني على الفراش الذي مُدَّ في وسط غرفة نومه... ولولتُ، وأنا أحاول فتح الباب من جديد، لكنَّه كان موصداً من الخارج - «دخيلكم ماء زهر ... غمي عقلبي... غمي عقلبي»، ولم يجبني أحد، فيبقى الباب موصداً في وجهي. يقترب منِّي زوج شقيقتي، فأكمش فستاني، وأغمض عيني، وأعضّ زندي، أشعر بألم فظيع عند حلقي وبين فخذي معًا.

أغرز أسناني بلحمي حتى تصل عضّتي إلى العظم، ثم أعضّ يدي. وما إن أرى الدماء عند فخذي حتى أدفش زوج شقيقتي عنِّي، وأسرع إلى الباب أخبِّط عليه... ولدهشتي كان الباب مفتوحًا... أركض إلى فراش أمي التي كانت بدورها تبكي، أندسّ إلى جانبها، أتعلَّق بفستانها وأبكي وأنوح. ولا أتحاشى قميص نومها كي لا يتلوَّث بدمائي، ولم أقل لها: «بدّي بوسك قبل ما موت»، كما قلت لها عندما رأيت الدم ينفر من زندي، لأنِّي عدت من غرفة زوج شقيقتي فعلاً ميتة.

«وهكذا تزوّجت من إجا ليكِ إجا ليكِ»

وهكذا تزوجت زوج شقيقتي الذي انتقد أمي عندما رآها ترضعني حين تخطّيت عامي الأول. كنت أظنّ أنّ اسمه «إجا ليك» إذ كلّما ركضت، أو قفزت، أو ضحكت ضحكة من صميم قلبي، سمعت الكبار يهدِّدونني ويحذِّرونني.. «إجا ليك».

تزوَّجت بالذي ينحني على الأرض، يمسح بأصبعه البلاط ليتأكَّد إذا قمنا بكنس البلاط ومسحه. الذي يرفع الصابونة سواء أعن «المجلى» حيث كنّا نغسل وجوهنا والصحون أم من زاوية في الحمام ليتأكَّد من أنَّها بلا رغوة. الذي يناديني ليعلِّمني كيف أجد «البق» بين طيّات الفراش، يفقسها بإبهاميه مشيراً إلي أن أفعل مثله، فأعانده وأهرب وأنا أسدّ أنفي.

يبحث عن الصراصير أينما كانت في الأدراج والخزائن، في المطبخ وتحت المجلى، يعثر على بيوضها البنية اللون التي تشبه حبّة الفاصوليا. أفكّر لو أسرقها منه وأضعها في علبة حتى أرى إذا كان الصرصور يخرج منها بشاربيه أو بجسمه. أؤمن أنَّ هذه الصراصير كانت تعلم أنَّ زوجي هو عدوُّها الأول، فتختبئ منه، وتصمّ آذانها عن أية حركة، لتعرف متى ستظهر، حتى إنَّها كانت تطير وقت الحاجة، تختبئ منه في كل مكان حتى في إبريق الفخار. تهتف أمي عندما انكسر الإبريق: «سبحان اللَّه!» لأنَّ الصراصير لم تغرق في الماء، بل فرّت تختبئ. تزوَّجت بالذي يراقبني وأنا أغسل الغسيل طالبًا إليّ أن أحفّ البقع المستعصية عن ملابس الصبيان الثلاثة. يمرّ بأصبعه على القدور ليتأكَّد من أنَّ الزيت أو السمنة لم تترك أثارها عليها بعد غسلها، ولا يكتفي بذلك بل يقرِّب وجهه منها يشمّها. كل هذا كان يهون أمام معاينته لغسل قدميّ قبل الخلود إلى النوم. يرفع الغطاء عن قدميّ وأنا في فراش أمي الذي ما زلت أشاركها به. يبصق إذا لم تكونا نظيفتين، وأسمع كلمة «تفو تفو» بعد البصقة، ومع ذلك لا أتحرَّك، ولا أحاول مسح بصقته، بل أتصنَّع النوم العميق. وإذا ناداني في الليل متذرِّعًا بطلب ما، أصيح في داخلي مستبعدةً فكرة إقترابه منِّي، فألتفّ حول نفسي، وكأنِّي دودة خائفة، محاولة أن أفرّ حتى من ذكرى ما حدث في ليلة الدخلة، وأقنع نفسي أنَّ الكابوس قد مرّ فعلاً ولن يعود.

لم يجعلني زواجي معصومةً عن العمل في البيت. أمضي غصبًا عنِّي أحاول أن أنظِّف، وأمسح غرفة نوم زوجي، مستخدمةً قدمًا واحدة على الممسحة، أجرّها كما اتفق. يسألني زوجي إذا قمتُ بمسح البلاط تحت الكرسي، وتحت الكنبة، وفي الزوايا. يزيح الأثاث على حدة، ويقف يراقبني وأنا أمسح تحته. أعيد الحرام والبطانية على الفراش من غير أن أرتِّب الشراشف والأغطية. إذا نسل فستاني من العلاّقة أتركه في قعر الخزانة. إذا أردت أن أقشِّر البطاطا وجدتني أقشِّر معها نصف لبّها. وإذا طبخت أحرقتُ البصل والطبخة. سرعان ما تأكّد زوجي أنِّي خلقت من طينة تختلف تمام الاختلاف عن طينة شقيقتي المتوفاة. فأنا لا أحمل أيًا من صفاتها: الصبر، والنظافة، والكدّ، والرزانة، ومهارة ربّة البيت القديرة. ولم يكن افتقاري إلى هذه الصفات سببه صغر سنِّي، بل لأنَّ طينتي تعود إلى طينة أبي، كما أسمعهم يقولون. فقد ورثت طباعه البهلوانيَّة، أو «خفّة العقل»، كما كان زوجي يقول عنه وعنِّي. ولم يكن قد أكتشف زوجي أنِّي في غاية العناد، وتلك صفة أضافها إلى صفاتي. عندما أتت له قريبة بسطل من اللبن الرائب من الجنوب، رآني أصبّ لي قدحًا منه فما كان منه إلاّ أن نهرني ونعتني بالشراهة. ولم تكن شراهتي هي التي جعلتني أسرع إلى سطل اللبن، بل لأنَّ اللبن ذكّرني بالجنوب... ببيتنا هناك، حيث البقرات... ذكّرني بشجرة التين، ورائحة النهر، وصديقتي «تفاحة» التي كنت أشرب اللبن من كوب تقدِّمه لي أمها.

لم يكتفِ زوجي بأن نهرني أمام الجميع، بل أمسك سطل اللبن، ووقف على الكرسي، ثم وضعه على ظهر الخزانة، متوعّداً بأصبعه: «هيدا اللبن للطبخ، ممنوع منعًا باتًا حدا يدقره». أبلع إهانته لي، متصنّعة اللامبالاة والانهماك بشيء ما، إلى أن يغادر الغرفة، عندئذٍ أعتلي الكرسي كما فعل، وآتي بالسطل أشرب منه، ثم أدلقه على رأسي ووجهي وملابسي. ألحس يدي كما تفعل القطط، وأخرج من الغرفة فيتجمّع حولي أهل البيت وهم يضحكون. ويتضاعف ضحكي حتى كدت أبوّل تحتي كلّما رأيت وجه زوجي المصدوم، وكلّما تساقط اللبن منّي على الأرض.

ولم يفطن أنّي أقتصّ منه، بل أخذ يلوم نفسه لأنّه لم يثبّت موضع السطل على ظهر الخزانة. ولم أكن أحبّ لهجته، فهي لم تكن جنوبيّة، رغم أنّه ولد في الجنوب. طلّق والده أمّه وعمره ثلاث سنوات، ولم يطق العيش مع زوجة والده الظالمة التي كانت تشدّه من أذنيه وتتفنّن في تعذيبه. وكان يهرب سيراً على الأقدام من النبطية إلى قعقعية الجسر حيث تعيش أمه التي تزوّجت برجلٍ آخر، ثم يفقد والده وتنقطع أخبار والدته عنه. يحتضن أحد الأسياد هذا الولد الذي أدرك السادسة من عمره، ويرعاه مكتفيًا بتعليمه القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، وأداء الواجبات الدينيّة. وأخذ الولد يتمثّل بالسيد، فيقلّد حديثه ويتّبع نهجه، ويعتني له بفرسه. وما إن أتمّ الثانية عشرة من عمره حتى قرّر أن ينزل إلى بيروت، ويعمل لدى أسرة بيروتيّة تعمل في التجارة، فكان يشتري ويتبضّع ما تحتاجه ربة

البيت، ويأخذ وجبة الغداء في «صطيلة» إلى ربّ العائلة في البرج الذي سمح له أن يدور على المقاهي، ويبيع المحارم «المناديل» بعد انتهاء دوامه. وأخذ يخطِّط لمستقبله مفكِّرًا بالهجرة، إذ فَتَحت معظم بلاد الاغتراب باب الهجرة قبل سنوات.

وأخذ يجمع القرش إلى جانب القرش حتى اشترى «المناولون» ثمن تذكرة الإبحار إلى أستراليا على ظهر سفينة كبيرة. عاد إلى الجنوب قبل موعد سفره بيومين ليودِّع أسرة السيِّد، وليمتطي الفرس للمرة الأخيرة إلى نهر الليطاني حيث اجتمع هو وأصحابه حول «قرقور» يشوونه على الفحم. تزلّ قدم الحصان ويوقعه أرضًا، فيغيب عن الوعي لمدة يومين إثر ارتطام رأسه بصخرة. وما إن ينهض في اليوم الثالث، ويصيح «أوستراليا»، حتى كانت السفينة قد أبحرت.



«وكر الحيايا»

يزداد عدد سكان بيتنا يومًا بعد آخر، حتى أصبح ممتلئًا كوكر «الحيايا»، تختلط الرؤوس بالأذيال، فتأخذ كلّ حيّة دربًا لها وتختفي. يحاول كلّ فرد في هذا البيت أن يبحث عن قوته، يحارب ليأتي دوره إلى دخول المرحاض الوحيد، يتمنّى أن يجد الكاز في البابور كي يسخِّن الماء، ويستحمّ، ويجد لنفسه منشفة. وكان شقيقي العابس قد أتى بابنتيْ شقيقتي المتوفاة لتعيشا معنا، إذ تزوّج والدهما إمرأة راحت تعذِّبهما أشدّ العذاب. بقي شقيقان مع والدهما بينما شذّ عن العائلة الأخ ذو الرجل الخشبيَّة، وأخذ يعاشر المشرَّدين بعد أن تعود على تعاطي الكوكايين. صعد مرة إلى الترام الذي كان يسوقه شقيقي العابس طالبًا منه القروش، فطرده خاله: «يللا انزل ولاه»، كما كان يطرد الصبيان والشباب المشاغبين.

وأجهشت أمي في البكاء عندما علمت بما حصل: «ولو! . القرش ما بيشتري شرش؟».

تتبدَّل حياتي بمجيء ابنتي شقيقتي المتوفاة، خصوصاً الكبرى التي كانت تصغرني بسنوات قليلة، كأنَّ اللّه أرسل لي ملاكًا يحيطني بعنايته، يحبُّني وأحبُّه لاسيَّما أنَّ هذا الملاك كان يودّ أن يشتغل، ويطبخ، ويكوي، ويغسل، ويضحك أيضًا معي. أشعر بالطمأنينة وبالإلفة لأنَّنا كنَّا متشابهتين بطباعنا وبضحكاتنا، وكأنَّنا لا نمتّ إلى عائلتنا بصلة. ولم أصدِّق حسن حظي رغم الظروف التي رافقت مجيئهما. وهكذا أصبح عددنا في البيت يفوق عشرين نفراً: عائلة شقيقي العابس، عائلة زوجي وصبيانه الثلاثة، أمي، أخي كامل، قريبة لزوجي وابنها، عدا الزائرين والزائرات، أبي مصطحبًا شقيقتي كاميليا من زوجته الثانية، وخالتي ذات الحيَّة في البطن، والتي كانت تنصب خيمة في الدار كلّ ليلة، وتنام فيها هي وابنتها التي كانت من عمري. تأتي خالتي إلى بيروت لمراجعة الطبيب، لأنَّ فرخ الحيَّة أصبح كبيراً، ولا يتركها تنعم بشيء. تلوم نفسها كيف بلعته وهي تشرب من الإبريق: «وصار يكبر ويكبر.. عمّ يلفّ ببطني بدّو يطلع». وكانت قد جربّت جميع الوصفات للتخلُّص منه، حين كانت في الجنوب، قبل أن تعزم على المجيء إلى بيروت واستشارة الطبيب: «قليت بيض بالسمنة الحمويَّة... بعْت كيس برغل مشان شوية سمنة... وفتحت تمّي حتى تشمّ الحيّة البيض والسمنة المقلية وتطلع. ومسكت حجر... ومقصوفة الرقبة تحرَّكت، وتحرَّكت،

وصلت لزلعومي وغيرت فكرها... معلوم بدها تغيِّر فكرها مازالها عم تشرب وتأكل في بطني على باب المستريح».

وكان زوجي قد أتى بصندوق كبير للمؤونة، يشبه الكعبة المكرَّمة الذي كان يرسمها الأهالي على الجدران ترحيبًا بعودة الحجّاج، يوصده بقفل كبير ويفتحه مرتين في اليوم. يفتحه في الصباح قبل أن يذهب إلى عمله ليأتي منه ما يكفينا من سكّر وصابون وزيت وأرز وسمنة، وفي المساء يقف أمام الصندوق، يبسمل قبل أن يدير مفتاح القفل، ثم ينادي كلاً منّا باسمه، موزِّعًا علينا التمر، أو قمر الدين، أو البسكوت وراحة الحلقوم، ونادراً ما يوزّع «البقلاوة». ينادينا أحيانًا إلى غرفته ليوزِّع علينا الفاكهة الطازجة، خفيةً عن شقيقي العابس، وعن زوجته. ولم يكن يخصّني بشيء مع أنَّه كان المسؤول عن كسوتي، ثم اكتشف في أثناء زيارتنا إلى الشام أنَّ تلبيته لطلباتي كان مرتبطًا بمراعاة أصحاب المحلات لأسعار ما يشتريه كونه تاجراً مثلهم.

كان قد رضي لدهشتي أن نذهب إلى الشام، مصطحبًا قريباته وزوج إحداهن، لزيارة مزار «ستنا زينب»، مع أنَّه لم يكن يتمنَّى إلاَّ تأدية فريضة الحجّ. ولم أكن الوحيدة التي استغربت قبوله هذا، بل كل أفراد البيت، إذ لم يكن يحبّ التنزُّه على الروشة أو في حرش بيروت، حيث تذهب العائلات وتجلس تحت أشجار الصنوبر، ولم يكن يركب الترام، أو البوسطة، أو السيارة. باختصار، كان يحبّ البيت ومخزنه والمسجد فقط.

هلّلنا فرحًا ونحن في «فاكونة» المقصورة المخصَّصة للنساء، خصوصًا أنَّ إحدى قريبات زوجي كانت «معشرانيَّة»، وصاحبة مزاج، بينما الأخريات كنَّ خجولات وفي منتهى الرزانة.

أغنِّي وأقصّ عليهن فيلم «الوردة البيضاء»، وأشعر أنِّي بطلة أركب القطار الذي كلَّما سابق الأشجار والهواء فرح قلبي، فأمدّ منه رأسي، ويدي. يدخل القطار نفقًا في الصخر، وتحلّ العتمة، فأصيح بالنساء أخيفهن، وهنَّ يضحكن ويتمتمن بأنِّي: «ولد... بعدها ولد...». نصل إلى مزار «ستنا زينب»، نبعد الجموع بأيادينا، أسرع أريد التضرُّع لستنا زينب من أجل أن تشفع لأمي، ولا تريها مكروهًا بعد فقدانها لشقيقتيّ...

لكن بريق المجوهرات والحِلى المهداة إلى ستنا زينب في القفص الذهبيّ، حيث قبرها، يخطف أنفاسي وعينيّ. أتساءل إذا كانت ستنهض يومًا ما، وتتزيَّن بهذه المجوهرات. ثم أغمض عينيّ، وأتضرَّع لستنا زينب، ثم أجدني أبكي وأنا أخبِّر الست زينب ما فعلته بي أمي وأبي وشقيقي العابس، وكيف زوَّجوني بزوج شقيقتي. أجفِّف دموعي وأتناول من شنطة يدي «الليرة» التي أعطتني إيَّاها جارتنا لأفي نذرها التي كانت قد نذرته. لكن كلما أقرِّب يدي من القفص لأرميها، أتراجع، وأغمض عينيّ من جديد، وأتضرَّع: «معليش يا ستنا زينب عندك مجوهرات بحر، خلليها هالليرة إلي. ليرة مش راح تقدِّم ولا تؤخِّر... إنتِ الوحيدة اللي راح تفهمني... اعتبري إنِّي حطَّيت هالليرة بالقفص...».

نغادر المزار متَّجهين إلى متنزّه قريب لتناول طعام الغداء، فندخل في أسواق الحميديَّة مصادفةً، وهناك أفقد عقلي تمامًا. أريد السوار الذي على شكل حيّة ذات الرأس المطعّم بالماس. أريد هذا العقد الذهبي، أتوسَّل إلى زوجي حتى يشتري لي أي شيء، لكنَّه يعجِّل في المسير، وكأنَّه لا يسمعني. أفكِّر بأن أطلب المصحف الذهبي أو آية الكرسي، أو ماشاء الله، والتي كان كل منها يتدلَّى من سلسال ذهبي. لربما بدَّل رأيه، ورضي أن يشتري لي شيئًا له علاقة بالدين والتديُّن، خصوصًا أنِّي أخذت أضيف صفة «الكريم» على المصحف الذهبي. أركض خلفه، وأعده بأنِّي سأصلِّي كل الفروض، لكنَّه لا يسمعني، بل يسرع الخطى إلى أن أصبح سوق الذهب خلفنا. وقبل أن أصاب بخيبة أمل ندخل سوقًا أُخرى، كل ما فيه يلمع ويتوهَّج: المناديل المطرَّزة، القماش الحريري الأسود المطبوع بدوائر الذهب، القباقيب الملوَّنة، روبات النوم من الحرير الأطلس، الملوَّنة بالزهري والأزرق وبلون العاج، أصيح: «يا اللّه... يا اللّه شو حلوين!»، وزوجي ينظر إلى الأرض كعادته. عدت أتوسَّل إليه أن يشتري لي ما يودّ، حتى إنِّي اكتفيت أن يشتري لي «بوظة أسكيمو» إنَّما من غير فائدة. أسرع وأنا أرى نهاية السوق: «اللّه يخلّيك، اللّه يخلّيك»، أردِّدها وقد فقدت معناها لتصبح حركة بين الزلعوم واللسان، ولم أتوقَّف عن ترديدها حتى حين يصيح بي: «تحريكة تمسكك مسك»، بل أزيد من رجائي إلى أن أسمع ولدًا يركض خلفنا، وهو يستعطي مثلي تمامًا بلهجة سورية. آخذ بالبكاء عندما

يصبح السوق خلفنا، تحاول النساء أن يخفِّفن عنِّي فأزيد بكائي لوعةً. نصل إلى المتنزّه المشهور قرب المزار، حيث الساقية والعشب والأشجار، حيث افترش المتنزّهون الأرض يشوون اللحم والكفتا. يزغرد قلبي لتلك الرائحة ولكن للحظات قليلة إذ أتذكَّر أنَّ زوجي كان قد سلق البيض والبطاطا في البيت، وأتى بها في الكيس الذي يحمله.

نقف تحت الأشجار قبالة الساقية، أريد الجلوس كما يجلس الأبطال في الأفلام رغم أنَّ زوجي وزوج قريبته لا يحتسيان البيرة، ولا يطلقان النكات، ولا يغنيان بل يسبِّحان بالمسبحة.

وكنت قد اعتدت على سماع جملة: «اللَّهم صلِّي على محمد وآل محمد»، كلما اشتمَّ زوجي رائحة طيِّبة... ينهرني إذا أعربت عن فرحي برائحة الصابون المطيَّب بالعطر، أو إذا هتفت: «يا اللَّه هالريحة شو حلوة»، طالبًا منِّي ترديد جملته نفسها. أهتف وأنا أرى الساقية والشجيرات: «يا اللَّه شو الدنيا حلوة... مثل الليطاني». يردعني قائلاً: «قولي: «إنَّ اللَّه على كلّ شيء قدير... هو خالق السموات والأرض»»، ثم ينهمك مع زوج قريبته «ليستخيرا خيرة» حتى يقرِّرا إذا كان بإمكاننا نحن النساء الجلوس معهما أمام الساقية حيث المتنزِّهون، أو أنَّه ينبغي أن نجلس وحيدات بعيداً عن الساقية حيث لا ترانا عين، أو تسمعنا أذن. وما إن بقيت حبة في منتصف خيط المسبحة حتى اعترى الحنق حنجرتي. فقد كانت

نتيجة «استخارة الخيرة» لصالح الرجلين اللذين جلسا قرب الساقية، بينما سرتُ أنا وقريبات زوجي إلى آخر المتنزّه، وفي يد إحداهنّ حصّتنا من البطاطا والبيض المسلوق، خطفت رائحتها الكريهة شهيّتي.

أفكّر بسرعة في ما يجب عليّ أن أفعله: هل أهرب خصوصًا أنّ الليرة التي لم أرمها إلى «ستنا زينب» لاتزال في جيبي؟ وإذا بي أرتعدّ خوفًا من شقيقي العابس. وأسرع إلى حيث زوجي أسأل زوج قريبته أن يستخير لي خيرة لأمر ما، فيجيبني: «حالاً عليها». ويغمض عينيه ويستخير الخيرة، ويفتح عينيه مبشِّرًا وهو يبتسم: «طلعت مليحة». أجدني أدفع به إلى الساقية، ويبدو أنّ تصرُّفي المفاجئ هذا أربك الرجل، فوقع في الساقية، ثم فشخ إلى اليابسة وبنطلونه يقطِّر ماء، فيعلّق زوجي: «مقصوفة العمر»، ويتمتم الرجل: «حدا بياخذ أولاد معه»؟، بينما أخذت قريبات زوجي يضحكن خلف مناديلهن السوداء ولاسيَّما زوجة الرجل. لكنِّي أخذت أدافع عن نفسي: «ضمرت أنِّي أدفشك، والله استجاب دعائي... يعني بدّك ياني زعّل الله؟».

أسرع أغطس يدي في ماء الساقية، كما تخيَّلت ما إن رأيتها للوهلة الأولى، وأغنِّي في قلبي وكأنِّي ممثلة، وأقطف أقحوانة صغيرة أمسكها بيدي، وأنثر ورقة خلف الأخرى: «يحبني لأ ما بيحبنيش»..

نركب القطار من جديد عائدين إلى بيروت. أجلس إلى جانب القريبة الخفيفة الدم، نضحك معًا على ما فعلته بزوجها، وهي تستمع إليَّ بكلّ جوارحها حين أحدِّثها عن فيلم «الوردة البيضاء» مرّةً أخرى. وإذا بضابط في زيِّه العسكري الجميل، يمرّ قربي بوجهه الجذّاب وطوله الممشوق، ويقف يراقبني وأنا أغنِّي. أتصنَّع عدم مشاهدته وهو يقترب من المرأة ليسألها عنِّي: «بنتك؟» فتجيبه: «أي نعم بنتي وقرّة عيني». أبتسم له مشجِّعة، فيصارح المرأة: «يا اللَّه شو هي حلوة بنتك! وأنا طالب القرب، وناوي على الخير». يطلب إليها عنوان البيت حتى يأتي بأهله ليتقدَّم يطلب يدي.

عندئذٍ تتردَّد المرأة، لكنِّي أسرع، وأعطيه اسمي وعنواننا، وأعطيه اسم زوجي على أنَّه اسم أبي. يودعنا الضابط وهويضع يده على قلبه، ويبتسم لي. أتمنّى لو أنَّ زوجي هو فعلاً أبي، أنَّ هذا الضابط سيأتي في الواقع، ويتقدَّم طالبًا يدي منه. أفكِّر فجأةً بمحمد، قريب الخياطة فاطمة وماذا حصل له؟

ولم يكذِّب الضابط الخبر إذ دقّ بابنا مساء اليوم التالي ومعه والده. شدّ الجرس المعلَّق عند زاوية جدار المدخل، وسرعان ما التمّ حول العريس الصغار والكبار، النساء والرجال. يتأهَّل زوجي به، كذلك شقيقي العابس، وكلّ ظنّهما أنّ الضابط جاء يطلب يد ابنة شقيقتي المتوفاة. لكنَّ الضابط ينطق باسمي، وكنت أقف أنا وابنتا شقيقتيّ نسترق السمع عند باب المطبخ. يصحِّح زوجي قائلاً

إنَّ كـاملة هـي زوجـتـه، وأنَّ الضـابط لا بدّ أنَّه يـريد القـرب من ابـنة شـقيـقتي. ويسأله الضابط من التي كـانت في القطار الآتي من الشـام البارحة؟ عندئذٍ ينهره زوجي: «اللّه يخرب بيت قلبك، هذه مرتي».
أسـرع عند سماعي ما يجري، وأقفل باب الغرفة عليّ، أحتمي بأمي وهي تردعني خائفةً من شقيقي العابس، وبدلاً من أن أنتظر التأنيب، وربما الضـرب، أنفـجر باكـية، فـأنا أردت الانتـقـام مـن زوجي لأنَّه لـم يشتر لي شيئًا من أسواق الشام... ولا حتى دبوس شعر، ولا مسكة شامية، ولا حتى بوظة أسكيمو.

أنوح وأبكي لأنّي لم أصبح خطيبة هذا الضابط الجميل. أنوح، وأبكي، وأمسك بدرابزين النافذة، وأصيح، فانتبه أنَّ جارنا الشـاب يراقبني، فأزيد من بكائي.



فاطمة

تسودّ الدنيا فجأة في نظري، وأشعر بالغثيان وأنا أقفز على الحبل مع بنات الحي. أفرك عينيّ والدنيا تزداد سواداً. أتهاوى على الأرض، وأنادي كعادتي كلّما دبّ بي الخوف: «دخيلكم ماء زهر ماء زهر.. راح يغمى على قلبي...» وكانت جارتنا على السطح تنشر غسيلها بالقرب منّا، فحدست أنّي حامل، فإذا بها ترفعني عن الأرض، وتأخذ بيدي، وتنزل الدرجات، وأنا أسمعها تلعن وتشتم عائلتي، رغم أنّها كانت من سلالة الرسول (ص): «يلعن ذقن اللي جوّزوك... طفلة يا حرام».

منذ تلك الحادثة وأنا آخذ حذري، أكتفي بالتفرُّج على البنات اللواتي كنَّ من عمري يقفزنَ على الحبل، ولم يكن بطني قد كبر بعد، لذلك لم أصدِّق أنّه سوف يكبر، فأنا ما زلت طفلة، كما قالت، ولا بدَّ أنَّ اللّه يعلم بهذا.

لكنَّ اللَّه لم يأتِ لإسعافي، فيأخذ بطني في التكوُّر يومًا بعد آخر. وأسمع المارة، وكل من يراني، يعلّقون: «يي ببّو بدّها تجيب ببّو»، خصوصًا أنَّني كنت قصيرة القامة. حَمْلي جعلني أغرق في النوم من غير خوف. أمدّ يدي إلى الطعام طوال الوقت، أخرج في الساعة التي أريدها شرط ألا تسقط العتمة وأنا في الخارج. ولم أكن أترك فيلمًا سينمائيًّا من غير أن أشاهده مع ابنة شقيقتي، أو مع قريبة شقيقي العابس، المرأة الثرية التي التجأت إليها في النبطية عند هروبي من بيروت ومن زواجي القسريّ. كلَّما زارتنا هذه القريبة التي كانت تعيش بين لبنان والمهجر توطدت صداقتي بها رغم فارق السن بيننا. كانت تطابق بطلات الأفلام التي أراها، بموضة فساتينها، بالسيكارة التي لم تكن تفارق يدها، بالأحذية ذات النعل الأبيض (الكريب) بشنطة يدها التي كانت من جلد التمساح، تفتحها، فأسمع صوت انفتاحها، وأشمّ رائحة كولونيا، وأرى الليرات الكثيرة. إذا دخلت القريبة الثرية بيتنا منحتني القوة أمام شقيقي العابس.

وكلَّما خرجت من البيت برفقتها فعلت ذلك من غير خوف أو ارتباك. تأخذني لأرى فيلم «يحيا الحب»، وعندما أكتشف أنَّ محمد عبد الوهاب لا يمثِّل مع سميرة الخلوصي، أفكِّر بالأسباب. هل لأنَّه لم يتزوج بها في فيلم «الوردةِ البيضاء»؟ لكن ما إن رأيت ليلى مراد حتى أحببتها، ونسيت سميرة الخلوصي. وتأخذني هذه القريبة لنشاهد «ليلى بنت الصحراء»، البدوية الجميلة التي تعيش في خيمة في الصحراء، والتي كانت تحب «البُراق» إبن عمِّها الشجاع الذي

يستردها من كسرى بعد أن هجم على قصره، وأنقذ ليلى، وعاد بها إلى أهلها ثم تزوّجها... عندما أشاهد الفيلم أتعلّم أنَّ الحب هو أهم ما في الوجود، أهمّ من المال والطعام، فالبطلات هذه المرة لم يعشنَ في قصور، بل في الصحراء، وفي خيم البدو، يغنّين، ويقعنَ في الحب. ولم أعد أتخيّل نفسي أضع يدي على الدرج الرخامي الأبيض، والتفت كالممثلة وأنا أقول للسفرجي «جهزت العشا يا عبده»، بل أكون مع البدو في تلك الخيمة أنظر إلى ابن عمي بحبّ. وأجدني أكره قصر «كسرى» الجميل لأنَّ ليلى سجنت داخله، وأصفّق عندما يعود بها البراق إلى أهلها في الصحراء.

تقول لي القريبة بأنّها تتوق أيضًا إلى حياة البدو والخيم. لكن ما إن نبتعد عن السينما في طريقنا إلي البيت، و نتوقّف أمام واجهات الدكاكين نتأمّل الملابس والموض، نشتري «الأسكيمو»، البوظة والشوكولاته، حتى ننسى البدو ونعود إلى حياة الحضر، ندخل معًا البيت، ولا ينقبض قلبي كعادتي، بل أعدُ نفسي بالتسلية الأكيدة مع صديقتي هذه، فنعاود مشاهد الفيلم حتى نفهم لماذا حدث ما حدث. ثم نفتح المذياع نسمع الأغاني، وانتهز فرصة وجودها إذ كان شقيقي يكتفي بالعبوس، ولا يطلب إليّ أن أخفض صوت المذياع. أهمس لصديقتي أنّنا كالفراشات، وزوجي وشقيقي العابس دبّوران، يريدان عقصنا. وعندما يحين الوقت لتتركنا القريبة الثريّة وتسافر لتلحق بزوجها في المهجر، يعود الدبوران يوجّهان التوصيات والأوامر إلى نساء البيت الكبيرات والصغيرات.

يحين وقت المخاض، فتسرع بي زوجة شقيقي العابس إلى مستشفى الجامعة الأميركيّة بناءً على طلب زوجي. وما إن رآني الطبيب، حتى أخذ يقيس خصري، وبطني، وقدمي، بالمتر وكأنّي قطعة من القماش وهو الخياط... وعندما سألني عن عمري وعرف أنّي في الرابعة عشرة لم يكتم استياءه فصاح: «شو الظاهر أهلك ما عندهم أكل يطعموك حتى قاموا جوّزوك؟».

يسأل عن زوجي، فتخبر الطبيب زوجة شقيقي العابس أنّ زوجي يخاف دخول المستشفيات، فيجيب: «يلّلا نفذ بجلده». وكان زوجي قد دخل المستشفى مرّةً واحدة في حياته عندما توفيت شقيقتي، لا في أثناء مرضها، فتكتشف الراهبات أنّ إسراعه إلى غرفة زوجته المتوفاة، وقفزه الدرج برمشة عين، كانا لتلقينها قراءة الشهادة، وإدارة وجهة سريرها إلى «القبلة».

أراقب ابنتي وهي تتثاءب وتتمطّى، وإذا بها تمدّني بقوة جديدة تضاعف القوة التي مدّتني بها وهي في بطني. من أجلها أنتقل إلى السرير الذي كان ينام عليه زوجي والذي أصبح لي ولها. من أجلها ألازم السرير، ولا أفارقه إلاّ للاستحمام والدخول إلى المرحاض. من أجلها يرضخ زوجي لطلباتي، ويأتي لي بقميص نوم زهريّ اللون من الحرير الطبيعي. من أجلها أشكل قرنفلة في شعري بلون قميص نومي، وكل صباح أمنّي النفس بأكل دجاجة، لا قطعة لحم ضئيلة، بل دجاجة بكاملها تُذبح لي كل يوم، ولمدة أربعين يومًا، كي أزوّد جسدي بالغذاء اللازم، وأنا أرضع مولودتي.

أفصفص لحم الدجاج، وألتهم الصدرين والفخذين، أمصّ العظام بكلّ استمتاع محدثةً صوتًا وكأنّي «غولة» خصوصًا إذا كان شقيقي العابس على مقربة من الغرفة. بعد أكلي للدجاجة، أنتظر «المغلي» الذي يقدّم لكل زائرة، فأستمتع باللوز والجوز والصنوبر.

يأتي اليوم الذي أفارق فيه سريري لأجد الأيادي الكثيرة تساعدني على الاعتناء بمولودتي، بل تتولّى عنّي أمرها خوفًا من أن أوقعها أرضًا حين أحملها، أو خوفاً من أن أجعلها تبلع الماء في الوقت الذي أقوم بغسلها.

تضعها أمي في سرير خشبيّ، يهتزّ من الجانبين، تنقله معها كلّما بدّلت مكانها. يصرّ زوجي على تسميتها باسم «فاطمة» تيمنًا بإبنة الرسول (ص)، ولم أعانده خوفًا من أن يغضب منّي رسول اللّه، رغم أنّي أردت تسميتها كبطلات الأفلام التي رأيتها. ولم أتوقّف عن التفكير كيف تكوّنت «فاطمة» في بطني مع أنّي عضضتُ زندي حتى كادت العضّة تصل إلى العظم عندما اعتلاني زوجي وكأنّي كرّ صغير.

مولودتي كانت اللعبة التي لم ألعب بها، واللعبة التي لم أحضنها. إذا كانت اللعبة أو «العروس»، كما ندعوها في النبطية، من «الشراطيط» وفضلات القماش، وشراويل المسنّات، فإنَّ اللعبة في بيروت كانت تصدر صوتًا حين أجعلها تنام أو تقف، فهي من

الجفصين الشبيه لونه باللحم، تلك التي كدت أعمي عيني من البكاء لتشتري لي أمي أو شقيقتي لعبة واحدة فور انتقالنا إلي بيروت.

ورغم حبي الشديد لمولودتي فاطمة، إلاّ أنّي كنت أنسى وجودها في حياتي أحيانًا، خصوصًا وأنا أسمع الأغاني، فأتوق إلى مغادرة البيت قبل انقضاء المدة المطلوبة وهي أربعون يومًا. أتوق إلى الذهاب إلى السينما، إلى ضجيج المدينة.

«واللّه إنَّك بتخيطي فستان للبرغوت»

تتملَّكني الشجاعة لإقامة «يوم الاستقبال» إسوةً ببقية النساء الثريات ومتوسطات الحال اللواتي كنَّ فخورات بحَسَبهنَّ ونسَبهنَّ، أو من كنَّ مثلي يعشقنَ الغناء وحضور الأفلام السينمائية. تعيِّن المرأة يومًا من أيام الأسبوع في آخر كل شهر، فتأتي النساء بأبهى ملابسهن، ونجلس نتسامر، ونشرب القهوة، ونأكل الملبس والشوكولا. لكنَّ زوجي لم يكن يحبّ الزيارات، وكان ضدّ شرب القهوة وتقديمها، وينسب ذلك إلى ضياع الوقت وطقّ الحنك. وقد أجبرته على أن يأتي لي بنوع واحد من الشوكولا، ومن الملبّس الأبيض المختلط باللوز، مع أنِّي كنت أحبّ الحصوص ذات اللون الزهريّ والأزرق، لذلك أخذت أشتريها بالخفاء، وأشتري أيضًا من بائع متجوِّل البنّ والزهور سرًّا، بالإضافة إلى الزنبق الأبيض، والمنتور

الملوَّن، وتمّ السمكة، لأضعها في مزهريتين من نحاس، ثم أوزِّعها فور انتهاء الإستقبال على الجارات خوفًا من أن يراها زوجي، ويجري معي تحقيقًا: من أين أتيت بها؟ وإذا اشتريتها من أين أتيت بالمال؟ وكيف أنفق المال على زهور ستذبل وتموت؟

يتوعّك زوجي في صباح يوم الثلاثاء، «يوم الإستقبال»، ويتأخَّر في الذهاب إلى عمله. أسمع وقع خطوات زوجي تقترب من باب الغرفة متَّجهةً نحو المطبخ، فأسرع وأغلق الباب في وجه بائع الزهور. وما إن يصل زوجي إلى المطبخ، حتى أعدو إلى النافذة مناديةً بائع الأزهار ليصعد من جديد. يعود زوجي من المطبخ في اللحظة التي يصل فيها البائع، فأغلق الباب من جديد في وجهه. يدخل زوجي الغرفة، فأسرع من نافذة غرفة أخرى أنادي البائع الذي يكتفي بهزّ رأسه، ويمضي في سبيله. أعرف بعد ذلك أنَّه توقف عند الدكّان، قرب باب الزاروب، يتحسَّر على صباي وهو يخبرهم أنِّي فقدت عقلي.

أتعرَّف في أحد الاستقبالات على «ف» ابنة عائلة من الجنوب اشتهر أفرادها بالتجارة وبمراكز دينيَّة. كانت مثلي قصيرة القامة، تحبّ الغناء ومشاهدة الأفلام السينمائيَّة. تسرّ في أذني أنَّها تودّ أن تصبح مطربة في صالة «نادية العريس» المشهورة، وتستحلفني أن أطمر سرّها هذا في قلبي. تأخذني من يدي إلى مطبخ قريبتها، صاحبة «يوم الاستقبال»، وتأخذ في الغناء مقلّدة إحدى المطربات:

«عـالكـذّابة الكـذّابة يقـول الناس عنّي كـذّابة، لا . . . لا . . . أنا مش كـذّابة» . أحـاول أن أخـفي ضـحكتي، وهـي تـتـمـايل أمامي، وتـقـفـز، وتلوِّح بـيـدها وبأصـابعـهـا، وكـأنَّهـا الـسـعـدان الـذي أكل الحـامض، وصرصرت أسنانه، وأخذ يصرخ ويستغيث. أعدها بأن أذهب معها إلى صالة «نـادية العريس»، فأسرع أقلِّدها أمام ابنة شقيقتي، واستدرّ ضحكات زوجة شقيقي العابس، وكل من في البيت.

ولم تكن الكاباريهات في ساحة البرج هي الوحيدة التي تقدِّم وصـلات الغناء والطرب والرقص بل يحـدث ذلك في الأحـيـاء والشـوارع، فـيـدور الحنطور وإلى جـانـب السـائق رجل ينـادي: «يللا عـالهرج والمرج. . وفيقة وأختها بدن يغنُّوا ويرقصوا ويفقشوا عا تلّة الخياط بمناسبة العيد» . أحاول أن أقدِّم النصيحة إلى صديقتي «ف» وهي أن تجرِّب الغناء في مكان آخر غير صالة نادية العريس، خصوصاً حين أراها تحمل صرّة، فيها الفساتين ومرآة صغيرة وملقط تنظيف الحواجب، وتخبرني أنَّها فضّلت الفنّ على أهلها الذين لا بدّ أنَّهم سيتبرّأون منها حين يكتشفون أنَّها أصبحت مطربة . نبحث عن صـالة «نادية»، ومـا إن نـرى رجلاً فـي فـمـه سيكارة، وحـول بنصـره خـواتم، وشـعـره يكاد يلتصق بجلدة رأسـه من كـثـرة مـا مـسّـده بالبريانتين، حـتى نتأكَّد من أنَّنا وصلنا. ندخل الصالة التي كـانت على كل لسان يعشق الفنّ والغناء، ولاسيَّما على لسان شقيقي عاشق العود الذي كان يجمع القرش فوق القرش حتى يتسنَّى له الدخول إلى هذه الصالة والغناء أُسوةً بالمطرب فؤاد زيدان . . . أشعر بالغيرة فجأةً

من صديقتي «ف» لأنَّها ستصبح مطربة. ينشغل بالي، ونحن نسرع الخطى، إذا كان شقيقي العابس سيراني من ترامه. كأنَّنا بدخولنا هذه الصالة خرقنا ما لا يُخرق، إذ حتى الرجل الذي كان يدخل هذا الملهى كان يُخدش صيته: «واحد أزعر، داير من كباريه لكباريه». وكنت أتخيَّل الرجال السكارى الذين يلوِّحون بزجاجات البيرة أمامنا، ثم يدلقونها غضبًا عنًّا في حلق كلّ منَّا. وكنت أتخيَّل نادية العريس تهرع بنفسها إليَّ ما إن تراني، وتمسكني من يدي سعيدةً بأنَّها اكتشفتني، كما اكتشف أحمد شوقي، أمير الشعراء، المطرب الكبير محمد عبد الوهاب.

وقفنا ننتظر نادية العريس أكثر من نصف ساعة بين الطاولات الخشبيَّة، التي وضعت على بلاط يشبه بلاط بيتنا المنقوش. نرى المرجوحة، الذائعة الصيت، التي تتدلَّى منها نادية العريس من السقف، وهي تتأرجح وتغنِّي ممسكةً بحبالها المزيَّنة بالزهور والرياحين. تطلّ نادية العريس، المطربة المشهورة وكأنَّها إمرأة عادية، لا فستان طويل يكنس الأرض من طوله كما تصوَّرت. تسألنا ماذا نريد، بعد أن ألححنا على امرأة كانت تنظِّف الأرض بأنَّنا نريد أن نرى المطربة لأمر في غاية الأهمية.

تفتح صديقتي «ف» فمها تخبر نادية العريس بأنَّها تودّ أن تكون مطربة، فتطردنا نادية العريس حتى من غير أن تسمع صديقتي «ف» تغنِّي، ومن غير أن تنعم عليّ بنظرة واحدة: «يلّلا... يلّلا

روحوا على بيوتكن.. دخيلكم ما بدي مشاكل... ولا قصص... يللا روحوا قبل ما تجي القبائل من الجنوب ويسكرولي المحل»، إذًا هي أدركت لهجة صديقتي «ف» الجنوبية. وسرعان ما نسيت صديقتي «ف» حزنها، فأخذنا نضحك لقول نادية العريس «قبائل من الجنوب»، خصوصًا أنّنا نسير في ساحة البرج، وحولنا رجال من الجنوب بالشراويل، وصبيان على ظهورهم السلال، الحمالون، والبويجية، وغرسونات مطاعم ومقاهٍ يعملون في قهوة القزاز ومطعم أبو عفيف، وقهوة الحاج حسن. نضحك ونحن نسترجع كيف أخذت «ف» تحاول إقناع نادية العريس بقولها: «وحياة عينك ما حدش راح يعرف إنّي عم غنّي عندك. أهلي ما بيدعسوش الكبريهات والملاهي، ما بروحوش عالسينمات». رغم هذه المعاملة من نادية العريس وجدتني أحلم بدخول هذه الصالة في الليل، وأنا أفكّر بحيلة تلو الأخرى تمكّنني من تحقيق حلمي، إلى أن راقت لي خطة جهنميَّة، نجاحها يضعني في السماء السابعة، وفشلها سيكون هلاكي. ما إن أتت قريبات زوجي المتديّنات من الجنوب إلى بيروت، حتى أوهمتُ كلّ من في بيتنا أنّنا مدعوات لدى امرأة اسمها يرنّ كليرة الذهب لانتسابها لعائلة تتمسّك بالمبادئ الدينيَّة. أدخلتهنّ إلى الصالة لأكتشف حين رفضن أن يرفعن أغطية وجوههن السوداء الشفافة أنّهن لم يستوعبن قط ما قصدت بـ «صالة نادية العريس»، ومع أنّي أخبرتهن سرًّا بأنّني سأجعلهنّ يتفرجن على العجايب والغرايب. ولم يكنّ يعرفن شيئًا، ولا حتى كلمة «إسكتش

فكاهي»، ولم يكن قد سمعنَ حتى بعمر الزعني. جلسنا «بونوار»، وصدحت الموسيقى، وإذا بإحداهنَّ ترفع الغطاء عن وجهها، وهي التي وجّهت لي النصيحة في المرة الأولى التي تعرفت بها قائلة: «ديري بالك على قفّة الخبز يا بنتي... ديري بالك على حالك». تلحق بها الأخريات، وهن يتضاحكن، وينادين البهلوان الذي يقوم بحركات مضحكة على المسرح: «يي يي شو حلو». لم يكن يتصوَّرن أنَّ الغناء والرقص والموسيقى والاسكتشات تفرح القلب، وتزيل الهموم عنه، وأنَّ الوقت يمرّ بسرعة في أجواء مثل هذه. نرى الراقصة ترقص، ونادية العريس تهبط في المرجوحة التي زُيّنت حبالها بالورود، فتنثر الزهور، بينما يطلّ المغني فؤاد زيدان، صديق شقيقي عاشق العود، يطلّ مرتديًا بدلةً جميلةً ذات مربعات باللونيين الأبيض والبني، ممسّداً شعرَه بالبريانتين لامعًا تحت الأضواء، وكان يغنّي: «المركب غاب عالشط قلبي راح فين... والمركب غاب في الأحباب... في الأحباب. في الأحباب».

وكنّا في أثناء الحرب العالمية الثانية، والتعتيم إجباري في ساحة البرج، حيث طليت واجهات الملاهي باللون الأسود، وكذلك حُظّر منع التجوُّل إلاّ لمن يحمل بطاقة ملهى أو سينما. وزَّعتُ على النساء البطاقات فأمسكنها وهن يرتعشن من الخوف، خائفات من أن يُلْقى القبض عليهن. ولم يعترض طريقنا أي شرطي، بل ولحسن حظّنا كان «الترين» لم يتوقّف بعد، إذ كانت الساعة تقارب الحادية عشرة ليلاً. عدت بالنسوة في الترام وهنَّ مترنحات تحت وقع الأنغام والأغاني،

سابحات في دنيا لم يعرفن بوجودها من قبل، بينما كنتُ سعيدةً لأنَّ شقيقي العابس سائق «الترين»، يداوم في النهار فقط. نصل البيت، ويطلبن الطعام، لكن كيف أجرؤ على إطعامهنَّ، والمفروض أنَّنا ملأنا بطوننا حيث كنّا مدعوات؟

ولم أجد بدًّا من التسلُّل إلى المطبخ في العتمة، أسرق لهنَّ الطعام وألفّه بالخبز، تمامًا كالطير الذي يطعم «زغاليله»، محذِّرة إيّاهنَّ ألاَّ يُحْدثنَ صوتًا كعادتهن وهن يمضغنَ. يطعنَ أوامري حتى بدوْنَ كممثلات السينما الراقيات، وأفواههنَّ تمضغ الطعام وهي مطبقة، تعلّق إحداهنَّ: و«اللّه هاللقّة أطيب من خروف بلحمو وشحمو»، فتجيبها أخرى أغمضت عينيها سعيدة رغم جوعها: «هلّق فهمت ليش اللي بحبّو بعض ما بياكلوش، وبصيرو برفع الإبرة، وأنا عم حبّ، بس مش عارفة مين... هالليلة وقعت بالحب... أستغفر اللّه». مرَّ الليل بسلام رغم أنَّ الهلع دبَّ في قلبي عندما أخذت تلك التي وقعت في الحب تتحدَّث في أثناء نومها وتصيح: «هات نارة يا صبي»، ثم تكركر مقلِّدة كركرة الأراجيل، ثم تنادي بجملة عمر الزعني: «طار الشنكاش والحلاس»، فأغنِّي لها مطلع المونولوج : «الموضـــة قلبت شكل الناس... طار الشنكاش والحلاس».

منذ دخولي إلى صالة نادية العريس، وأنا أهدس بالمغنين والمغنيات، بالاسكتشات وبالممثلين. وكنت أنتهز فرصة الهرج والمرج

التي كانت تحدث في بيروت من أجل أن ينشغل شقيقي العابس عنّي، كتحليق الطائرات الانكليزية فوق بيروت، وإسراع الجميع إلى السطح لرؤيتها وهي ترمي المناشير، معلنةً استقلال سوريا ولبنان، وإذا ما تعالت الموسيقى لأنَّ جيوش الحلفاء قد دخلت ساحة البرج بالموتوسيكلات، فأجدني أسرع راكضة إلى الساحة لعلّي أرى من على بلاكين الحانات والمقاهي، أولئك المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات.

هذه الدنيا الجميلة، دنيا الأزهار، والشوكولا، والاستقبالات، والفساتين، والكعب العالي، والكحل حول العينين، وأحمر الشفاه، أخذت تجعلني عطشى إلى كلمة إطراء، ونظرة إعجاب، لا من النساء فقط بل من الرجال، خصوصًا من جارنا الشاب الذي رآني أول مرة وأنا أولول هاربةً من فستان زواجي الأبيض، والذي اعتاد من وقتها أن يراقبني، من غير ملل أو كلل، مشيرًا إليَّ حتى نلتقي، لكنّي كنت أكتفي بنظراتنا. أدور أغنّي مقلّدة الممثلة رجاء عبده بعد أن أرتدي فستانًا جميلاً وكأنّي الشاشة وهو المتفرّج .فأغمز بعيني، وأعقد حاجبي، وأمسك بقلبي، تمامًا كما تنصّ كلمات الأغنية التي ما إن تنتهي، حتى أبتسم للجار، وأشير مودّعة، وأفتح باب غرفة النوم، وأعود إلى حياة البيت، هذا إذا لم يفتح فجأةً شقيقي العابس الباب عليّ، وينهرني: «ليش عم تسكّري الباب»، وإذا لم يدخل زوجي ويقفل المذياع شاتمًا: «عزرائيل الشتوي».

وكانت فكرة لقاء ابن جيراننا تراودني فقط على السطح الذي أصبح كأنَّه قطعة من الدار «المنزول»، فنجلس في الهواء الطلق، لا عائلة تترصَّد بنا، ولا أوامر ولا خوف ولا واجبات. شقيقي عاشق العود يدندن على عوده، وأخي كامل يغنِّي، والبيوت من حولنا تستعدّ للمساء، ومولودتي بين ذراعيّ أتذرَّع بأنَّها لا تتدشأ إلاَّ إذا سرت بها، ولا تنام إلاَّ على هديل الحمام المتطاير قبل أن يخلد إلى النوم. لكن ما إن يزدحم السطح بالزائرين حتى ألتهي عن ابن جيراننا، ويختفي توقي إلى ملاقاته، فأصبّ كلّ اهتمامي على المطربة نجاح سلام التي تغنِّي: «عَجِّل عَجِّل بأوتومبيلك لقعد حدَّك وأغنيلك». وكانت نجاح صديقة لابنة السيد القاضي حيث تسكن عائلته الشقة الوحيدة على السطح. وتأتي نجاح سلام من بيتها فتنزل على سلَّم خشبيّ تثبته لها صديقتها. حتى المطربة التي كان يصدح صوتها عبر المذياع كانت تخاف أيضًا من عائلتها، ولم يكن يُسمح لها بالخروج إلاّ بصحبة أخيها، أو والدتها. نلتفّ حولها، ثم يعدو شقيقي عاشق العود، ويأتي بالمطرب فؤاد زيدان، فيجلس المطربان معًا يدندنان هذه النوطة، وتلك، يغنيان معًا: «يا طيْري قولي، شايفك تمللي، متخبّي مني... طويت جناحك على جراحك وصحيت تغنِّي على دار الأشواق». يكرِّران غناءها، وأنا أشاركهما، فيطري المطرب فؤاد زيدان على صوتي... تتملَّكني السعادة وأشعر أنِّي لا بدَّ أن أصبح مطربة «ولو بالسر»، وأقرِّر أن أفاتح المطرب بالأمر ما إن ينتهي من غنائه. أنسى مولودتي وهي نائمة على يدي، أنسى شقيقي

العابس، وزوجي المتديّن، وأمي الباكية، وزوجة شقيقي المنشغلة بأطفالها وبشؤون البيت، وأروح أحلم بأنّي بدّلت أسمي، وذهبت مع فؤاد زيدان إلى الإذاعة، وأنا أرتدي الفساتين الجميلة، وأقف خلف الميكروفون. أفكّر بالشاب محمد وهو يستمع إليّ، أفكّر بالشاب الجار وهو يتحسّر لأنّي أصبحت مطربة قبل أن يلقاني. لكنّ صوت شقيقي العابس المتوعّد الذي سبق وصوله يهدّدنا فجأة: «يا ولاد الكلب... عاملين تياترو هون».

أتشبّث بابنتي، بينما يمضي المطرب فؤاد زيدان هاربًا، ممسكًا بعوده، ويختفي من حياتنا إلى الأبد.

منذ أن رأيت الجوارب السحرية على ساقي امرأة في يوم الاستقبال وأنا أطلبها من زوجي. كانت أشدّ رقّة ونعومة من الحرير و«الجورجيت»، تمامًا كقشدة الحليب وفقاعة الصابون، واسمها «النايلون».

أشرح لزوجي ما أريده، ولا يفهم شرحي إلاّ عندما استقرض الجارب، و أعود به إليه، فيعلّق:«عزرائيل، يا عيب الشوم بدك تفرجي لحمك... يا عيب الشوم، عندك قطن فردكوس... أحسن قطن»، أبكي وأنوح، فتقول أمي: «واللّه البصاقة بتترك أسْمك من هالنالون...»

وأنا أدخل قدمي بهما بكلّ ترو، وكأنّي أمسك بالبيض، ألفّ حولهما «المغيّطة» وأسير بهما. أعزم على شراء الجوارب مهما كلّف

الأمر. وكنت قد أنفقت كل ما أدخرته على يوم الإستقبال الثالث، وعلى صالة نادية العريس، لأجدني كالعادة ألجأ إلى الخطط والحيل، فأطلب إلى جارتنا ذات السلالة النبوية أن تطالبني بدين وهميّ أمام زوجي وهو ينزل الدرج صباحًا إلى عمله. تحاول أن ترفض لي طلبي هذا لكنَّ دموعي تجعلها ترضى، فتقول: «يا ويلاه راح تدخّليني جهنم... تفو على اللي جوّزك وأنت بعدك ولد...». تصوم مدّة أسبوع، وتصلّي الركعات الزائدة تكفيراً عن كذبتها. أهرع إلى السوق، وأشتري الجوارب السحرية، وكان اسمها «هولبروف»، أضعها على ساقي، وأرقص بها، وأغنّي أغنية عمر الزعني: «كلّ شيء صار عالمكشوف والصبايا هولبروف». وكنت أريد شراء كلّ ما أراه في الأفلام، من أحذية وفساتين، ومن البريانتين الذي يجعل شعري جميلاً، إلى «بِكَلْ» الشعر والصابون المعطّر بدل الصابون الأحمر ذي الرائحة الكريهة كحبّات النفتالين.

أريد شنطة اليد، الملابس التحتية الحريرية المشغولة المخرَّمة، لا القطنية السميكة التي تصل إلى ركبتي. أريد الشلحات الحريريَّة، لا قمصان الفانيللا التي تصل إلى تحت خصري. ولم يكن زوجي يحبّ قماش المخمل أو المخرَّم. كان يشتري لي سكربينة بيضاء، ثم يدهنها باللون الأسود أو البني في فصل الشتاء، حتى اذا انهمر المطر انحلّ الصباغ الأسود على قدمي. لذلك كنت أقصّ السكربينة «بالشفرة» حتى يقتنع فيشتري لي سكربينة جديدة. أتحايل على زوجي من غير فائدة، فهو لم يكن يسلّمني قرشًا واحداً، مردِّدًا أنَّه

يشتري كل حاجياتي ولوازم البيت. كلّما احتجت ذكّرني بأنّ شقيقتي المتوفاة لم تكن تعرف رنّة القرش في يدها رغم مساعدتها له في ما كان يبيعه، ويقارنني بزوجة شقيقي العابس التي توفّر القرش لأولادها. يدبّ فيّ اليأس، ولا أعود أذكر أمامه حتى تكاليف يوم الإستقبال، بل أقرّر أن أغافله وأسرق المال منه حين يترك الغرفة، أو حين يتوضّأ، أو يغطّ في النوم. أقصّ قطعة الجلد المخصّصة لنعل الأحذية، الخاصة بشقيقي العابس، والذي كان يضيفها إلى أحذية أولاده وزوجته. أسرق حذاء يخصّ زائرة مكثت في بيتنا أسبوعًا لأبيعه إلى صديقاتي. ولم تسعفني هذه السرقات القليلة، إذ الأشياء الجميلة لا تزال تناديني، فتخطر ببالي فكرة جهنميّة عندما يفتح زوجي الصندوق الأسود ويخرج منه المؤونة، فأسرق المفتاح من جيبه ما إن يغطّ في النوم، وأقصد دكانًا في منطقة أخرى تبعد عن بيتنا، ليصكّ لي مفتاحًا طبق الأصل عنه، ثم أعود إلى البيت، وأضع المفتاح في بنطلون آخر. يبحث زوجي عن المفتاح في بنطلونه. يمسك رأسه بين يديه بسبب الصداع، فهو لم يكن يحبّ أن يفقد شيئًا. يخلع بنطلونه، ويهزّه من غير فائدة. أغالب الضحك وأتصنّع البحث عن المفتاح في بناطيله الأخرى، وأصيح: «مش هيدا هو؟» ويأخذه من يدي، شاكراً اللّه، لاعنًا الشيطان. وهكذا أصبحت أنتهز فرصة غياب زوجة شقيقي عن المطبخ حتى أفتح الصندوق، أغرف من المؤونة، وأضعها في أكياسٍ وعلب، وآخذها إلى منازل صديقاتي والجارات، أبيعها لهن بنصف سعر الدكاكين، وقد أرسل

أحيانًا ابنة شقيقي العابس بدلاً منّي. وهكذا إلى أن كُشِفَ أمري عندما صادف وعاد زوجي إلى البيت متوعِّكًا، والتقى بابنة شقيقي العابس وهي تحاول أن تتحاشاه، ثم تركض هاربةً منه وهي تخفي كيسًا من الورق خلف ظهرها. يلحق بها ويخطف الكيس من يدها، وما إن يرى السمنة حتى ينحني يشمّها، ويتأكّد أنَّها من خابية السمن خاصتنا.

يشكو زوجي أمر سرقاتي إلى شقيقي العابس، وإلى جارنا «السيد القاضي»، فأقصد السيد بنفسي أحاول أن أبرِّر فعلتي. أخبره لماذا اضطررت إلى بيع المؤونة، أخبره عن حبِّي ليوم الإستقبال، وكيف لا يمنحني زوجي المال لشراء البنّ لأنَّه يعدّ القهوة من الكماليات غير ضرورية. أخبره أنَّه لا يعرف عنِّي شيئًا سوى أنِّي كسولة، وكيف يكشف عن قدمي وأنا نائمة. أزيد بأنِّي ما زلت صغيرة ولست عجوزاً مثله. أكمش نفسي وأنا أوشك على ترديد قول إحدى الجارات «بأنَّ زوجي بطيزو عمر»، ثم أطلب إلى السيد القاضي الوقور: «اطّلع فيّ ياسيدنا كم دراع بدّي حتى خيّط فستان»؟. أقصد بسؤالي هذا بأنِّي قصيرة القامة، وبأنَّ ذراعين من القماش الغالي الثمن تكفيان لخياطة فستان لي، لذلك لا يجب أن يقال إنَّ زوجي في غاية الكرم... أو إنَّه يشتري لي الأقمشة... ويتمتم السيد: «لا حول ولا قوة إلاَّ باللّه العلي العظيم»، وذلك بعد أن يئس من تقديم النصائح لي.

لكنَّ شقيقي العابس لم يتوقَّف عن الصياح بي: «ما عندك حبّة خجل! واللّه إنَّك بتخيّطي فستان للبرغوت. الكلّ عم يوتوت عليك بأنَّك سراقة حراميَّة». أحاول الدفاع عن سرقاتي ربما تحاشيًا للاشمئزاز الذي كان يفحّ حتى من شعيرات أنفه، لكنَّه يهوي بيده ويضربني، أنا أهرب منه وهو يلحق بي. أسرع إلى قنينة الكاز، وأفكِّر في الانتقام منه واستعادة كبريائي. أدلقها عليّ، ثم أمسك بعلبة الكبريت، لكنَّ شقيقي العابس يسرع، يَخطف منِّي القنينة وعلبة الكبريت. لحظات تمرّ، ويجنّ جنوني لأنِّي أردت أن أحرق نفسي. كيف أفكِّر أن أفعل هذا وأنا أخاف من آلام الأضراس؟

وأخذت أبكي، ولم أتوقَّف عن البكاء، ووجدتني أنهض لأتأكَّد من أنّي لم أحرق نفسي، إذ بدأ جسمي يحرقني. أرى في الصباح بقعًا حمراء قانية منتشرة على جسمي، فأفطن أنِّي لم أستحمّ بعد أن دلقت الكاز عليّ.

ولم أتب عن التحايل والسرقة لآتي بالمال، فالأشياء الجميلة تتكاثر أمامي، والأفلام في ساحة البرج تتبدَّل. أبيع ساعة معصمي بعد أن أنزعها من جلدتها، أوهم الجميع بأنَّها سقطت منِّي عند درج البيت في الحفرة الممتلئة بماء المطر. ينحني زوجي ساعات وفي يده «منخل» يحاول أن يصفي الماء، لعلّه يعثر على الساعة.

لم أصب باليأس، بل أخذت أعاين بنطلون زوجي، وأنتهز الفرصة لأنقضّ عليه، إنَّما من غير فائدة، إذ راح يدخله معه إلى

الحمام. ابتسمت فجأةً لفكرة أتتني وابتسامتي تتحوَّل إلى ضحكة. أدقّ عليه باب الحمام، وأسأله إذا كان يريدني أن أفرك ظهره بالليفة، كعادة المتزوجين. سعادة زوجي كانت لا توصف، لأنّي لم أكن أدعه يلمسني أو يقترب منّي. أفرك له ظهره، ثم أكوِّم الرغوة على رأسه، وأعود إلى ظهره أفركه، ثم أزيد من الرغوة على رأسه، وأدلق القليل من الماء، فتتكاثر الرغوة، وتهبط إلى جبهته، ثم إلى عينيه، فيتململ ويقول لي: «حَرْحرتيلي عيوني»، فأشهق وأغرف الماء بالكيلة من «الخلقينة»، لكنّي لا أدلقها على وجهه، بل أمدّ يدي إلى بنطلونه، وأسرق من جيبه الليرات، أضعها في عبي، ثم أدلق الماء على وجهه حتى أعفيه من حرحرة عينيه. ويبدو أنَّ الرغوة كانت هائلة، لأنَّه أخذ يشتمني ويناديني ببنت العكروت. يضحك كلّ من في البيت على حيلتي هذه التي كشفتها لهم بنفسي، مساء اليوم التالي، بعد أن أنفقت الليرات، كما تضحك الجارات، وتتناقل الألسن أخبار سرقاتي. يتواطأ معي الجميع لصغر سني، رغم إحترامهم لنزاهة زوجي وتديُّنه، أردِّد ضاحكة: «أكله وانسمت عليك... كول وبحلق عينيك. أنا متزوِّجة من رجل غنيّ، ومش عم شوف المصاري...»

وكان الحي بأجمعه يعلم بتصدقي على الفقراء والشحاذين من طعام وملابس داخليَّة لدرجة أنَّ زوجي كتب ورقة علَّقها على الباب: «ممنوع الشحاذه في هذا البيت».

ولم يكن الشحاذون يعرفون الكتابة والقراءة، فبقيت الورقة معلَّقة يومًا أو يومين، قبل أن ينتزعها شقيقي العابس، ويرميها أرضًا.



«شبح الليل، الوطواط الجميل»

يمرّ عامان قبل أن أكتشف أنَّ (محمد)، قريب الخياطة، هو الذي أرسل لي باقة الزهور التي أتتني إلى البيت عقب ولادتي طفلتي فاطمة. ولم يخطر على بالي أنَّها منه، إذ عندما تزوّجت أرسل لي مرسالاً مع الخياطة فاطمة يقول بالحرف الواحد: «تجوَّزتِ؟ يا ضيعان الوفاء. أنا أكبر أهبل، كيف سلّمت قلبي لطفلة، أوعي تفرجيني وجهك بعد!». وكان صبيّ الدكان هو الذي أتى لي بباقة الورود. وسرعان ما أصبحت هذه الباقة مصدر تحقيق إذ أراد شقيقي أن يعرف من الذي أرسل لي هذه الباقة. استنطق صبيّ الدكان أكثر من مرة، وصبيّ الدكان يبدّل قوله في كل مرة، وكأنَّه فطن إلى أنَّه ينبغي عليه حمايتي. يقول إنَّها من إحدى السيدات اللواتي حضرن يوم استقبالي، وعندما يسأل عن اسم ما، أو عن أوصاف المرأة كان

يتراجع ويقول هي لمنزل آخر. وكلّما أراد صاحب الدكّان أن يكشف الحقيقة يروح الصبيّ يبكي، ويرتعدّ خوفًا. وكنت موقنة، في قرارة نفسي، أنّ جارنا الشاب هو الذي أرسلها. إلى أن التقيت بأخت محمد مصادفة، وأخبرتني أنّ (محمد) هو الذي أرسل الباقة، وأنّه ما زال يحبّني حتى أنّه أقسم أنّه لن يقع في الحب أو يتزوّج، ثم أخبرتني أنّه صار مفتّشًا للأمن العام، وانتقل إلى بيروت، وأنّه يعيش مع باقي إخوته في بيت لا يبعد عن بيتنا سوى خمس دقائق. يدقّ قلبي فرحًا، واسترجع فجأة كل كلمة قالها لي وقلتها له، كل حركة، وإذا بي أقع في حبّه من جديد، خصوصًا أنّي كلّما نهضت في الصباح الباكر أرى على نافذة غرفتي المطلّة على الدرج منديلاً حريريًّا، وفي الصباح التالي أرى قرنفلة حمراء، وفي يوم آخر «فتنة»، ثم طربوشًا من الحبق يقطفه من تنكات الحبق والمردكوش والشاي الأخضر التي كانت زوجة شقيقي تصفّها عند الدرج ومدخل البيت. أحاول أن أضبطه، وأنا متمدّدة في سريري ليلاً، أتنصّت لعلّي أسمع وقع خطواته، إلى أن يغلبني سلطان النوم، حين أستمع إلى حنفية بركة الجيران وهي تصبّ الماء نقطة نقطة.

يحلّ فصل الشتاء، فنقفل الشباك الخشبي، ويرسل لي محمد بين يوم وآخر، وردة مع صبيّ الدكان نفسه، والذي أصبح يأخذ حذره، فيسلّمني كل شيء في يدي. وأحيانًا أجد وردة موضوعة برفق على الصندوق الكهربائي الخاص بالعمارة. لكنّها وردة ميتة، جافة، يسلّمني إيّاها الصبي، فأمسك بقلبي متسائلة: «لماذا لا تفوح

عطرًا كالعادة؟ ما سرّ هذه الوردة الميّتة؟» أحاول استدراج صبيّ الدكّان فيخبرني بأمر هذه الوردة، لاسيّما أنّي لم أتسلم بعدها شيئًا. يبدّل الصبي أقواله، ويوافقني على ما أقوله: «الشاب اللي أعطاك الوردة مبيّن عليه مريض؟» فيجيبني «مريض كثير!»، فأعود أسأله: «قال إذا كان هيدي آخر مرة راح يبعت ورد؟» فيجيبني: «قال آخر مرّة بدّو يبعت لك الورد». عندئذٍ أسرع إلى فاطمة الخياطة، وأسألها عن محمد وصحته وأخبرها عن الوردة الميتة، وكأنّي بسؤالي عنه قد أعطيته الضوء الأخضر. ومنذ ذلك الحين وهو ينبت لي كحجر في وسط الطريق. ومع أنّي نسيت قوة جاذبيّته وجماله، أجدني أتمتم عند رؤيته: «يا اللّه شو هالشاب اللي أحلى من عبد الوهاب!». ومن وقتها وهو يلحق بي أينما سرت. أدخل دور السينما مع قريبتي الثريّة، فأسمع زفرة كلّما بثّ البطل لواعجه للبطلة، فالتفتُ حولي لأراه في المقعد الخلفي. تأخذنا القريبة نفسها إلى متنزّه فوّار أنطلياس مع أخريات لنقطف «أم سكوكع»، وأجلس، وكلي سعادة، وأنا أخشخش بأساور معصمي الذهبيّة، ثم أنهض أقلّد لهنّ صديقتي «ف» وهي تغنّي «عالكذابة»، أو أقصّ عليهنّ آخر فيلم شاهدته. فجأة أراه يطلّ وحيدًا، أو مع صديق له، يجلس قبالة طاولتنا يتأمّلني. إذا أدنيت القدح من فمي أراه يشرب، وإذا رفعت الإبريق رفعه يقلّدني. أبتسم فيبتسم، أضع يدي على خدي، فيضع يده على خده، ثم يشير إلى ضمّة الكرز التي كنت قد شكّلتها على صدري طالبًا إليّ نقلها إلى جهة الشمال، وإذ أنهض لأغسل يدي وحيدةً، أو برفقة سواي، يمسك زهرةً، وينثر أوراقها على الأرض.

يخبط قلبي بعنف ما إن أراه. فتصبح الأماكن دافئة وجميلة، أفرح وأبتسم، هناك من يحبّني ومن يتفهّمني. وأكتفي بلغة الإشارات وخفقان القلب. فأنا متزوِّجة ولا يجوز أن أتمادى. ولم يكن يطلب إلاّ أن يلحق بي، وأن يتواجد في المكان الذي أنا فيه.

تحذِّرني ابنة شقيقي الصغرى، الملاك، التي تعيش معنا: «أوعى يا خالتي... إذا غطست طرف إصبعك بالميّ، أخذتك الميّ معها... أوعى يا خالتي... دخيلك كلّنا عايشين، وعم ناكل من وراك».

وكانت على حقّ، كلَّما التفت إليه كان رأسي ينفصل عنّي، ويهرب إليه... كلَّما فكَّرت به جرفني تيّار الماء...

لا يتوقف محمد عن وضع الورود لي. تجده ابنة شقيقتي في الصباح الباكر حين تنهض لتقوم بعجن الخبز، فتخفيها في جيب فستانها، وتهمس في أذني: «شوفي شو ترك الوطواط؟»

وكان هناك فعلاً وطواط يأتي إلى شجرة التوت الخاصة بجيراننا، والتي تتدلَّى أغصانها على حديقة عمارتنا، فيأكل منها الحيوان ملطِّخًا الجدران بلون التوت القرمزي والأسود.

يتسلَّل لصّ إلى بيتنا في الصباح الباكر. تراه ابنة شقيقتي مختبئًا خلف الباب وهي تعجن الخبز. تشدّ بكلّ قوتها على الباب تودّ «فزر» اللص، ثم تكفّ عن حشرها له فجأة وتسأله:

«أوعى تكون أنت محمد؟ يجيبها اللص: «لا أنا مصطفى».

«طن طن.. كمشتكن، كمشتكن.. كمشتكن»

التفكير في محمد يجعلني لا أطيق ملازمة البيت لحظة واحدة رغم الهوة التي أخذت تزداد بيني وبين شقيقي العابس، وبيني وبين أمي، كلّما أردت الخروج. الخناق يضيق حولي وحول ابنة شقيقتي، وإذا تعالت ضحكاتنا سمعنا زوجي يعلّق: «عزرائيل الشتوي»، أو سمعنا شقيقي العابس يشتمّ: «بنت الكلب». نختفي في الغرفة إذا نتفنا حاجبينا ليمرّ الوقت، ويختفي الإحمرار حولهما. تختبئ ابنة شقيقتي عن الأنظار ريثما تنتهي من صبغ شعرها، ثم تخفيه تحت الإيشارب عدة أيام. كان قمة خوفنا أن يضبطنا شقيقي العابس، ونحن في طريقنا إلى السينما في ساحة البرج. يرانا ولو أخذنا حذرنا، يرانا ونحن نتلطّى بمحاذاة الدكاكين، أو ندخل دكّانًا ما إذا اقترب الترام، يرانا إذا قطعنا الطريق إلى جهة أخرى بعيدة عن الترام. يضبطنا

عند تلك اللفتة، عند ذلك الكوع.. «طن طن طن» كان يضغط بقدمه على زمور «الترين» الذي يقوده فيدوِّي الصوت، ويحدجنا بنظراته متمنِّيًا لو أنَّ كل عين تتحوَّل يداً تمتدّ من باب الترام إلى الشارع، وتمسك بي وبابنة شقيقتي، وخصوصًا بي أنا الكبيرة. «طن طن طن... كمشتكن، كمشتكن، كمشتكن». يضبطنا رغم تصنُّعي العَرَج، رغم تبديل لون معطفي. وكان عليَّ أن أفكِّر بكلّ شاردة وواردة، أن أنتبه إلى تغيُّر الفصول، أن أخشى غروب الشمس، فتحلّ العتمة فجأة، ونحن لا نزال خارج البيت، كأنَّ ما يحدث لي ولابنة شقيقتي لا يتمّ إلاّ في ظلام الليل. وكأنَّ زواجي لم يحمني من شقيقي الذي لم يتورَّع عن تهديدي عندما اكتشف أنِّي ذهبت إلى السينما حتى مع شقيقي عاشق العود. وسمعني أقصّ قصة فيلم على زوجته والأخريات مستغنمةً فرصة قيلولته، فنهرني وضربني. شكوته بدوري إلى شقيقي عاشق العود الذي أخذ بثأري وسدَّد للعابس لكمةً. ولم أكن أعرف أنَّ أعصابي في غاية التوتر، إلاَّ عندما مُنع شقيقي العابس من قيادة الترام لمدّة شهرين بعد أن صدم أحد المارة. ألاحظ اتِّساع ساحة البرج وجمالها، ألاحظ الدكاكين، وما هو معلَّق على أبوابها وواجهاتها، أستقلّ الترام في وضوح النهار بعد أن كنت متأكِّدة من أنَّ السائقين جميعًا قد تواطأوا مع شقيقي العابس لضبطي.

لم أكن أكتفي بمشاهدة الأفلام مرّةً، بل أدخل السينما مرتين، في الصباح وبعد الظهر. أدخلها حتى قبل ابتداء المناظر، فألاحظ كيف أنَّ الصالة تغصّ بالرجال، إلى أن تُطفأ الأنوار فتأخذ النساء

بالدخول في العتمة. تجلس المرأة وحيدةً مع صديقاتها طوال الفيلم، أو يأتي الرجل الذي تواعدت معه خلسةً، ويجلس إلى جانبها، ولا يتهامسان إلاّ بعد أن يمرّ وقت قليل على جلوسهما معًا.

وكانت السينما ممنوعةً لأنَّها مكان لقاء الأحبة، وتدخين السكائر خفيةً. إنَّها المكان الأكثر أمانًا. عند بابها تتوقَّف سلطة شقيقي العابس وزوجي، فلا ترقبني عين، ولا تتوعَّدني يد. أنا حرّة في السينما. أدخلها وكأنِّي غريقة، فتنتشلني إلى دنيا جديدة حيث الرقص والعشق والمأساة.

السينما هي أهمّ ما في بيروت، كأنَّها كانت تطغى على الدنيا التي هي «قايمة وقاعدة». تندلع فيها التظاهرات ضدّ فرنسا والانتداب، أدخلها مع طفلتي، وأعطيها ثديي لترضع مستأنسةً، وأستأنس بدفء الصالة.

أدخلها مع القريبة الثريَّة التي تحوَّلت بين ليلة وضحاها من البُراق ـ الجواد الأبيض الذي أخذ النبي محمد إلى السموات السبع ـ إلى امرأة عادية ترتعش خوفًا مثلي، تبكي لأنَّ أخاها يسدّد لها اللكمات. أفكِّر أنَّ ليراتها الكثيرة لم تنفعها كما أيقنت من قبل، ولا نفعها الذهب الذي يبرق حول جيدها ومعصميها، ولا ساعدها نعل حذائها الكريب الأبيض، ولا شنطة يدها الثمينة، ولا سيكارتها. ولم ينفع أنَّها متزوجة وأم، ولم تُجدها ثقتها بنفسها ولا شعورها بالتفوُّق على أخوتها وأقاربها. يضبطنا أخوها ونحن

خارجتان من صالة السينما. يدقّ بابنا في ساعة متأخِّرة من الليل. يبحث عنها بين النائمين في «الدار»، فيعثر عليها، ويجرّها من يدها إلى المطبخ، يصيح بها متوعِّداً، غير آبه بأنَّه أيقظ البيت كلّه. ونسمع بكاءها غير مصدِّقين. أحتمي بابنة شقيقتي خائفةً من أن يدلّ بإصبعه عليّ لأنِّي كنت معها. هل ستلحقني «طرطوشة» من صفعاته، أو أنَّه سيخبِّر شقيقي العابس؟

ما جرى للقريبة الثرية جعلها تتوقف عن الذهاب إلى السينما، رغم أنِّي عرضت عليها خطة بعد أخرى بلا فائدة. ويأتي فيلم «بائعة التفاح»، ويستدرجها من جديد إلى دنيا السينما... وكان الفيلم قد اكتسح ساحة البرج حتى أنَّ شقيقي عاشق العود لم ينقطع عن الحديث عن هذا الفيلم الاجتماعي الذي يحكي عن بائعة تفاح ساذجة يراهن عليها شابان ثريان لتتحوَّل إلى فتاة أرستقراطية. ويبدأ أحد الشابين بتغيير مظهرها، ثم كلامها، ثم طريقة أكلها، فتكتشف الفتاة في حفل كبير أنَّ اهتمام الشاب بها ما هو إلاَّ نتيجة رهان، فتهرب، وهي تمسك بقلبها الذي أحبَّ معلمها، ويعرف هذا بهروبها كم أنَّه يحبُّها، ويبحث عنها حتى يجدها...، ويعيش الاثنان الحياة الراقية التي أصبحت الفتاة تنتمي إليها.

تنفض القريبة الثريَّة عنها الخوف، وتصل إلى حيلة في منتهى الذكاء. تدعو شريك زوجي وزوجته لحضور هذا الفيلم واضعةً شقيقي العابس وزوجي تحت الأمر الواقع، فيوافقان على حضور الفيلم مصطحبين معنا زوجة شقيقي أيضاً. وهكذا كان. جلسنا في

مقاعدنا، أنا والقريبة نبتسم لأنّنا نجحنا في خطّتنا، نندمج في هذا الفيلم المؤثر إلى أن انتهى، وأضيئت الأنوار. رأينا زوجي يغطّ في النوم وقد خبأ وجهه، بينما شقيقي العابس ما زال عابساً. ولم يعلّق بكلمة واحدة.

ووجدتني إثر تلك الليلة أموت شوقاً لأكون مع محمد. أرى نفسي بائعة التفاح وهو الأرستقراطي الذي يقرأ ويكتب. أتمنّى لو أتحدّث معه كما كنّا نفعل، حول البركة، عن الأفلام والممثلين، فأقول له إنّ السينما علمتني الحياة، وأفكّر أنّ بائعة التفاح لم يتسنّ لها حضور أي فيلم، وإلاّ لكانت تعلّمت أن تكون أرستقراطية من تلقاء نفسها، فالسينما أدخلتني ولا تزال تدخلني إلى مدرسة من نوع خاص. تعلّمني التاريخ والجغرافيا، تحدّثني عن بلاد اسمها أوروبا، عن الحرب، تعلّمني فنّ الكلام، فنّ الموض والملابس، تدخلني إلى منازل فخمة ومتواضعة، تعرّفني بسكانها، فأتمنّى لو أعيش مثل بعضهم، ثم أحمد الله أنّي أعيش أفضل من البعض الآخر. ألتقي على الشاشة بمن هي مثلي، وبمن هو مثل شقيقي العابس، ومن هو مثل زوجي.

أتعلّم كيف يتنزه البشر، وكيف يفترشون الارض ويحتسون البيرة، وينعمون بالطبيعة، بينما تكون سترات الرجال ملقاة إلى جانبهم، ومعاطف أو شالات النساء موضوعة باتقان على العشب. أتعلّم كيف تجلس الممثلة، كيف تبكي، كيف تلتفت. أتعلّم أنّ عقد اللؤلؤ هو من المجوهرات الثمينة، لذلك تُشبّه الأسنان المتساوية الناصعة

البياض بحبيباته، ولا تشبّه بعقد العقيق، أو بالكارب الأصفر، أو بحجر جيء به من الحجّ. أتعلّم كيف يلتفّ أفراد العائلة حول طاولة الطعام ويأكلون. كيف يمسحون أفواههم بالفوط لا بأكمام ملابسهم. تعرِّفني السينما بالأثاث المتناسق، بأنَّ الزهور ليست للحقول بل لتعيش في البيوت، وفي الأصص، والآنيات الزجاجية. والبرهان على ذلك أنّي أجبرت زوجي على أن يشتري لي عامودين من الخشب، وكأنَّهما شخصان يمدّان كفيهما من الجهتين. وضعت عليهما صدفةً بحريةً كمنفضة للسكائر، ونويت على شراء لمبة يُضاء رأسها المزخرف بالزجاج البلّوري. أتمنّى لو أقف وأغنّي أغنية عمر الزعني إذا ما سألني شقيقي العابس، أو سألتني أمي إلى أين ذاهبة:

«صار فين ما مشيت بالليل وبالنهار

بتشوف سينما على جنبة بار

بتشوف الناس طقّات طقّات

كل الأجناس، كل الماركات

رايحين جايين

فايتين ضاهرين

كلُّهم هاجمين عالسينما

فايتين ضاهرين

كلُّهم هاجمين عالسينما».

«أول الحب»

كنت مكتفية بأنّي بطلة فيلم زُوِّجت غصبًا عنها لرجل ميسور الحال، ضعف عمرها، لا يعرف عنها شيئًا سوى شكلها وصوتها وكسلها، بينما الشاب الجميل المتيَّم بها ما زال يبني مستقبله، ويلحق بها أينما كان. لكنَّ الشجاعة طغت عليّ في لحظة لم أعد فيها كاملة المتزوجة، وأم فاطمة، وشقيقة العابس، بل مطربة تطير من فرط نشوتها لتغنِّي: «ساعة من فضلك» تلك اللحظة هي لقائي بمحمد، على منعطف شارع، في مطعم قرب صخرة الروشة، وهو متنزّه خارج بيروت نصله بسيارة الأجرة. نمسك بأيدي بعضنا بعضًا خائفين من أن يغيب أحدنا عن الآخر. ولم يكن الخوف يتملّكني في أثناء نزهاتي ولقاءاتي معه، إذ كنت موقنة بأنَّ شقيقي العابس وزوجي في عملهما، عدا أنّهما لا يعرفان هذه الأماكن،

وحتى إذا عرفا عنها شيئًا، فلن تطأها أقدامهما. لكن ما إن أهمّ بدخول البيت حتى تعتريني قشعريرة. هل صار شقيقي العابس أكثر عبوسًا؟ هل يتجسّس عليّ أو أنّي أتوهم؟ ترى هل يعرف بأنّي ألتقي محمد، وهل يخطّط الاثنان لإيقاعي في الفخ؟

لكن هذا الخوف لم يمنعني من أن ألقاه في اليوم التالي، وفي اليوم الذي يليه. معه كنت في أشدّ لحظات السعادة، لا أريد شيئًا من الحياة. وكان محمد كالمعلّم وأنا كالتلميذة. يخرج من جيبه ورقة ويمسك يدي وهو يقرأ لي، رافعًا نظره عن الورقة، بين لحظة وأخرى، محدّقًا إلى وجهي: «واقتربت منّي وقد بان وجهها من خلال نقاب شفاف كأنّه وجه القمر غطّاه جيش الغيوم، وتقدمتْ، مع دقات قلبي، وبخطى متزنة كأنّها الريم في جمال مسيره، وقد أشرقت ابتسامة بريئة على نور وجهها، وعلى شفتين قرمزيتين أبدع الخالق في تكوينهما، وقد ظهرت أسنانها اللؤلؤية المصفوفة بانتظام، جلّت عظمة الخالق، للّه ما أبدعها! وتأمّلت شعاع عينيها الذابلتين المفعمتين عذوبةً وإغراءً. ولم تتكلّم حبيبتي بل ترقرقت على وجنتيها دمعتان، «ونزلو» على قلبي نزول الصاعقة. دمعتان تدحرجتا كالذهب على الفضة الصافية. فسألتها وفي صوتي تهدُّج ورجفة: «ما بال حبيبتي تبكي فيبكي فؤادي؟»».

لدهشتي وجدتني أفهم معنى كل كلمة. أغالب دموعي، فهل من المعقول أنّي شخص بمثل هذه الأهمية، حتى راح محمد يشعر

بهذه الأحاسيس ويكتبها على الورق؟ هناك من يلاحظ أسناني المصفوفة، وابتساماتي، وعينيّ الذابلتين. إذًا هو توأم الروح الذي أسمع المغنِّي يغنِّي له! ووجدتني أرضى أن ألقاه في غرفته في اليوم التالي بعد أن سرقت نفسي من نفسي.

أدخل من الباب الخارجي المفتوح بخفّة الريشة، وأخطو خطوات قليلة من الردهة الى جهة اليمين، حيث غرفته. وفهمت ما إن أصبحت في وسطها لماذا كان يصرّ، كل مرّة أقابله فيها، على أن نلتقي هنا. بدا حبّنا حقيقة، فإخوته في الغرف الأخرى، حيث طاولته وسريره وأوراقه وكتبه. أضمّ يدي إلى صدري، وأبقى واقفة، ولم أشأ الجلوس على سريره رغم أنَّ غرفته كانت فارغة إلاّ من سرير صغير، وخزانة قديمة بلا زخرف كخزائن بيتنا. يقترب منِّي ماسكًا يدي، فأكتفي بالنظر إليه. لم أشعر بأيّ دافع لأن أمسك يده، فأحساسي كان خارج غرفته. كنت أستمع إلى الهمسات تتعالى، ولا أسمع ما كان يقوله لي. تحين منِّي نظرة واحدة على شعره، فأرتمي على صدره، وهو يضمّني إليه بكلّ قوة، كما في الأفلام، وينادي اسمي: «كاملة، كاملة، كاملة»، وأجيبه: «محمد محمد محمد»، ثم يرفعني عن صدره ليرى عينيّ وهما تناديان اسمه. كم أحبّ اسمه! أرسل اللّه لي حبيبًا باسم النبي محمد، إذًا فهو يبارك حبِّي، ثم يغصّ داخلي بالضحك، فزوجي اسمه محمد أيضًا.

أخذت ألقاه كلّ يوم تقريبًا، فور عودته من عمله في «الأمن العام» أي حوالي الساعة الواحدة، وفي غياب كلّ من زوجي وشقيقي

العابس في عمليهما. نتناول وجبة الغداء معًا، من طعام يشتريه من المطعم، أو مما آتي به من بيتنا خلسةً. وما إن ننتهي حتى أبدأ بالغناء، وأتغنَّج، وأسأله عن مقدار حبه لي. يستجيب لي، ومع ذلك يحثُّني على تنظيف الطاولة، كي لا أترك أثرًا يدلّ على أنّي كنت في غرفته. طلبه هذا يشعرني بالضيق، فأجيبه بأنِّي أضحِّي بسمعتي، وأشقّ خطّ النار من أجل أن القاه، بينما أراه خائفًا من أن يكتشف أهله حالتنا؟ ولم يكن هذا السبب الوحيد لضيقي، بل الحقيقة أنَّه لم يكن يهمُّني أن يكون ما حولي مرتَّبًا أو نظيفًا. لم أكن أرى البطلة ترفع الأطباق عن طاولة الطعام، ولا أسمع حبيبها يطلب إليها هذا. أراها ترفرف وتغنِّي وتلاعبه، وهو يحدجها بالنظرات الولهى.

أتعلَّق بغرفته الصغيرة. لا أريد أن أكون في أيّ مكان آخر. فهي بالنسبة إليّ كصالة السينما، بعيدة عن ضجيج بيتنا وأصوات الكبار والصغار والرضّع، بعيدة عن أحاديث الزيت العكر في الخابية، والسوس في كيس الأرز، والكلام عن الفتور بين زوجي وشقيقي العابس.

يقترب منِّي ويقبِّلني. فأفتح عيني وأراه مغمض العينين، فأستسلم لقبلته، ثم يضمُّني إليه محاولاً ملامسة نهديّ فأحميهما بيدي. ويروح يقنع نفسه أنَّ الحب العذري أشدّ وأقوى، وأنَّه علينا الاكتفاء بالقبل. أرتاح فجأةً، وأترك له شفتي لتفارق يدي صدري. ولم أكن قد أخبرته أنَّ يوم دخلتي قد جعلني لا أحب النظر إلى

جسمي، وأنّي مع حبّي الشديد لمولودتي فاطمة، ما زلت لا أصدّق أنّي حملت بها رغم آلام الوضع التي كلّما تذكّرتها شعرت وكأنّ أحداً يمسكني بشرايين رأسي. لكن نجد أنفسنا مرّةً نلتحم معًا غير آبهة بقراره، أو بخوفي...

كان قد غادر بيروت بحكم وظيفته لمدة أسابيع، وأرسل لي مع شقيقته هذه الرسالة التي قرأتها لي صديقتي البيروتية:

«كلّما ازداد بعدنا، أصبحت حياتي كالصحراء القاحلة. قبل يومين كنّا نعيش بالقرب من بعضنا بعضًا، نكاد لا نفترق والآن أنت بعيدة عنّي فماذا تفعلين؟ بدأت أعدّ الدقائق التي تفصلني عنك ما مضى منها، وما بقي».

أهرع وآتي بورقة أنزعها من دفتر ابن شقيقي، وأرسم بقلم الكوبيا عصفوراً يقف على زهرتين ويشمّ زهرة، وأرسم ورقات الزهرة على شكل قلوب، ثم شمسًا وقمراً، ثم أرسم عشًا لعصفورين. أحتفظ بردّي هذا على رسالته لأسلّمها له عند عودته، وأشرح له أنّه الشمس التي تشرق وتغرب، وأنا القمر. وأما العشّ فهو غرفته، ونحن العصفوران. يقبّلني بعنف، ويحدث ما لم يكن في الحسبان: نطير، نحلّق، وعندما نعود نحطّ بقلبينا وجسمينا في الغرفة، ونأخذ بالبكاء. نبكي لأنّي تركت رجلاً غيره ينام فوقي ويخترق عذريّتي، ونبكي لأنّ (محمد) الشهم ذا الأخلاق الرفيعة يطارح امرأة متزوّجة الحب. نبكي لأنّي أخون زوجي. يتعالى نحيبي لأنّي لن أجرؤ على

العـودة إلى البـيـت، لأنّي إذا رأيت زوجي يتناول طعـامـه وهو يكبّ فوق الصحن حتى لا يتناثر فتات الخبز على الطاولة أو في الصحن، سأصيح به كي يطلّقني، وإذا ناداني وهو يفتح الصندوق الأسود، ويمدّ يده بالتمر أو قطعة من الحلوى، سأصيح به كي يطلّقني، وإذا ما رأيت شقيقي العابس سأصيح به: «ليش، شو عملتلك حتى تعذّبني كلّ هذا العذاب؟». وإذا رأيت أمي تهزّ رأسها غير راضية عن روحاتي وغدواتي سأصيح بها: «ليش افتريتِ عليّ، مش أنا من لحمك ودمك، يعني جوزّتيني لجوز شقيقتي مشان ما يتعذب أولادها بتقومي بتعذبيني؟ كنت خيفانة تجيء واحدة غريبة تستمتع بمصرياتو؟».

أخذ محمد يهدّئني ويحضنني، ينفخ على وجهي وكأنّه ينفخ على جرحي العميق. فجأة، أدركت ما فعلته، فدبّ فيّ الخوف الشديد وأنا أفكّر بأنّي سأحمل بجنين محمد، وسيعرف الجميع بأمر علاقتي به وهم يرون مولودي بشعر مالس كشعر محمد، بدلاً من شعري وشعر زوجي الأجعد، وبعينين عسليتين مائلتين إلى الاخضراء كعيني محمد بدلاً من عيني وعيني زوجي ذوات اللون البنيّ. في ذلك المساء ما إن خلد زوجي إلى النوم حتى أجدني أمثّل بأنّي أحلم، فأندسّ في فراشه، وأميل ناحيته. لم يصدّق زوجي حظّه، يلتصق بي للحظات، وعندما لم أولول، ضاجعني وأنا أعضّ زندي، أحاول تهدئة نفسي، فلا بأس إن تعذّبت دقائق في سبيل مولودي... وإلاّ أين أخبّئ وجهي إذا أنجبتُ مولودي وهو يشبه حبيبي (محمد)؟

«بتبكي مشان تروحي عالسينما وبترجعي من السينما عم تبكي»

أخرج من فيلم «دموع الحب» وكلِّي لوعة على موت البطلة «نوال». الغضب يعتمل في قلبي من حبيبها الذي سامحها بعد أن عادت إليه حين وفاة زوجها تسأله: «سامحني، سامحني. اِقبل خضوعي وسامحني». فيجيبها محمد عبد الوهاب «سامحتك سامحتك»، ثم يتّهمها بالنفاق وبالخداع عندما تقول له: «أنت حياتي وما ليش حياة من غيرك». الجملة نفسها التي ردَّدتها البطلة لزوجها في ليلة زواجها، ويطردها عبد الوهاب، فتهرب لترمي نفسها في الترعة.

أبكي وكأنَّ ينبوعًا من الماء أخذ يفيض ويغطِّي وجهي.

الأفلام تحاورني من جديد، إنَّها تعكس حياتي. أنا مثل نوال تزوَّجت كما فرضت عليَّ الظروف، وها أنا مثلها أجد الحب، لكن يديّ مكبَّلتان، خلف ظهري، بزواجي، وبطفلتي، وبالجنين الذي في بطني.

أمرّ أمام محل المصوِّر «نرسيس»، وأدخله وأبادر المصوِّر: «بدي أتصوَّر». يسرع عارضًا عليّ الركوب في طائرة، أو الجلوس على هلال خشبيّ صبغ باللون الأبيض، أو الوقوف قرب طاولةٍ زُيِّنت بباقة من الزهور، وهناك يريدني أن أقطف وردة، وأن أدنيها من أنفي. أرفض كلّ اقتراحاته، وأفهمه أنِّي أريد أن يأخذ لي صورة لوجهي فقط، وأنا أحكم الغطاء الأسود حول وجهي، تمامًا كما فعلت نوال عندما ذهبت إلى بيت حبيبها ليعود إليها بعد رجوعها من باريس، وعقب انتحار زوجها المقامر، زير النساء الذي قامر بكلّ شيء حتى بمجوهراتها التي كان قد أغدقها عليها عندما تزوّجا، ولم يجدّ بدًّا من إنهاء حياته في باريس عندما خسر آخر قرش في جيبه.

يسألني المصوِّر وهو يحضِّر آلة التصوير بلهجته الأرمنيَّة الظريفة: «ليش زعلانة بابا؟»، فأجيبه أنِّي كنت أحضر فيلم «دموع الحب»، والبطلة ماتت وأنا في حداد عليها. يضحك ويقول: «هيدا فيلم بابا، شو إنت بتصدّق الأفلام؟». أحاول أن أفسِّر له ما قاست نوال، لكنَّه ما زال يطلب إليَّ أن أضحك: «يللا بابا إضحك شوي مشان الصورة، إبتسم شوي، هيدا فيلم تجارة»، أنتفض غاضبة: «ولو

يللي بغني على قبر حبيبته: «أيُّها الراقدون تحت التراب، جئت أبكي على هوى الأحباب، يا غيوم، يا نجوم، إنّي على حبّي أمين! بكون عم يفكّر بالتجارة؟». يجيبني وهو يخفي وجهه خلف آلة التصوير: «كلّو تجارة»، ثم يهتف فجأة: «أنت موناليسا بابا. لوحة موناليسا، موناليسا حتى إذا كنت بالأوده الثانية بتلحقك بعيونها!».

ولم أفهم ما يقول لي، فأنا أصبحت «نوال»، إنّي أشبهها، كأنّي أتحدّث مثلها، أنا هي! لقد ماتت وقاست وأنا أقاسي كل لحظة. فكرة العودة إلى البيت تعذّبني، أشعر كلّما دخلته أنّي متّهمة بارتكاب جريمة قتل. يأخذ لي المصوّر عدة «بوزات»، وكأنّه اقتنع أخيراً بألاّ يصوّرني وأنا في الطائرة، أو في القطار، أو قرب الوردة. ولم تعد تهمّه ابتسامتي أو الضحكة ليرى أسناني كما حثّني في البداية: «بابا أنت مثل موناليسا، أنت من بيروت؟»، أجيبه بأنّي من النبطية، فيقول: «يا لطيف موناليسا من النبطية مش من أيطاليا...». ثم يطري شجاعتي وجرأتي: «أنت أول ست يفوت عالأستديو من غير الماما والبابا». أفكّر بيني وبين نفسي: «طبعًا لأنّها ستنفرد بالمصوّر، وهو يميل رأسها إلى هذه الجهة أو تلك، وحين تسرّح شعرها، أو تضع أحمر الشفاه، أو الكحل الأسود...» وإذا بي أفتح قلبي له: «الصورة ممنوعة في البيت... عشان هيك بدي أنتقم وأتصوّر». أرفع الغطاء عن رأسي، وأطلب إليه أن يأخذ لي صورة من غير «الفيشة السوداء». عندئذٍ يُصْدر صفيراً كالعصفور ويقول: «أنت صرت صغير كثير، أنت بكره لما تكبر بدّك تتجوّز فوق فوق»، ويرفع يده

إلى أعلى. أبكي، وأقصّ عليه قصة حياتي وظلم أهلي لي: «بدّي إخلص من حياتي مثل نوال...» لكنّ المصوّر يقاطعني: «لا لا شو بدّو أنت بنوال، نوال مجنون، انتحر بدل ما يفرك خاتم الفضة، نوال مثل خاتم فضة صار أسود، لازم يفركو، يللا بابا أنت أفرك خاتم الفضة، وأنت ما بتشوف غير خاتم الماز. يللا بابا، يللا روح عالبيت وأفرك الخاتم».

أعود إلى البيت، وكلي تمنٍ، لو أرى (محمد) في تلك اللحظة حتى يخفّف عنّي، وكأنّ سيري إلى البيت وحيدةً جعلني أفهم سرّ حزني وعذابي. نوال انتحرت لأنّها لم تطق العيش من دون حبيبها، وها أنا أرى الحقيقة وهي أنّني لا أطيق العيش من دون محمد.

أدخل البيت، أقصّ الفيلم على زوجة شقيقي وأمي وابنة شقيقتي، وأنا أشهق وأبكي. تعلّي أمي: «بتبكي مشان تروحي عالسينما، وبترجعي من السينما عم تبكي... وأنت حاطة فوقك وتحتك... مش أحسن تضلّي بالبيت؟».

أبكي. لماذا انتحرت نوال؟ لماذا لم تتوسّل إلى حبيبها، لماذا لم تقم الدنيا وتُقْعدها؟ وأعد نفسي أن أظلّ قوية، أن أفرك الخاتم من غير أن يصيبني اليأس وأنا أرى البقع السوداء... تغطّيه.

«هودج الجمل»

ظننت أنِّي أعيش مع محمد، كأنَّ بيتنا وبيته واحد، تفصلهما الأبنية الأخرى والدكاكين والسيارات والمارة. آتي بغسيله إلى بيتنا، فنغسله خفيةً أنا وابنة شقيقتي الملاك، كاتمة أسراري، ثم تقوم بكيّه حتى أعيده إلى خزانة محمد في اليوم التالي.

أتعامل وهذه الغرفة الصغيرة وكأنَّها خاصتي، كأنِّي لا أدخلها بمشقّة أو برهبة، حابسةً أنفاسي أمام الجيران، حتى أمام حجارة الأبنية خوفًا أن تفهم ما بيني وبين محمد، وتُفشي لي سرِّي. وكنت قد وجدت طرائق كثيرة تمكِّنني من دخول غرفته التي تطلّ على الزاروب، ومدخل البناية. أنقر على زجاج نافذته، أو أضع حفنة من الرمل على حافتها، أو عود ثقاب. آتي بابنة الجيران أسألها أن تفتح النافذة وترمي وردة، موهمةً إيَّاها أنَّ الشاب داخل الغرفة رآها مرّةً،

وهو متيّم بحبها، ونتلطّى معًا في أول المدخل، لربما كان في غرفته ينتظرني بدلاً من أن يذهب إلى عمله.

أتذرّع بزيارة أخته، وأستحلفها ألا تودعني حتى الباب، وبدلاً من المغادرة انسلّ إلى غرفته، أردّ بابها على أنّه باب مدخل البيت. كان يتركني أحيانًا في غرفته إذا كان عليه أن يغادر لساعة بحكم وظيفته، فيوصد باب غرفته بالمفتاح بعد أن يضع لي تنكة حتى أبوِّل فيها، ثم يدلقها خفية في المرحاض بعد مغادرتي.

وحدث مرّة أن شعرت بقضاء حاجتي الكبيرة رغم محاولتي الانتظار ريثما أعود إلى البيت فلم أجد بدًّا من الإتيان بجريدة وأوراق، ربما تكون مهمة، ألملمها من هنا وهناك، أقرفص فوقها وأنا أغمض عيني، مقنعةً نفسي أنّي في الحاكورة في الجنوب. ولكن اقتناعي لنفسي يأخذ وقتًا طويلاً. وما إن أنتهي حتى أُحكم لفّ الجريدة والأوراق قبل أن أضعها في كيس من ورق، وأفتح النافذة، أترقّب خلو الزاروب من المارة قبل أن أرميه. أردّ الشبّاك الخشبيّ تاركةً فتحة صغيرة أتلصّص منها على الكيس وما سيحدث له. وإذا بابن دكتور يسكن في البناية نفسها يراه، فيأخذ بالالتفات حوله قبل أن يعاين الكيس ويفتحه، ثم يروح يشتم ويلعن وهو يرميه ملتفتًا حوله، سادًا أذنيه كي يسمع صهصهة من دبّر له مقلبًا، ثم يزيد من شتائمه وهو يلتفت إلى جانبيه، وإلى أعلى. يخبط قلبي بعنف لفكرة مرت ببالي، لربما رآني أحد وأنا أفتح النافذة وأرمي بالكيس.

أخاف من الفضيحة، تصيبني الرعشة، وكأنَّ نفسي تفارقني وتطلّ عليّ من بعد وتهزّني، تذكّرني بأنّي متزوّجة، وبأنَّ بيتي ليس هذه الغرفة، بل حيث زوجي وابنتي وشقيقي العابس، حيث أمي، حيث الأقرباء والزائرون وصبيان زوجي. أعلو بنظري إلى السقف، وأبتهل إلى اللّه أن ينقذني هذه المرة، وأعده بأنّي لن أطأ أرض هذه الغرفة بعد الآن مهما كان.

لكن ما إن يدبّ اليأس بابن الدكتور، ويستأنف سيره، حتى أجدني لا أنتعل حذائي وأغادر، بل أدور بنظري في الغرفة وأنا أتخيّلها كهودج الجمل الذي رأيته في الفيلم، وهو يحمي النساء من عواصف الرمل. أجلس وأنتظر (محمد) وكأنّي مريضة لا أقوى على السير إلاّ إذا أتى لي الطبيب بالدواء .

وكان محمد فعلاً هو الطبيب، دواؤه سماعتاه، بواسطتهما يسمع حتى وشوشة افكاري وهي في طور التكوين، ولم يكن يصرفها عنه، بل يفكّر ويتفاعل معها. كنت أعني له في كل صغيرة وكبيرة، يأتيني رغم قلّة نقوده، بشتّى المأكولات وأغلاها ثمنًا، بكلّ ما هو لذيذ الطعم والمذاق، كالفستق الحلبي، والفرّوج المحمّر، والبسترما الأصلية كالهليون، فأخبّئها تحت السرير في البيت، وأسحبها بعد أن يغطّ جميع من في البيت في النوم، أتلذّذ بأكلها، في الظلام أنا وابنة شقيقتي الملاك، نعود إلى النوم وأنا أفكّر أنَّ (محمد) فعلاً يحبّني. إنّه يوفّر النقود، ويحرم نفسه من هذه

الأطايب لأستمتعَ بها. ثم أؤنِّب نفسي لشراهتي، وأحاول أن أفكِّر بأنَّ حبيبي في غاية الكرم. فالكريم هو صاحب النفس المفتوحة، إذا فتحها المرء على الطعام فهو يفتحها على أشياء كثيرة مهمة.

أقول له إنَّ غرفته «كهودج الجمل» فيسرّ لتشبيهي هذا، ويهزّ رأسه أسفًا لأنِّي غير متعلِّمة، ويعدني بأن يعلِّمني القراءة والكتابة بأسرع فرصة ما إن يستقرّ في عمله لأنَّه كان يودّ أن يترقَّى في وظيفته.

نجلس معًا، نتسلّى، يقرأ لي الرسائل التي كانت تصله من الخارج، ومن بلدته، ولم أكن أصدِّق ما كانوا يكتبون، لا لأنَّ أصحاب الرسائل كانوا يأتون على ذكر أشياء تستحقّ الإشارة إليها، بل لشعورهم المرهف. كانوا يستخدمون كلمات مثل الورد الجوري، والياسمين، والتفاح الشامي، وينهون رسائلهم بـ: «عليكم منِّي سلام مع زقزقة العصافير، مع هدير الموج، مع هديل الحمام، مع خرير المياه، مع حفيف الورق، مع نفح الشذى، مع سطوع السنا». وكانوا يستخدمون هذه العبارات: «أرجو أن تهدي سلامي وأشواقي الحارة إلى السيد محمد. وقل له إنَّ شوقي إليه يكاد يقطع كبدي، ويقطع شرايين قلبي، قل له أن لا يؤاخذني على نسياني إجابة تحريره، وأرجو أن يصفح عنِّي لأنَّ الصفح من شيم الكرام». ثم يكتب له أحدهم عن أيام بيروت، فأسأل (محمد) عن الفراغ بين الجمل ولماذا الكتابة ليست من أول السطر إلى آخره. أسأله هل لأنَّ الذي يلقيها ينبغي

عليه أن يتوقّف بين جملة وأخرى؟ ويشرح لي محمد ما يسمّى بشعر الزجل...

«أيام بيروت هنا قضيتها، وبلغت منها في الهوى أوطاري

أصبحت لا أحب بيروت إلا أنا أنتم وكفى..»

ثم يقرأ لي رسالة أخيه التي تتحدَّث عن فلان كسر ساقه فيأتي المجبِّر العربي ويجبرها له، وهكذا أصبحت أفضل من ساقه الصحيحة؟؟

سرعان ما أصبح في حلقة أهله وأصدقائه من غير أن أدري. كم أحبّ كيف يتحدَّثون ويكتبون إلى بعضهم بعضاً، وأقابل بينهم وبين رجال عائلتي وأصدقائهم الذين كانوا يفتقرون إلى الخيال والحياة.

أسأل (محمد)، لماذا يختلف أهله وأصدقاؤه عن أهلي وأصدقائهم رغم أنَّ جميعنا ننحدر من الجنوب؟ يشرح لي أنَّ بلدتهم لم تكن بعيدة عن الساحل، عكس النبطية وما حولها من قرى في جبل عامل. وتصديقًا لكلامه أخذت أقلِّد حواراً جرى بين شاب جنوبي يسكن بيروت وامرأة جنوبية مثله تحثّه ليتزوَّج ابنتها، لكنَّ الشاب، يتمنَّع لأنَّ بيروت قاسية، والغلاء فيها يكوي كيًّا:

ـ شو قلت يا حسين ـ ـ ببتجوزهي ـ ـ وبتفتحوا بيت؟

ـ ما هي مشحرة أكثر منِّي...

ـ ولك سكوت هيدي معها «كار» مزراب دهب.

ـ ليش شو بتسوّي؟؟

ـ بتصمت كروش عصّور. (تنظِّف الكروش في منطقة السور)

تشجع النازح الجنوبي، وتقدَّم خاطبًا ابنة المرأة، وأخذها للتنزُّه يوم الأحد، وسألها وهما يمرَّان ببائع السوس والتمر الهندي:

ـ بتشربي سوس؟

هزت كتفيها رافضة وأصدرت هذه الكلمة.

ـ هيكي..

ـ بتشربي ليموناضة؟

ـ يا عيني عا الليموناضة!

ـ بتروحي عالسينما؟

ـ هيدي اللي فيه عبد الوهاب وأم الخشاخيش؟

وعندما خرجا من صالة السينما ومرّا بالدكاكين في ساحة البرج، سألها الشاب وقد لاحظ نظراتها النهمة إلى الواجهات:

ـ حلو هالفستان؟

ـ إنت أحلى...

ـ وها السرموجة؟

ـ إنت أحلى...

يضحك محمد ويقول: «بتعرفي لازم نمثّل أنا وإياك».

نتّفق بأن نلتقي في السينما لحضور فيلم «قيس وليلى»، وأكتشف بأنّ القصة حدثت بين ليلى وابن عمها قيس والذي من شدّة حبّه لها راح يصف جمالها، ويتغنّى بها بقصائد تناهت إلى مسامع القبيلة، فرفض والدها أن يزوّجها له، وأخذ يعمل للقضاء على حبّهما العذريّ، حتى فقد قيس عقله، وهام على وجهه في الصحاري يشكو حاله، ولا تسمعه إلاّ النجوم والرمال إلى أن مات وحيداً.

تأثّري بهذا الفيلم كان شديداً. رأيت نفسي ليلى ورأيت (محمد) كقيس، أما والدا ليلى فهما شقيقي العابس تارةً، وزوجي تارةً أخرى. وأخذت أبكي خصوصًا أنّ (محمد) يحيطني بذراعه ويشدّ كتفي، ويمسح لي دموعي، ثم يتأثّر هوالآخر ،ويكتب لي شعرًا بدلاً من أن يبكي.

«من قبلتك استنشقت رائحة قلبك

ومن شفاهك أتذوّق طعم نفسك

ومذاق العسل من حلاوتك

وعبير الأزهار من رائحتك...»

ونلتقي في فيلم آخر يدعى دنانير، بطولة «أم كلثوم» الفتاة البدويّة التي يسمع الوزير جعفر صوتها وهو عائد من سفر. ويعرض

عليها أن تأتي إلى قصره لتتعلّم الغناء على أصوله، فتفرح دنانير بهذه الفرصة التي تخوّلها أن تعيش بين الحضر. ويسمع الخليفة هارون الرشيد عن عذوبة صوت دنانير، فيطلب إلى وزيره جعفر أن يهبه دنانير لتصبح مغنيّة في قصره. لكنّ الوزير جعفر يرفض طلب الخليفة خصوصًا أنّ الحب بينه وبين دنانير بلغ ذروة زخمه وجماله.

وينتهي الفيلم بمقتل جعفر بعد أن حاك له المغرضون الدسائس. ويظنّ الخليفة أنّ دنانير سوف تنصاع إلى أوامره وتغنّي، لكنّها عاندته، ورفضت الغناء حتى عندما أمر بسجنها، عاد وأطلق سراحها، فتغنّي لحبيبها الوزير، وتعده بالحفاظ على عهدهما القديم حتى الموت.

تؤجّج مشاهد الحب بين دنانير وجعفر عاطفتي، وتحفر في نفسي اليأس. فها هو الفيلم الخامس الذي أراه والحب دائمًا مصيره الموت. الحبيبان يتعرّضان للموت والدمار، والعائلة تقف دائمًا ضدهما، والمجتمع يفضحهما.

أسرع في اليوم التالي لرؤية محمد، فيأخذ بيدي، ويقرأ لي ما كتبه عن الفيلم لأنّه لم ينم الليل أيضًا: «آه من مصرع البرامكة على يد هارون الرشيد!! واهًا لجعفر وفجيعته بدنانير، تلك المرأة التي سكب الوفاء في قلبها أصفى القطرات، فحفظت عهد حبيبها ـ جعفر ـ حيًا وميتًا. هكذا يكون الوفاء، والله والله أسأل أن يلمّ شملنا في الحياة والممات».

ثم ينظر في عينيَّ ويسألني هل سأكون وفيّة له كدنانير؟ ولا أعلم لماذا يسألني هذا السؤال، فهو حياتي. وإذا به يسألني من جديد إذا كنت أعرف الخيانة الزوجيَّة مع غيره، فأستغرب سؤاله هذا؟ أضحك لكنَّ داخلي يتساءل: «هل يعرف بأنَّ جارنا يتلصَّص عليّ؟».

أخرج في اليوم التالي من البيت قاصدة بيت محمد، فإذا بالوفود تسدّ مدخل زاروب بيتنا، وتسدّ الشارع أمام بيت رئيس الوزراء رياض الصلح الذي انتقل ليعيش في عمارة عند مطلع زاروبنا. وكانت التظاهرات قد عمّت بيروت، وسقط القتلى والجرحى إثر اعتقال رئيس الجمهورية بشارة الخوري، ورئيس الوزراء رياض الصلح، ووزراء آخرين في قلعة راشيا، بينما اعتصم رئيس المجلس النيابي صبري حمادة، والمير مجيد أرسلان، وسواهما في بشامون.

رحتُ أدفع الناس عنّي بقوة لأصل إلى بيت محمد، ولمّا لم أجده، أمسك قلبي خوفًا من أن يكون قد أُخذ مع بقيّة الحراس، إما إلى بشامون أو إلى راشيا. أعود راجعة وقد فقدت الأمل في رؤيته، فأسمع وقع خطواته، ويشير إليّ أن أتبعه إلى غرفته. ولا يهتمّ لتقبيلي، بل كان يصبّ كل حماسته على ما يجري في الشوارع والسياسة، يقول لي وهو يزيحني عنه إنّنا نشهد تاريخًا، نشهد استقلال لبنان... حكومة موقّتة في بشامون.

أبتـهل لـو يبـقى المتظـاهرون في الشـوارع حـتى إذا عـدت إلى البـيت متأخِّرة تذرَّعت بالأحداث. لكنَّ محمـد يودّ الاستـفسار عن أقاربه الذين كانوا يعـملون قرب بعثة الجنرال «سبيـرز» بعد أن سـمع أخباراً تتحدَّث عن سقوط جرجي. يودّ أن يذهب إلى «البـرج» ليرى ما يحدث هناك، عندئذٍ أفكِّر بأنَّه لا يحبني كما أحبُّه.

«حنان»

ولم يكن الغثيان الذي جعلني أرفض «الخصوصية» مع محمد بل خوفي من أن يزيد شبهُ الجنين بمحمد بدلاً من أن يكون نصفه شبيهًا بمحمد، والنصف الآخر شبيهًا بزوجي.

ولم أشأ إخباره بأنّي حامل بل تذرَّعت كل مرة بتوعُّك صحتي، أو بضيق الوقت، أو بأنّ هناك من يتنصَّت علينا، إلى أن طفح الكيل بمحمد ولم يعد يقوى على الصبر، فقال لي مازحًا إنَّ ابن المعتز لن يوافق على حججي هذه. وأسأله برعب من هو ابن المعتزّ، فيجيب ضاحكًا: شاعر من شعراء العرب يقول: «تمتع من حبيبك كل يوم فلا تدري البعاد متى يكون». وعند سماعي لهذا القول أشعر وكأنَّ يدي بُترت! كيف يستطيع محمد أن يتصوَّر بأنَّنا سنبتعد عن بعضنا بعضًا ذات يوم؟ يأخذ حبيبي بمواساتي، يقول لي

إنّي في النهاية لست له، ولن أكون له، فأنا متزوّجة، وعليه أن يعتاد هذا الواقع. تبريره هذا يفقدني صوابي، فأتخيَّل نفسي على مركب يأخذني إلى عرض البحر بعيداً عن الخوف والضيق، وعن نظرات شقيقي ورؤيتي لزوجي. يأخذني إلى حيث السعادة والأمان والجمال والتسلية، ثم يتأرجح المركب بي، فجأة، ويغرقني. يحاول محمد مراضاتي من جديد، فيضمّني مؤكِّداً «ولك بموت قبل ما أتركك»، وأخذ من جيبه ورقة، وراح يقرأ لي ما كتبه:

«أحب الطريق التي تسيرين عليها، والفراش الذي يحتويك. أحبّ المخدة والغطاء والبيت والسقف والجدران. ليتني هواء غير منظور أدخل عند الفجر من نوافذ منزلك لأداعب...

أحبّ القمر المنير لأنَّه يشبهك بنوره، أحبّ السماء الصافية لأنَّها كعينيك».

وقبلاتنا بعد هذا المشهد كانت في أشدّ ضراوتها، كمن يصالح أحدنا الآخر محاولاً إصلاح العلاقة التي لم تكن حتى الآن إلاّ سمنًا على عسل. يريد أن يداعبني من جديد وأنا أصدّه، وفجأةً يذهب إلى درج الطاولة، ويأتي بمسدسه، ويصوِّبه إلى رأسي، ثم يصوِّبه إلى رأسه. أبتسم له رغم رعبي، وأتحايل عليه طويلاً من غير جدوى، إلى أن أخبرته بأنِّي حامل، وبأنِّي خائفة من الفضيحة، إذ إنَّ هيئة المولود ستكون برهانًا يجعل شقيقي يقهقه سعيداً لأنَّ نظريَّته بأنِّي «لعوب» صحيحة، وأنَّ ظنونه بي هي في محلها. وبدلاً من أن

يتفهَّم محمد موقفي يرمي المسدس على الفراش، ويأخذ رأسه بين يديه ويبكي، بل يغرق في البكاء. ولم أهرع إليه، بل أمسك المسدس بكلّ هدوء، وأتسلَّل به خارج الغرفة، أخطو في الممر، ثم في المطبخ، وكأنِّي أعلن أمام الملأ بأنِّي من بني آدم، ولست جنيّة، ولست من نسج خيال سكان البيت. ولم أجد أحداً في الدار، بل رأيت أخاه الكبير في الحديقة، فمددت يدي بالمسدس من غير أن أحدِّثه بكلمة، فأخذه منِّي بدوره من غير أن يعلِّق، مكتفيًا بهزّ رأسه. أعود إلى الغرفة من جديد، أضمّ رأس محمد إليَّ، ونبكي معًا، وكلّ ظنِّي أنَّه يبكي لأنِّي سألد نصف مولوده في بيت زوجي. ويصيح بي فجأةً كيف تركت زوجك يضاجعك؟ أشرح له خوفي من أن ألد مولوداً يشبهه، فيزيد محمد من بكائه، فقد كان حريصاً كلّ الحرص على أن لا أحمل منه، وها أنا قد أقدمت على خيانته مع زوجي.

تأخذني إبنة شقيقتي إلى المستشفى عندما تداهمني آلام المخاض، وإذا بطبيب التوليد نفسه يهتف ما إن يراني: «بتعرفي أنا دايمًا بتذكّرك، عطيت محاضرة مرّة، وجبت السيرة أنّي ولّدت بنت عمرها ١٤ سنة...». وكان هذا الطبيب من المرموقين، بل من أشهر أطباء التوليد في لبنان، وقد نشر كما قال لي محمد بعض الكتب عن التوليد والأمومة. يعلِّق الطبيب مبتسمًا وهو يسحب طفلتي الثانية: «إجتك بنت عظيم، بركي بفكِّر زوجك إنّو ما بتجيبي إلاّ البنات وبيعيفك»! ثم يسألني: «شو بدِّك تسمِّيها»؟ أجيبه: «جوزي بالحجّ، وقال إذا جبت صبي لازم سمِّيه مصطفى، وإذا بنت

زينب. بس أنا مع أنِّي بحبّ ستنا زينب، بس ما بدّي سمِّيها أي إسم ديني، بكفي جبرني سمّي بنتي البكر فاطمة... اللّه يخليها حلوة مثل القمر. بدّي سمِّيها: «سَلاَفا أو زُلْفا» يضحك الطبيب مصحِّحًا لفظي: «سُلافة مش سَلاَفا، هيدا اسم، وزَلْفا مش زُلْفا، هيدا إسم ثاني، ومعناها الست الحلوة اللي منخارها صغير... بس اسمعي منّي سمِّيها باسم بتعرفي تلفظيه». ألمس كل الحنان من هذا الطبيب، وأسأله إذا كان باستطاعتي الذهاب إلى السينما في الغد حيث أغيب لساعتين فقط، لأنَّه إذا عدتُ إلى البيت فلن يدعني أهلي أفارق سريري لمدة أربعين يومًا كالعادة، فيفوتني فيلم «حنان». وإذا بالطبيب يضحك عاليًا ويقول: «حنان... يللا سمِّي بنتك حنان... إسم حلو».. أهتف بدوري: «واللّه إسم حنان بجنِّن»، وعزمت على تسمية مولودتي «حنان».

ولم يسمح لي بترك سريري في المستشفى والذهاب لحضور الفيلم، ولكنَّه لم يرفض فكرة الذهاب، بل تركني في حيرة من أمري رغم أنَّه أخبر الممرضات بحديثي معه، فطفقنَ يمازحنني خصوصًا عندما أخبرتهنَّ أنِّي أودُّ استخراج هوية لابنتي بأسرع وقت حتى أضع زوجي تحت الأمر الواقع، فيرضى بتسميتي لها. وعندما قلنَ لي إنَّه ربما اعترض، واستخرج لمولودتي هوية أخرى، بالاسم الذي يودّه، أكّدت لهنَّ أنَّ بخله لن يدعه يدفع مرتين. وشعرت كم أنَّني محبوبة في جناح المولِّدات إذ كنتُ أصغرهنَّ سنًّا، وكنَّا حوالى عشر نساء.

وكنت ألعب الألاعيب على الممرضات والمولِّدات، فأبدِّل مولودتي بمولود ذكر حين تدخل أمه إلى المرحاض، ولا تنتبه إلى فعلتي هذه إلاَّ بعد أن تبدأ في تخفيضه، فتكتشف الحقيقة. تصيح المرأة وتبكي كالمجنونة وهي تبحث عن طفلها إلى أن تجده معي، وبدلاً من أن أسلِّمه لها أتمادى في مزاحي، وأنا أضمّ الصبيّ إلى صدري، أتظاهر بإرضاعه.

تصلني باقة من الورد تحملها إليَّ الممرضة وهي تقول إنَّها من قريب لي يتَّصل بي كل يوم، ويستفسر عن صحتي. أغمض عيني وأنا أضمّ الباقة إلى قلبي. لم يحمل لي زائر وردة واحدة، ثم فطنتُ أنَّه لم يزرني أحد ما عدا ابنة شقيقتي الملاك.

ولم أمكث في السرير مدّة أربعين يومًا كما هو مفروض، بل خرجت من البيت بعد أسبوع أكلت فيها الدجاج والمغلي والشوكولا، وخصوصًا البقلاوة التي أرسلها لي محمد، واستلمتها ابنة شقيقتي، وخبّأتها تحت السرير كالعادة. أشعر وكأنِّي أزداد قوة وتحديًا بمولودتي الثانية. أصيح متحدِّية عبارات الاستهجان والاستنكار والنصائح التي انهالت عليّ، ووعدت نفسي بالخروج حتى انفجرت يومًا وقلت إنَّ صدري قد ضاق من كثرة آلام الولادة، وإنِّي بحاجة للذهاب إلى أحد الاستقبالات. أذهب وألاقي (محمد)، ونحضر معًا فيلم «حَنان»، أجلس في السينما إلى جانب محمد أبتهل إلى اللّه ألاَّ يدفق عليّ الحليب، لكنّ تأثُّري حين قبَّل

محمد يدي قائلاً: «الحمد للّه عاسلامتك!» جعل الحليب يطفح من ثديّي. وما إن ابتدأ الفيلم حتى أشار إلى الشاشة ليلفت نظري إلى كلمة «حنان» مؤكّداً أنّ الاسم في غاية الجمال، ذو معان كثيرة، ثم أجهش بالبكاء.

ولم يعد زوجي مع موكب الحج، فهو أراد أن يزيد من صلواته هناك ويشبع من تقبيل تراب مكة المكرّمة، وينام حول الكعبة الشريفة، ويلامس بيده قبر الرسول الأعظم، ويزور المدينة المنوّرة زيادةً عن بقية الحجاج.

وما إن عاد بعد شهرين من غير سابق علم أو خبر، حتى أسرع واضعة مولودتي حنان إلى جانب ابنة شقيقي العابس التي وضعت في غيابه أيضًا، ثم أسأله: أي الاثنتين ابنته؟ فيشير لي إليها بسرعة. أظهر له كل لطفي وابتساماتي خوفًا من أن يعود ويبدِّل اسمها، وأبدي احترامي له لأنَّه أصبح حاجًّا. وأنتظر أن يمنحني كل ما طلبت أن يأتي لي به من الحجّ، كالأقمشة وحصوص الفيروز والذهب، وهو ما يفعله معظم الحجّاج العائدين من الزيارة. لكنَّه يقدِّم لي ماء زمزم المبارك، سجّادات من تراب جبل عرفات، مسبحة من خرز أسود، ولا أبالي بهذا كلّه، بل أهجم على رزمة ملفوفة، أمزِّق رزمتها بأسناني من شدّة هياجي وسعادتي، فاذا بي أمسك قماشًا أبيض خشن الملمس، فأعرف أنَّه كفن مطهّر.

«شرّ البليّة ما يضحك»

نطلق على زوجي لقب الحاج، وأقول بتدليعه ومناداته «بالحجْحوج».

يضحك الجميع على تسميتي هذه، فهو قد عاد أشدّ تديُّنًا وتعبُّدًا رغم أنَّه كان يعيش حياة تقوى وصلاح قبل أن يحجّ إلى بيت اللّه الحرام. أصبح ينادي للصلاة بأعلى صوت كالذي يدبّ الصوت في القرى معلنًا عن أخبار المآتم والأعراس. يحثّ الصغار والكبار على الوضوء والصلاة، ويحثّ النساء، من ابنتي شقيقتي وبنات شقيقي إلى الجارات، على تغطية رؤوسهن.

يمنح أخي كامل الليرات، كي يصلّي، وما إن يتوقف أخي عن الصلاة حتى يتوقّف زوجي عن منحه المال. رغم احتجاج أخي: «طيّب صلّيت كفاية شو بدّي صلّي كل حياتي؟»

نسمعه يتلو الشهادة لعلّ المنية تأتيه وهو نائم. يحثّ سكان البيت على تلاوتها أيضًا. يكبّ على مصلاته طويلاً، فيضيق صدري، لأنّي لا أستطيع التحرُّك في الغرفة كما أشاء، ولا يستطيع أن يجيبني عن أسئلتي، مع أنّي كنت أمضي في سؤالي عن أمر ما، ولا أتوقّف عن ترديد السؤال إلاّ عندما أراه يهزّ رأسه موافقًا أو معارضًا. ولا أدري لماذا كنت أشتهي إضحاكه وهو يربض أمام اللّه كالحمل الوديع، وأقول في سري: «بدّي خلّي أبو الهول يضحك غصب عنو». فأشبك بالدبابيس ذيلاً طويلاً من القماش في بنطلون بيجامته الخلفي ليتدلّى الذيل كلّما نهض، وكلّما انحنى وركع. أضحك عاليًا وألمّ سكان البيت على ضحكتي، فتشير ابنتي إلى ذيل والدها، ويقهقه الجميع كلّما مضى زوجي في صلاته، وكأنّه لا يرى ولا يسمع ما يحدث حوله.

وكان بيتنا ومازال يضجّ بالزائرين والزائرات. يغادرنا أخي كامل بعد أن وجد رزمة من المال كانت مخبّأة بين الصناديق الفارغة المعدّة للرمي في مخزن زوجي، فسلّمها إليه. وبدلاً من أن يعتري زوجي الشك بشريكه، ويفتح تحقيقًا بالمال المخبّأ إذا به يردّ إليه المال. ويغمغم الشريك وينهي الموضوع بسرعة.

وأنا أضجّ مع ضجيج البيت وسكانه، أُضيّع نفسي عن قصد بين الزحام حتى أوفّق بين مسؤولياتي تجاه ابنتيّ وبين محمد، وكنت رغم إهمالي البيت، وقضائي عدة ساعات مع محمد، أجدني دائمًا

حاضرة عندما تحتاج إليّ ابنتاي. تلامس ابنتي الكبرى التيار الكهربائي الممتدّ على البلاط المبلول في المطبخ، فأشدّها من يدها وشعرها إلى مكان آمن.

تدخل إبرة خياطة صدر ابنتي الصغرى، فأسرع بها إلى الطبيب. وكان شقيقي العابس قد ازداد عبوساً، ولم يكن يضحك مع بقية أفراد البيت، حتى عندما عادت خالتي ذات الحيّة في البطن من عند طبيب العيون، ورفضت أن تفكّ الكيس المعلّق في رقبتها حيث تودع نقودها القليلة لتدفع أجرة الكشف، وتبادر الطبيب قائلة: «ليش شو عملت يا روحي، غير أنّك طلّعت بعيوني؟».

وعندما قالت لطبيب الصحة: «ولو بدك تأخذ مصاري لأنّك طلعتني عالقبّان؟».

عبوس شقيقي العابس يخيفني، لا بدّ أنّي السبب. لذلك ما إن سمعت أنّ جارتنا الخجولة ـ التي كانت تعيش وحيدة في غرفة مطلّة على الجنينة، وتشارك جيراننا المطبخ والحمام ـ قد أعجبت بشقيقي العابس، وأخذت تحوم حوله حتى رحتُ أبارك هذا الإعجاب رغم حبّي لزوجته. أردته أن ينشغل بنفسه، ولا ينتبه إلى خططي أو إلى كوني عاشقة.

كنّا نطلق عليها لقب الست... ربما لاعتقادنا أنّها ما تزال عازبة وعذراء، ثم بدّلناه باسم «أودتين ودار ومطبخ» منذ أن أخذ يتردّد شقيقي العابس على الست... وتخبره المرأة أنّها تملك شقة في

بيروت مكوّنة من «أودتين ودار ومطبخ». أتلصّص عليهما إذ لم أكن أتخيَّل أنَّ شقيقي العابس يلمّ بطرائق التودُّد والمغازلة، لذلك تصوَّرت أنَّ علاقتهما لا تتعدَّى السلام والكلام، والجلوس جنبًا إلى جنب على الكنبة. لكنَّ هذه العلاقة تنتهي ذات يوم ما إن تدقّ زوجة شقيقي العابس الباب عليهما، وتقول الست: «قوليلو العشا حاضر إذا هو جوعان». وكانت الست... قد فاتحت زوجة شقيقي بأنَّ زوجها يتردَّد عليها، وهي لا تمانع من أن تكون الزوجة الثانية، ثم تعرف من الست... أنّ أمي كانت تعرف بهذه العلاقة وقد باركتها.

يعود شقيقي إلى البيت ليأكل طعام العشاء، وزوجته الحامل بطفلها الرابع لا تفتح موضوع الست... له. بل تمضي بشؤونها المنزلية كالعادة.

كانت الست... تعمل في مزرعة أحد الأثرياء البيروتيين الذي اشترى مساحات واسعة من الأراضي في البقاع. وكان يزور مزرعته من وقت إلى آخر حيث يرى الست... فتروقه وتحمل منه، وتضع مولودًا بمساعدة القابلة القانونيَّة التي تلفّ المولود الزاعق في المنشفة، وتتوارى به، ثم تعود باكيةً نائحةً وهي تخبر الست... أنَّ مولودها فارق الحياة. تصدِّق الست... وتؤمن أنَّ اللّه قد أشفق عليها وعلى وليدها وأنهى حياته. ومع ذلك تعود الست... وتحمل من الثري مرة أخرى، خاصة أنَّه كان بهيَّ الطلعة، راقيًا، لبق اللسان. وتضع مولودها الثاني، صبيًّا آخر، فتلفّه القابلة القانونيَّة بالمنشفة، وتعود

باكية تبثّ خبر وفاته إلى أمه، وهي تردّد هذه الجملة: «اللّه يعلم ليش صبيانك عم يموتوا...». ثم تدخل عليها زوجة شقيق الثري وتسأل الست... أن تعدّ نفسها لمغادرة المزرعة نهائيًّا، والذهاب إلى بيروت، إذ تمَّ شراء شقة لها مؤلَّفة من «أودتين ودار ومطبخ». لكنَّ الست... آثرت أن تؤجِّر ملكها، وتستأجر غرفة صغيرة، وتصبح جارتنا. وتمرّ السنوات وتنضج الست... وتأخذ بالبحث عن ولديها بعد أن أخبرها حدسها أنَّهما لم يموتا، كما قيل لها، بل خطفا منها تجنُّبًا للفضيحة.

أكتشف أنَّ شقيقي العابس زاد من عبوسه ما إن عرف أنَّ شقيقه عاشق العود قد تزوَّج زوجة أخرى بعد أن طلب إليه صديقه أن «« يُجَحِّشْ» مطلَّقته، حسب الشرع، حتى يتمكَّن من الزواج بها للمرة الثالثة. لكنَّ شقيقي عاشق العود يعشقها، ويتزوَّجها، غير مبالٍ بغضب صديقه.

«شجرة الجوز تعرف كل شيء»

ما زلت أهرب من بيتنا كل يوم وألقى محمد في غرفته، هودج الجمل، كأنّي برؤيته أتأكّد من أنّ الحياة جميلة، وأريد أن أحياها معه. حياة كلُّها غناء وموسيقى وكلمات شعريَّة ولمسات على وجهي وجسمي. أفكِّر في طرق جهنميَّة من أجل أن ألقاه في الليل، فأتمنَّى لو أنَّه يمثِّل، فيقوم بدور «المسحِّر» الذي يطوف المنازل في شهر رمضان. ما إن أراه، حتى أرتدي ملابسي فوق قميص نومي بعد أن يخلد الجميع إلى النوم، ثم أتسلَّل إلى غرفته، وننام معًا حتى نتبين الخيط الأسود من الخيط الأبيض. حينئذٍ أسرع عائدةً إلى بيتنا، أتمنَّى لو أنِّي في مستشفى، أتظاهر بالألم ليأتي إليَّ كل مساء وينام قربي، وما إن تدخل الممرضة حتى يختبئ في الحمام. أتمنَّى لو أنَّه يلقاني في الغرفة تحت درج بيتنا، حيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها إذ رُسمت على جدارها صورة جمجمة وعظام.

خططي هذه اندثرت في تخيُّلاتي لتتحقق تمنيَّاتي، فأنا رحتُ أراه في الليل، في الطبيعة، تحت ضوء القمر، والهواء يلاعب شعرنا. ننتقل من كروم العنب إلى تحت الأشجار، نغنّي بين الصخور، نستبدل «هودج الجمل» بشجرة الجوز وشجرة الزعرورة. وكان زوجي الحاج قد استأجر، بناءً على الحاحي الشديد، منزلاً في المصيف بحمدون. فأنا لم أعد أصبر على حرّ بيروت الخانق، ولا على السماء التي ترمي نقاط الماء الساخنة وتدعى الرطوبة. وكان استئجاره للبيت في الجبل علامة فارقة، على أنَّنا أصبحنا فعلاً من متوسِّطي الحال، أقرب إلى الأثرياء في محيطنا ومعارفنا. ويتدفَّق علينا الزوّار الكثيرون، إذ كانت بحمدون تلقَّب بعروس المصايف، وهم جاؤوا ليتفقَّدوها وكأنَّها حلية أو جوهرة. أشعر في بحمدون بالحرية المطلقة، فزوجي كان ينزل إلى عمله في بيروت كل صباح، ولا يعود إلاَّ في المساء، فأعود صغيرة أرتع كما كنت في حواكير النبطية، لا يعكِّر صفو طمأنينتي آنذاك سوى التفكير بالحلوى واللحمة. أفتح النافذة على الأودية، وعلى البيوت ذات القرميد الأحمر، لا على أعين الجيران المراقبة، كما في بيروت، ولا على الهمسات. أنسى وجود شقيقي العابس، رغم إشتياقي لعائلته. أسرّ بإبنة شقيقتي الملاك، ولا تفارق إحدانا الأخرى. وكانت قد جذبت الكثير من طالبي الزواج بها ليأتوا إلى «بحمدون»، فيزوروا بيتنا ويحاولوا سؤال خاطر الحاج خصوصًا أنَّ أختها الصغرى خطفها شاب وقع في غرامها رغم صغر سنها. كانت تسير إلى جانب زوجي

وهو يشدّ يدها، والشاب يشدّ اليد الأخرى إلى أن تمكّن الشاب من جرّها.

أعيش أنا وابنة شقيقتي كبطلتي الافلام السينمائية، كأنّنا في «العزبة»، حيث الاشجار والماء والطبيعة والحب. نقصد «العين» في جبال بحمدون، والمقاهي في «المنشيّة»، وإذا انتهى محمد من عمله يجد نفسه يركب البوسطة ما إن يسمع معاونها ينادي: «عاليه، بحمدون، صوفر»، وكأنّه تحت تأثير التنويم المغناطيسي. وعندما يصل إلى قلب بحمدون يبتهل إلى اللّه ليلقاني، فلديه ساعتان فقط. يحوم في الأماكن التي نرتادها أنا وابنة شقيقتي، وإذا لم يجدنا يقف قبالة بيتنا ينتظر إطلالتي من النافذة، كعادتي، أو إطلالة ابنة شقيقتي، إذ كنّا دائمًا منتظرتين قدومه. فأهرع إليه وأنا شبه حافية، أو في مشّاية البيت، لنذهب معًا إلى شجرة الجوز التي نبتت وحيدةً، غصبًا عن الطبيعة، في منطقة كلُّها صخور وبلان أصفر وحجارة حمراء.

تأخذ لنا ابنة شقيقتي الملاك الصور بآلة تصوير محمد، حين يحفر حبيبي تاريخ حبّنا إلى جانب حفرة تدلّ على اسمي واسمه، تمامًا كما في فيلم «دموع الحب»، ثم يحفر تاريخ لقاءاتنا، ويحملني بين ذراعيه مرتديًا جاكيت بيضاء، وأنا أحاول ضمّ تنورتي خوفًا من أن تكشف فخذي، ومشّاية قدمي تكاد تنزلق. تصوّرنا وكلّ منّا يقف ناظرًا في عيني الآخر، يعاهد أحدنا رفيقه على الوفاء، يركع أمامي تائهًا في وجهي، كأنّه يطلب إليّ معجزة، كأنّه «المكرسح»،

وابتسامة منّي ستجعله يشبّ واقفًا. تصوّرنا ونحن نتصافح وكأنّ أحدًا غير مرئيّ يقوم بتعريف كلّ منّا إلى الآخر، ينام على حجري وأنا أغنّي له، ثم يرفعني من جديد بين ذراعيه، ورأسي يرتاح فوق كتفه هذه المرّة.

رؤيتي لهذه الصور تريني نفسي من جديد، البطلة المتزوّجة برجل لا يهمّه سوى مصلاته، وعمله، بطلة تهرب من حرّ المدينة الحارق ليلحق بها حبيبها الموظف. ولم أجرؤ على أخذ أيّ من هذه الصور، فاحتفظ محمد بها، من غير أن يمرّ ببالي خطورة هذه الصور إذا عثر عليها شخص يودّ الايقاع بي، أو بنا نحن الاثنين. كانت الصور تظهر حبنا، ولا تكشف عمق هذا الحب. لم تكن تظهر (محمد) منحنيًا يقصّ لي أظافر قدمي. كنت في هذه الصور أبدو سعيدة، لا أخاف من العودة إلى البيت، ولا أحزن لفراقه لأنّي أعيش معه في بستان إلى الأبد، فلم يكن يحقّ لنا أن نجتمع معًا إلاّ في الطبيعة، فهي بيتنا، جدرانه الأشجار والصخور. إبنتاي تحميانني إن مرّ أهالي بحمدون وشاهدونا معًا نتغازل. أب و أم ما زال يعشق أحدهما الآخر، وابنتاهما تلعبان وترتعان حولهما. الصور تؤكّد حبّنا، الصور تريني الحقيقة، فأتساءل: ترى هل علاقتنا حقيقية وحتى لو كانت سرية؟

ألقاه في الليل ليقول لي ونحن نسيرفي الكروم «أنّي لا أنتمي إلى طينة حواء». وأفكّر في السبب: هل لأنّي أبدو صغيرة لقصر قامتي؟ فيجيبني أنّ حواء ماكرة غادرة.

أفكّر بيني وبين نفسي: ألست ماكره حين أوهم من في البيت، أنّي قد أضعت سواري الذهبيّ بين الكروم، وها أنذا أبحث عنه مع ابنة شقيقتي، وقد جلبنا معنا المصباح لتلك الغاية.

نسير ونتحدّث عن حبنا العظيم، تحت ضوء القمر، وتحت الكروم التي لم تعد تظهر بوضوح، كأنّ العناقيد نامت واقفةً وتغطّت بالأوراق. أقول لمحمد هذا ويجيب بأنّي خيالية. كلّ ما حولنا صامت، ماعدا صوته وصوت الريح التي تخيفني لأنّها كانت تلاعب كلّ شيء حتى الأحجار، فألتصق به وقلبي يزيد من دقّاته. يلحق بنا كلب عالي النباح، فأتمسك بمحمد، وما إن نترك الكلب، أو يتركنا، حتى أدير وجهي سائلةً الكلب إذا كان الحاج قد أرسله ليتعقّبنا؟ نضحك طويلاً، تشاركنا ابنة شقيقتي، ثم أسأل (محمد) أن يضع يده على قلبي، فيعلّق أنّ قلبي لا يستطيع احتمال الخوف والحب في آن واحد. يكتب عن هذه النزهة الليليّة، ويقرأ لي خواطره فيما بعد: «كأنّني أسمع ذلك القلب، قلبك الذي يضمّني إليه، يدقّ بعنف، فاستمع إليه بلذة، وتسري في عروقي رعشات الحب. ألا ليت ذاك الليل لم ينتهِ، وذاك القمر لم يغب، ولم يطلع، كي أبقى بقربك إلى الأبد...»

وكنت أعيش في هذا النعيم الذي يغدقه عليَّ اللّه مرّتين: مرّة وأنا ألتقي (محمد) بشحمي ولحمي، ومرّة أخرى وهو يكتب عن لقاءاتنا فور وصوله إلى بيروت، ليلتقي بي ولو على الورق. وأخذنا

نتبادل الرسائل لا بين القاهرة ولبنان، كما في « دموع الحب »، بل بين بحمدون وبيروت، وكانت ابنة الجيران البحمدونية تقرأ لي رسائله، وأعرف من رسالته التي أرسلها مع ابنة شقيقتي، عندما ذهبت إلى بيروت لمعالجة ضرسها، بأنَّه كان يعود بعد فراقنا في الليل إلى المكان نفسه ليترك لي دليلاً، ثم ينتظر، وكلُّه يقين، بأنَّ قدميّ ستعودان بي إليه إذ لن أقوى على فراقه. وأخذت أذهب في اليوم التالي إلى « الجوزة » باحثةً عن دليل تركه لي، عن حجر أوقفه بطريقة لافتة، فيرفّ قلبي وأنا أمسك بالحجر أدنيه من وجهي. وقد أبحث عن خرزة من عاج، أو وردة ذابلة. وأتخيَّل أنَّه جلس هنا، على هذه الصخرة الملساء، يكتب لي:

« حديث بين القمر وعاشقة »

« جلست في سكون الليل، أنتعش بنسماته، وأستمع إلى نغماته

كنتُ في ذلك المكان حيث كانت جالسة في النهار أناديها

وأناجيها وهي تصغي إليّ باهتمام وحنو،

إذ بي أرى البدر في السماء وقد ظهر من وراء الغمام،

وكنت سابحا آنذاك، أتأمَّل خيالها اللطيف، فتهيأ لي أنَّها لم تذهب إلى البيت

بل هي لا تزال هنا مختبئة، لتعود إليَّ تمازحني في هذه الخلوة الجميلة

بين النجوم والحجر، وتفاجئني بظهورها أمامي. وتستمع إلى نشيد

الحب من فمي فلم أدرِ حنيئذٍ أهي حبيبتي أم أنَّه القمر

وأسرعت بسؤالها قائلاً: من أنتِ؟ أأنتِ الحبيبة أو أنتِ القمر؟

هذا هو القمر يجول في سماء صافية زرقاء ينير العالم كلّه

فيذكرني بك عندما كنت تتجوّلين في كروم بحمدون

ووجهك القمر المنير فهذا ثوبك الأزرق يتماوج بين أغصان الشجر

فيموج قلبي حولك ويرعاك ....

الساعة العاشرة والنصف وقولي لي: هل شممت رائحتي هل طنَّت أذنك... تذكَّري ....».

وأطلب إلى الابنة البحمدونية أن تكتب لي هذه الجملة:

(لو أجاني أحسن واحد ما بحبّ غيرك) فتتوقف البنت عن الكتابة وسؤالها يسبق خجلها

ـ بس إنت متجوزة؟

فأهزّ كتفي قائلة..: «مين قال هالكلام؟ قصتي عجيبة غريبة بكرا بخبرك إيّاها...»



«أربع سنوات أو أربع لحظات»

أربع سنوات ولا ندع أحداً يقف في وجه اندفاعنا، يحاول شقيق محمد الكبير أن يردع حبيبي عن علاقته بي يقول له:

«إنَّني لا أنكر أنَّك تحبّ سيّدة، وسيّدة هي أهل للمحبة، ولكن أنت أدرى الناس بما يجب. كنت أتمنَّى من صميم فؤادي أن أكون الرجل الوحيد الذي يحقِّق مآربك حتى لو كان الثمن هو الحياة نفسها، وأنت تعلم أنَّني بعيد عن النفاق، أحافظ على كرامة أخي محمد، باللَّه عليك شاور نفسك وقلبك».

«يشهد اللَّه وملائكته أنِّي متكدِّر من كلامي هذا، لكنِّي أفضِّل في الوقت نفسه أن تبتعد عمّا يصعب مناله، ويكلِّفنا غاليًا..»

لكنَّ (محمد) يطوي الرسالة، ويضعها في درج طاولته.

أمه تعود إلى البلدة، «هربت منِّي ومنك»، يقول لي متأثِّرًا، ثم يأخذ يدي ويقبِّلها، وأتخيَّل شقيقي العابس يصرخ بي: «كلّ عمري عارفك وفاهمك مثل كفّ إيدي»، فأهزّ كتفي، وأتخيَّل (محمد) يرتمي على صدري وأنا أغنِّي له. تفور ركوة القهوة في وجه ابنتي حنان، فأهرع إليه حتى يواسيني، ثم يرسل لي مرسالاً مع ابنة شقيقتي الملاك في اليوم التالي:

«هل تحسَّنت صحة حنان وزال ألم الحرق؟ أفيديني عن السبب في ازدياد حبِّي لك؟ عندما تجدين علامة منِّي كإغلاق باب أو خلافه، فاحضري قبل الموعد. أحبك! هل تحبيني؟».

وكانت الضغوط تزداد ليتزوَّج خصوصًا بعد أن عرف أهله بأمر علاقته بي. وكانت أخته مصدر معلوماتي عنه وعن عائلته، تخبرني أنَّ أهله اختاروا له عروسًا، فأتأكَّد من الوقت الذي ستزور فيه العروس منزلهم، فأختبئ في غرفته منتظرةً موعد قدومها. وما إن أسمع وقع أقدام حتى أقلب الخاتم الذي حول إصبعي اليمين كأنَّه دبلة الخطبة، وأفتح الشباك مظهرةً يدي، وآخذ في الغناء، ثم أنتظر بعض الوقت قبل أن أغادر. أعرف من أخت محمد أنَّ الأم وابنتها شاهدتا يدي وخاتم الخطوبة، وقفلتا عائدتين من حيث جاءتا، ثم ترسل الأم عتابًا شديد اللهجة إلى أهل محمد، تصف فيه رؤيتها ليد خطيبته عبر النافذة وسماعها تلك الأغاني. ولم يكن محمد يلجأ إلى غرفة نومي

في بيتنا كما أفعل، بل يمدّ رأسه من النافذة، في منتصف الليل أو عند الفجر، ليتأكّد من أنّي لا أنام قرب زوجي بل إلى جانب ابنتي فاطمة، كما وعدته. ثم ليتأكّد من أني لا أرتدي قميص نوم يكشف عن زندي، ثم ليتأكّد، كما قال لي يومًا، بأنّي فعلاً موجودة في حياته، ولست من فبركة خياله، كما كانت تخبره الكوابيس في الليل.

آتي إلى غرفته قبل موعدنا حتى أبحث في جيوبه كلّها. أشمّ ملابسه باحثة عن رائحة جديدة تمتزج بنسيج الخيوط. أبحث عن شعرة غريبة عن نوع شعري ولونه. أفعل هذا بعد أن أخبرني بأنّه عيِّن، بحكم وظيفته، ليذهب لمدة أسبوع إلى المرفأ، حيث رست الباخرة الكبيرة، ليجري معاملات دخول السائحين.

أقنع نفسي بأنّه سيقع في حب سائحة شقراء، وأجدني أصطحب صديقتي «ف» ونذهب إلى المرفأ من أجل أن نتلصّص عليه. وما إن نصل، ونسمع الصخب، ثم نرى الدرك في كلّ مكان، بالإضافة إلى الحمالين والغطّاسين حتى نعدل عن محاولة رؤيته وهو يغازل الأجنبيات. ولكن صديقتي «ف» توقف أحدهم، وتسأله عن الباخرة التي أتت بالأجنبيات فيسألها الرجل: «ليش بدك تشغّليهن؟» وإذا بها تشتمه وتشتمّ سلالته. نهرب مع أنّ المرفأ كان في غاية الجمال، والبواخر كأنّها بيوت راسية على البحر، وقد بدت خلفها الجبال المكلّلة بالثلوج.

يروح محمد يتعقّبني ولو كنت في عقر بيتنا. يلومني لأنّي كنت أحادث أخي (كامل) وصديقه على سطح بيتنا، ولأنّه سمع ضحكاتي. يوجِّه اللوم أيضًا إلى ابنة شقيقتي التي رآها تجلس مكشوفة الرأس. أصطحب صديقتي البيروتية إلى غرفته، وأبحث في جيوبه إلى أن أعثر على صورتين لامرأة أجنبية كان قد خبّأهما في جيب بنطلونه الصغير، وأنوي ضبطه وهو يأتي بهذه المرأة الشقراء.

غيرتي عليه تزداد مع كل نَفَس أستنشقه. أطلب إلى صديقتي البيروتية أن تتركني في الحال، وأقرِّر بأنّي أريد ضبطه قبل ساعتين من موعدنا. أناجي اللّه: «يا اللّه... اللّه يخلّيك، خلّيني أعرف إذا محمد خاين حتى بطّل حبّو، وارجع لبناتي».

أدخل خزانته وأجلس في العتمة، أطمئن نفسي أنّي لن أموت إذا تركت شقًّا في الجوار يتيح لي استنشاق الهواء. أشعر بطمأنينة وباكتفاء في هذا المكان. لا أعرف كم من الوقت مضى. يبدو أنّني غفوت. أسمع الآن خطواته تروح وتجيء في الغرفة، وأسمع صرير السرير. أسمع تنهداته، ثم حركة فتح النافذة، عندئذٍ فقط أسمعه يحدِّث نفسه «مبيِّن كمولة تعوّقت؟»

فأجيبه بتلقائيّة من الخزانة «هياني أنا بالخزانة».

أحاول أن ألفظ الكلمات الفرنسية أمامه، وطبعًا كان لفظي سيئًا للغاية، وغير مفهوم، فكذبت عليه قائلة إنَّ قريبتي الثريَّة علّمتني إيّاها. وعندما لم يفهم وأنا أردِّد الكلمات بالعربية، أخذت

أضحك. أخبره بشكوكي، فنضحك وهو يضمُّني إليه حتى كاد يطقطق عظامي. ثم يشرح لي: كيف يجرؤ على الإتيان بإمرأة إلى غرفته وصوري معلّقة على الحائط، موضوعة في إطار ذهبيّ فوق «النموسية»؟ هذا ما جعل أفراد عائلته، ولاسيَّما أمّه التي طار صوابها لأنَّه ينفق معظم راتبه الشهري على شراء إطار ذهبيّ بينما يمنحها الليرات القليلة؟

يكتب لي هذا المرسال: «حلمت بك البارحة، وأول البارحة، أحلامًا لذيذة، فكنت في الحلم ساحرةً، جذابةً! هل نزل زوجك إلى الشغل وهل تحسَّنت صحته؟ أراك دائمًا تعاملينني كغريب، لا يمرّ يوم وتكلّفينني بشيء يلزمك... أقسمي لي أنَّه عندما يلزمك شيء تكلّفينني القيام به. يوجد لحام قريب منَّا. هل تحبّي أن أرسل لك اللحمة والخضرة الى البيت؟»

أشمّ رائحة ليمون افندي منبثقة من منديل في جيب سترتهِ، أحاول إيقاعه في الشرك، وأخبره أنِّي رأيته في مكان ما، ثم أقدِّم له الدليل: «بالعلامة قدَّموا لك ليمون أفندي». يمسك يدي ويقبِّلها، ثم يبكي: «أنت خيفانة أتجوَّز...». وكان على حقّ. أجمع الأدلَّة. أوقع أخته الطيِّبة القلب في مصيدة. آتي أحيانًا إلى غرفته رغم معرفتي أنَّه سيكون في عمله، وأبحث فيها بكلّ صبر وكأنِّي أبحث عن إبرة خياطة بين مئات الدبابَيس. أنا التي يضيق خلقي إذا فتحت مرطبان أو أغلقته، أنا التي إذا استعصى عليَّ تبكيل زرّ في تنورتي أو

فتحه، عمدت إلى قطعه فوراً. وها أنا أجد صور شابات برسم الزواج كانت تأتيه بها قريباته، لربما راقته امرأة غيري. ولم أمزّق هذه الصور بل أخذت أرسم لهنّ الشوارب واللحى.

وكان الحب يترك كلانا في صحراء، كلّما ازداد قربنا وشربنا من ماء سعادتنا، اشتدَّ ظمأ أحدنا للآخر. أعاتبه ويعاتبني، أحاسبه ويحاسبني، لأنّنا لا نستطيع أن يخترق أحدنا الآخر، ويختفي داخله. كان الواقع يسدّ أمامنا أيَّ فتحة نحاول أن ننفذ منها. أين أجد (محمد) إذا دخلت ابنتي المستشفى نتيجة حرق غير سطحي؟ أين أجد محمد إذا لازمت الفراش بسبب المرض؟ أما هو فكانت هواجسه من نوع آخر: «كيف تحبّني وهي ما زالت تعيش مع رجل آخر؟ ثم كيف أغدق عليها كل هذا الحب، وأعود في الليل وحيداً إلى غرفتي؟». لكنَّ حالتنا هذه تهون أمام خبر أطلعني عليه وهو أنّه سينتقل إلى وادي الحرير لمدّة ثلاثة أشهر أو أكثر. وأمسك قلبي الذي غادرني وأصبح بين قدمي. لا بدّ أنَّ أخاه الكبير قد سعى ليفرِّق أحدنا عن الآخر. ومن جديد أرى نفسي في فيلم كما فعلت زوجة الأب لسميرة في «الوردة البيضاء» من أجل أن تبعد الحبيبين عن بعضهما.

«أم حُسني تصدح بالشعر بعد أن تدلق الكاز عليها»

كنت أزور جارتنا أم حُسني دائمًا، أخبرها قصص الأفلام، وقلّما تركت بيتها، فهي تحبني وتستظرفني، تحبّ الشجرة التي كانت تزهر لونًا أبيض وندعوها الثلج. تترك الأولاد يلعبون حول بركتها رغم ضجيجهم، وتدلهم أحيانًا على الزيز الملوَّن.

كانت أم حُسني الزوجة الثانية لأبي حسني، بعد أن ماتت زوجته وخلّفت له بنتًا صبيّة.

عاشت معهما الصبية مدّة قصيرة قبل أن يراها شقيق أم حُسني، ويقع في غرامها، ويتزوَّجها... سنوات تمرّ، وتدلق الابنة الكاز على نفسها وتموت حرقًا. كان انتحار النساء احتراقًا الظاهرة الأكثر شيوعًا.

نسمع بأنَّ هذه حرقت نفسها، وهذه ماتت من جرّاء حروقها، وتلك تعافت إنَّما لتعيش مشوَّهة الوجه، وهذه بانت صلعتها بعد أن أكلت النيران شعرها. يتَّهم أبو حُسني أهل عائلة زوجته بموت ابنته. يقف وينادي: «بحقّ النبي محمد وعلي بن أبي طالب، تفرجيني بناتهن فحم. بالدنيا وبالآخرة». وقد غاب عنه أنَّ زوجته أم حُسني هي بنت من بنات العائلة التي تضرَّع إلى الله لموتهن محترقات. منذ أن دعا هذا الدعاء وزوجته تهدِّد بالانتحار حرقًا كلَّما تشاحنت معه، ولو مشاحنةً بسيطةً. ولم يأبه زوجها لتهديداتها، إذ كانت قد أنجبت منه ثلاثة أولاد بنتا وولدين في منتهى الجمال والأدب.

أدخل على أم حُسني قبل أن تدلق الكاز على نفسها بدقائق. كان الباب مردودًا، إذ لم يكن أحد يقفل بابه في حيِّنا. أراها ممدَّدة على الكنبة في الدار وقد أدارت وجهها إلى الحائط. أقف دقائق ربما شعرت بوجودي، واستيقظت من قيلولتها. وعندما لم تلتفت صوبي، أيقنت أنَّها تغطّ بالنوم. أتسلَّل كما دخلت لأتسلَّق درجات بيتنا، وما إن أصل إلى منتصفه حتى أسمع صراخها وولولتها، تسرع الجارات يحاولن إطفاء النار المندلعة بواسطة البطانيات والحرامات وبماء من البركة.

أجد نفسي فجأةً وسط دارها أولول، وأشدّ شعري، وألطم وجهي، ألوم نفسي وأصيح: «يبعت لي مرض ليش ما حكيتك، الله يبعت لي المرض!» كيف يمكن لأم حُسني أن تفعل هذا بنفسها وهي

تعرف كم أنا أحبُّها؟ كيف تفعل أم حُسني بنفسها ما فعلته ولها ثلاثة أولاد؟

وكانت تصارع آلامها و حروقها لأيام فتصدح وتغنّي باكية...

«أنا لأبكي على حالي وأنا حيّ... (حيّة)

وضاقت الدنيا في وأنا حيّ... (حيّة)

عقب ما كنت ثمره برؤوس بالحيّ

ذبلت وكسرت غصون للهوا...»

يعمّني الخوف لأنَّ دعوة زوجها أبي حُسني تحقّقت، فتوفيت أم حُسني متأثِّرة بحروقها السوداء، وكأنَّها طليت باللون الأسود، وأخذت تلمع كالقطران على الأرض، وستواجه ربها وهي كالفحم. أهرع إلى الارض، أجمع بعضًا من شعرها المتناثر المحروق... أبكي وأعدها أن آخذ خصلاتها هذه «عالشام لعند ستنا زينب»، ثم ألفُّها في منديل أخبِّئه في حمَّالتي، المكان الأقرب إلى قلبي إلى أن ذهبت إلى ستنا زينب مرّة، ووفيت بوعدي، ونثرت الشعر المحروق بين توهُّج الذهب. ترى هل يتحقَّق الدعاء؟ وهل هناك من يدعو على محمد كي يتركني أو كي يميتني اللّه؟

«ما في حدا في يخبّي الحب والحبل والركوب على الجمل»

يقع شقيق محمد صريعًا في حب ابنة شقيقتي الملاك. لكنَّها ترفضه، لم تحبّ شكله، ولم تحبّ حديثه، «يا ريتو مثل محمد! كأنَّه مش أخوه!». ولم يكن أحد من أخوة محمد الأربعة يشبهه في الشكل أو في الشخصيَّة أو في الذكاء. ومع أنَّ (محمد) لم يكن الصبيّ البكر إلاَّ أنَّه كان يشعر وكأنَّه كبير العائلة، يلجأ إليه الجميع ليبحث في مستقبلهم، ويوجِّههم، لدرجة أنَّه راح ينوء تحت عبء هذه المسؤولية الكبيرة. ولكنَّه مضى يقوم بواجباته حيالهم مدافعًا عنهم أمامي: «ما نحنا عايلة من ذات اللحم والدم». ومع ذلك يقصد أخ محمد هذا إلى متجر زوجي، ويخبره بعلاقتي بأخيه محمد مستهلاً كلامه: «مضبوط اللي قال إنَّه الزوج آخر من يعلم،

وزوجتك كاملة ما بتتعزّل من عندنا، هي وخيّ محمد بحبّو بعض».

تدور الدنيا بزوجي، لكنَّه لا يفارق متجره بعد تلقيه هذه الصدمة، ولا يعود إلى البيت يستفهمني أو يتّهمني. بل ينتظر أوان رجوعه إلى البيت، كعادته في المساء، ثم يأخذني على حدة، ويسألني مستطلعًا منّي الخبر! أصيح: «لا! كذب ونفاق.......... ناولني... ناولني المصحف الكريم حتى أحلف لك عليه». يأتي لي بالمصحف وهو يمسك رأسه ويردِّد: «راسي عم يبرم برم». أمسك المصحف بين يدي، وأغمض عيني، وأهمس في داخلي: «يا اللَّه راح كذّب عليك يا حبيبي يا اللَّه... دخيلك أوعى تسمعني بس بدي ذكّرك إنُّو جوَّزوني الحاج غصب عنّي». أقسم بصوت عال بأنَّه لا علاقة لي بمحمد، وأضيف أنَّ أخت محمد هي من أعزّ الصديقات. ولم أذهب للقاء محمد في اليوم التالي كعادتي، كما كنت أفعل حين نتناول طعام الغداء، ثم نستغرق في النوم خصوصًا إذا أمطرت السماء، فأوهم نفسي بأنّي متزوِّجة به، وسأنهض بعد ساعة عندما يحين موعد رجوع ابنتي من المدرسة... بل أقصد مكتب محمد، وأنتظره في الشارع ريثما يخرج، وما إن يراني حتى يتأكَّد ممّا حصل، ويطمئنني للحظة، ثم يميتني في لحظة تالية، وهو يسألني إذا كنت أريد الطلاق من زوجي والزواج به حتى يتدبَّر الأمور. أجيبه مهدِّدة: «يعني بدَّك ياني إرمي حالي تحت هالسيارة؟» يواسيني ويطمئنني بأنَّه سيرسل أخاه الكبير إلى زوجي ليؤكِّد له أنَّ ما سمعه غير صحيح. وفعلاً يهرع

أخوه الكبير إلى متجر زوجي، يؤكِّد براءتي، ويكذِّب أخاه الصغير الطائش، متذرِّعًا بأنَّ رفض ابنة شقيقتي له قد خربط عقله، مؤكِّدًا أنَّني بمنزلة ابنة لهم، ومعزَّتي في البيت كمعزَّة أخته.

ولم أهدأ، خوفي من شقيقي العابس كان لا يمكن وصفه. أراقب نظراته وهزّه لرأسه، عندما يخبِّط على باب غرفتي ويناديني: «بنت العكروت». إذا أقفلت الباب خلفي، أرتعش، فأتأكَّد من أنَّه قد علم بعلاقتي بمحمد.

ولم أهدأ إلاَّ عندما تمرّ ببالي فجأة صورة المرأة التي «طوّفوها» في النبطية. أجدني أشكر اللَّه أنّي في بيروت، ولو أنِّي ما زلت في النبطية وانتشر خبر خيانتي لزوجي وعلاقتي بمحمد لكان طاف بي أهالي النبطية، في القرى وجوارها، بعد أن أركبوني بالمقلوب على ظهر حمار «أزعر» من غير جلّ.

كنت في السادسة من عمري عندما علت الصيحات قرب بيتنا، يرافقها دقّ النساء والرجال على التنك وعلى الدربكة، وقد تحلّق الجميع حول امرأة كانت تحمل ولداً على يدها، وآخر في بطنها، تنادي شقيقتها لتحمل عنها ابنها في الوقت الذي تمضع فيه اللبان، وتحتجّ متأفِّفة: «يللا الهيئة بدّن يطوّفوني... نطّروني كثير..» وعندما لم يتقدَّم أحد منها صاحت بالجموع: «حاج تدقولي عالتنك... يللا طوّفوني إذا بدّكن تطوّفوني.... شو ناطرين خلّيني أخلص... حتى روح وعالي التبيخ عالنار. الأولاد بدّن يأكلوا...».

وكأنَّها ذكَّرتهم بما عليه أن يفعلوه إذ أتوا لها بحمار «أزعر» وأركبوها عليه، وجهها يقابل مؤخرته، وظهرها يواجه رأسه. يجرّها الرجال، ويلحق بها أهالي القرية جميعهم، بعضهم يبصق عليها، وبعضهم ينادي: «بتستاهلي. يلعن أبوك كلب». ثم تهزأ منها امرأة وتسألها: «ولي ليش بدن يطوّفوك؟»، فتجيبها المرأة من على الحمار وهي لا تزال تمضغ اللبان: «شو بعرفني... قال بقولوا حبلت من «مرابعنا»، أي من المساعد الأجير الذي يساعد العائلات في رعي الأبقار وحمل الأثقال على الحمير. أشكر اللّه أنّي لست حبلى، عندئذٍ أتذكّر قصة امرأة أخرى في النبطية داهمها المخاض بعد ثلاثة أشهر فقط من حملها، فوضعت مولوداً معافًى يزن حوالي خمسة كيلو غرامات. وعندما ساور الشكّ زوجها، وواجهها بظنونه، مضت ترضع مولودها وكأنّها لم تسمع شيئًا. وعندما أستنطقها مرة أخرى صاحت به: «ولو ما بتعرفش تحسب؟»

«كانون وكنّو وكنكنة هاي ٣ أشهر

شباط وباط وبيطره هاي ٦ أشهر

آذار وزرو وزرزرو هيّاهن صاروا ٩ أشهر»

لكن كوني في بيروت لا في النبطية، لم يدخل الاطمئنان إلى قلبي. ولا يعود السبب إلى أنَّ قصتي تختلف كلّ الاختلاف عن قصة المرأة التي طُوِّفت، بل لأنَّ يوم الحساب الذي كنت أخشاه قد أتى. ووجدتني أتقوقع، كحمامة قُصّ جناحاها، كطفل لا يعرف

المشي بعد، لكنَّه يعرف أنَّه يريد أن يلمس تلك اللعبة الموضوعة على الطاولة. كيف أتمكَّن بعد الآن من أن أذهب إلى غرفته، وأدخل إلى بيته، أو أن أستمع إلى أصوات سكانه وهم يتهامسون غير مصدّقين أنَّني قد عدت بملء إرادتي إلى مكان الخطر، خصوصاً أن من وشى بي طُرد من البيت ولا بدّ أنَّه سيحاول الانتقام من جديد؟

أصمِّم على خنق عواطفي ولا ألاقي (محمد) إلاّ بعيداً، وفي الأماكن العامة. شكوى أخيه جعلتني أكتشف أنِّي لا أملك نفسي كما ظننت، وأنَّ حب محمد لن يحميني. أنتبه إلى أنَّني أسبِّب الألم لكل من حولي: لأمي، لزوجي، لشقيقي العابس، لابنة شقيقتي التي أخذت ترتعش طوال الوقت، تستحلفني ألاَّ ألقاه في غرفته حتى لا أثير فضيحة. فأصيح بأنَّ فتنة أخي محمد لزوجي فضيحة، مواجهة زوجي لي فضيحة، حتى زيارة شقيق محمد الكبير لزوجي وإنكار علاقتي بأخيه هي فضيحة، عدم مغادرتي البيت إلاَّ مع زوجة شقيقي العابس هي فضيحة. لكنَّ (محمد) الذي يئس من العودة إلى حالتنا الأولى، لم يجد بدًّا من الكتابة إليّ... وهذه المرّة، وبضغطٍ منِّي، سلَّمني رسالته تسليم اليد، فأنا لم أعد أثق بحيله القديمة، كأن يترك لي رسالة تحت حجر معين، أو في قعر كيس من الموز، يسلِّمه إلى ابن الدكان. يقول في الرسالة: «هل نسينا الماضي الجميل لنلهو بالحاضر الكئيب؟ أنت لي شئت أم أبيت. حياتك جزء من حياتي، كل يوم يمضي ونحن مبتعدان عن بعضنا هي خسارة لا تعوَّض في هذه الحياة، تعالي إليَّ يا كاملة، وانسي أهلي، ولا تفكري

إلاَّ بمن أحبَّك. أحبُّك حتى العبادة، وأعاهد نفسي أن أحيا لأجلك. تعالي يا كاملة، فالحياة قصيرة، والعمر لا يدوم، وبعدك عنِّي خسارة، وحياتك بعيدة عنِّي كالعدم. وافيني يا كاملة لنذهب إلى دنيا لا يسكنها بشر، إلى دنيا لا يعيش فيها سوانا، إلى دنيا زهور وخمائل تفتننا، إلى دنيا طيور وبلابل...»

راح يلحق بي وبزوجة شقيقي إلى بيت عاشق العود، فأترك بيت شقيقي متذرِّعةً بأنِّي أودّ شراء علبة «أسبرين» من الدكان. أرى (محمد) وقد ازداد نحولاً يحثّني لأنسى ما حصل، فأخوه يأكله الندم، و قد أعلن توبته.

أخبره، وكل ما بي يختلج ويرتعش، أنَّ زوجي وشقيقي العابس قرَّرا ألاَّ أغادر البيت إلاَّ برفقة زوجة شقيقي فقط. حتى ابنة شقيقتي الملاك أصبحت على القائمة السوداء، خصوصًا أنَّها وقعت في غرام سائق رئيس الوزراء. يسألني إذا كان شقيقي العابس قد علم بما حصل، فأهزّ كتفي بأنِّي لا أعرف إذ لم يفاتحني بشيء، لكنَّه أصبح أشدّ عبوسًا وتجهُّمًا. ألطي في البيت كقطة من أجل سلامة روحي، لعلّ شقيقي العابس ينسى وجودي. يمتدّ حذري من عائلتي إلى احتراسي من الحيّ كلّه. أحرص على أن يراني الجميع مع زوجة شقيقي العابس، أشعر أنَّ الجميع يلوك خبر علاقتي بمحمد وينشره، أسمع صاحب الدكان يقول لزميله حين مررت بالقرب منهما:

«ما في الواحد يخبِّي الحب، والحبل، والركوب على الجمل».

«حاج رايحين وجايين مثل المكوك...
كل يوم بدّي ركّب نصف نعل؟»

أعود أنهض كالنبتة «المستحية» التي تتفتّح من جديد بعد أن تنقبض حين تمسّها يد.

تصلني ورقة من محمد بواسطة ابنة شقيقتي يقول لي فيها: «ماذا تمنَّيت والطقس بارد؟ ألم تتمنّي أن تكوني في حضني؟ ولكن كيف تلبسين البيجامة من غير روب، ثم تخرجين بها إلى عند الجيران؟». ثم يشير إلى ملاقاته في السينما. أوافقه مصطحبةً معي زوجة شقيقي العابس.

وتأتي المرأة رغمًا عنها، تجلس قلقة تنوء بعبء المسؤوليات التي تتركها في البيت، خصوصًا أنَّ شقيقي كان متطلّبًا، وكانت تهاب غضبه وثورات مزاجه.

أجلس في السينما تاركةً مقعداً إلى جانبي، يلحق بنا محمد ويجلس حريصًا على أن لا تلحظ زوجة شقيقي شيئًا، لا تنهداته، ولا زفراته، ولا الحرارة التي أمتدَّت إليّ. كانت ترتعش خوفًا من أن يكون زوجها قد وصل إلى البيت قبلنا، ولم تشأ أن نتحدَّث عن الفيلم في طريقنا إلى البيت إذ كانت منشغلة البال. إلى أن وصلنا إلى البيت قبل شقيقي، فانفرجت أساريرها، ثم عادت تتجهّم حين أمسك زوجها حذاءها، وراح يواجهني قائلاً: «حاج تاخديها رايحين وجايين مثل مكوك المَكَنةْ (الخياطة) كل يوم بدِّي ركّبلها نصف نعل»؟.

ولم أقتنع بلقاء محمد في غرفته، رغم تأكيده لي أنَّ أخاه الواشي قد عاد إلى الجنوب، إلاَّ بعد أن وصلتني منه رسالة بواسطة صديقتي البيروتيَّة.

أتحايل بشتّى الحيل لأفارق البيت من غير زوجة شقيقي العابس، فأصطحب أمي وأتركها لدى قريبة، وأعود إلى محمد، أو أرسل مرسالاً إلى زوجة شقيقي الأولى عاشق العود، لتأتي إلى بيتنا وتصطحبني معها إلى طبيب الأسنان. فأعدو إلى غرفة محمد أصطحب ابنتي الصغرى حنان، لنجلس وكأنَّنا عائلة، وهو يغدق عليها الشوكولا والملبس والألعاب. أنبِّه ابنتي وأخبرها أنَّ (محمد) هو الدكتور ونحن في عيادته، كان عليٌّ أخذ الحذر منها لأنَّها كانت سريعة الملاحظة والانتباه.

تأتي سامية جمال لترقص في صالة «الباريزيانا»، فأرسل خبراً لقريبة زوجي في الجنوب حتى تأتي إلى بيروت لأنَّ صحة زوجي متوعكة، فقد سمعته ينادي اسمها وهو يهذي من ارتفاع حرارته. استقبلتها بكلّ حبور و أنا أصرّ عليها ألاّ تسأل زوجي عن صحته وإلاّ ذكَّرته بالذي مضى لأنَّه تماثل للشفاء. أصطحبها في اليوم التالي لحضور حفلة ابنتي المدرسية، وبدلاً من أخذها إلى المدرسة أخذتها إلى صالة «الباريزيانا» لتجلس والغطاء الأسود منسدل على وجهها... وبدلاً من أن تطل ابنتي أطلّت سامية جمال، فعلتْ شهقات القريبة وهي تهمس بأذني قائلة: «لو أنَّ زوجها رآها لذبحها أولاً، ثم طلَّقها ثانياً».



«برودته تمتصّ أشواقي، وأشواقه تمتصّ دمي»

ولم نعش حبنا كما وصفه لي محمد في رسالته الأخيرة والتي على أثرها عدت إليه غير مبالية بأهلي وبأهله وبما يكتبون له: «أنَّها لا تدع عرقًا ينبض من قوتك إلاّ وسحبته...» ثم عدت غير مبالية برسائلهم لي: «إذا كنتِ تحبين (محمد) فعلاً، فعليك بتركه. إنَّه يعطّل مصالحه كلّها من أجلك، وإنَّه يهمل في دنياه مستقبله...». ولم أستطع فهم ما يقصدونه، فهو موظف في الأمن العام، رغم أنَّه يشكو من راتبه الضئيل الذي لا يسدّ حاجته، ومع ذلك فإنَّه يشتري الطقم بـ ١٤٠ ليرة، وهو من أجود الأقمشة. قمصانه القطنيَّة في غاية الأناقة، كذلك جواربه وأحذيته ومناديله وربطات العنق، كلُّها تماشي العصر. يشتري النظارات الشمسيَّة بينما لا أحد في عائلتي يضعها على عينيه، لأنَّها في اعتقادهم تُستعمل لفاقدي البصر. يشتري المنظار، والكتب، يدخل المطاعم والمقاهي، ويحضر الأفلام السينمائيَّة...

لا أعرف أحداً يعيش هذه الحياة إلاّ الممثِّلون والأثرياء.

لا بدّ أنّ أهله من طينة شقيقي العابس وزوجي. لا يؤمنون بالحب، فأخوه الكبير الذي وقع في الحب كتب لمحمد يشكو له:

«ولكن حياتي الغراميَّة لم أكن راضيًا عنها، ولا أريد أن أحدِّثك عنها مطلقًا، خصوصًا وأنت خصمها الوحيد، فإليك عنِّي حياة شقية ملؤها السم الزعاف بينما تجدها أنت مصدر حبّ وسعادة. أما فأنا فإنَّها تسحق فؤادي سحقًا، بلا رحمة ولا شفقة، ومع أنَّك تنظر إلى قلبي يذوب من تحت أقدامها ويتبعثر، وأنت تنظر إليه مستبشراً مستخفًّا ضاحكًا بملء شدقيك... تعسًا لتلك الحياة!».

ولم تكن غيرة محمد هي التي أفسدت صفاء حبّنا، فالمحب يغار لأنَّه يحبّ. أنبش غرفته كأنِّي أبحث في الثقوب التي تتركها دودة الخشب، وهو يلحق بي بدوره إلى متجر زوجي، ويراني أمازحه ليشتري لي القماش والسكربينة. يعاتبني بعدئذٍ، ويتَّهمني بالخيانة، ويحتجّ لأنِّي كنت سافرة بينما كنت أتحدَّث مع ولد صغير في الطريق.

يسألني في إحدى رسائله: «هل تحدِّثك نفسك بالذهاب إلى السينما من دوني؟». ثم يلومني على هوسي بالسينما، وتقليدي للبطلات، فيكتب لي على أقصوصة ورق: «أنا لا أنشد المرأة التي تعتبر السينما قاموسًا للحياة الاجتماعية».

وكان يضايقني أنَّه لم يكن يغضب من أهل بيته بل يتفانى في تقديم المساعدة لهم، خصوصًا لإخوته، رغم تململه وشكواه من سوء

صحته وصداع رأسه، وآلام أضراسه، وقد أرسل لي بعض الكلمات: «أرجو أن تحضري ابنتك معك. إنّي في شوق إليها، وأنا أشعر بحزن عميق، وباشتياق إلى كل شيء، كما أشعر بقرب أجلي، فودّعوني».

يلومني لأتفه الأسباب، يشعرني بأنّه قد ضاق بي ذرعًا، ولكنّي كنت أتجاهل مزاجه المتكدّر، حتى حين أسمعه يلعن إسرافه بالحب الذي يؤثّر في وهن صحته. ثم أراه يتّهمني أنّي لا أعرف إلاّ لغة القبل والغزل والغنج والدلال.

وفعلاً كنت أمضي إلى غرفته وأغنّي له، أظهر له أنّ الحب هو الذي يجعلني نابضةً بالحياة، لا العكس كما يظنّ. عندما يراني أفرغ من الشنطة الصغيرة ثيابه التي قامت ابنة شقيقتي بغسلها وكيّها، تلمع عيناه، ثم يتنهّد. ألحّ عليه أن يخبرني عن سبب تنهّده، فيعترف لي أنّه يتمنّى لو أنّ لديه زوجة تقوم بخدمته، فأعترض قائلة: «بس عم أغسلك غسيلك؟»...

يريد زوجة. أفكّر أن أغادر غرفته ولا أعود إليها إلاّ عندما يعود كسابق عهدي به. إذًا لكلّ بداية نهاية، وها هو يريد تركي. لا بدّ أنّه وعد أمه أن يتركني. أسأله إذا كانت أمّه لا تزال مستاءة من علاقتنا، فيجيبني: «ما بدّي إياها تزعل... حرام صحتها على قدّ حالها». عندئذٍ أقترح وأنا أقرص فخذي، أن يبتعد أحدنا عن الآخر لمدّة ما، ولذعري أجده يتمتم بما معناه: كيف ذلك وأنا أرافقه كظلّه حتى إنّه لا يحتاج إلى سواي؟...

أتركه وأنا أقسم بالنبي وبالأئمة ألا تطأ قدماي غرفته بعد الآن.
لكن ما إن يلوح بيتنا عن بعد، حتى أشعر وكأنّه البئر. أجدني لا أتحمّل سماع صوت شقيقي أو نحنحة زوجي... أخاف أن أصبح كأمي وزوجة شقيقي. تحاول ابنة شقيقتي، تفهُّم موقف محمد منّي، وتأخذ تروِّح عليّ وتسلِّيني من غير فائدة، إذ كنت أنتظر إطلالة اليوم التالي حتى أتأكّد ما إذا كان يريد تركي، أو أنّي أتوهم.

أقصد غرفته، كالعادة، وكلي ندم لأنّي تركت له مفتاحي بيته وغرفته على الطاولة. أكوِّم الرمل وأضعه على حافة النافذة إشارة له بأنّي هنا، إنّما من غير فائدة، أقنع نفسي أنّه يرتاح من عناء عمله. لأعود بعد الظهر أكوِّم الرمل حتى أصبحت الأهرامات الصغيرة ضخمةً عاليةً من غير فائدة أيضًا. أراني أناجي الليل وأشكر الله لأنّه أوجد الليل، وأوجد التعب، وأوجد النعاس وأهداب العيون، فأنام في السرير بين ابنتيّ، أشكر اللّه من جديد، لأنّه وهبني إيّاهما. لكن ما إن تشير الساعة إلى الواحدة، في اليوم التالي، وهو موعد عودة محمد من عمله. حتى انبري أحوم من جديد حول منزله. أضع الرمل في الشباك، بعد أن وجدت أنَّ رمل البارحة قد اختفى. أبتعد ساعة وأعود لأرى الرمل على حاله. أفقد أعصابي، وأبدأ بتكويم الرمل حتى يغطِّي حافة النافذة كلّها. تراني طفلة صغيرة فتسألني إذا كنت ألعب بالرمل وأبني بيتًا. أتجاهلها وهي تعيد السؤال عليّ. أسمع من يناديها، ثم أشعر، ومن غير أن ألتفت، بنظرات الأم تحرق

ظهري، ثم أسمع صفعة. الأم تضرب الطفلة لأنَّها تحدِّثني. أفهم أنَّ الأم تتذرَّع بضرب طفلتها لأنَّها لا تجرؤ على تأنيبي.

أقرّر العودة إلى بيتنا، فها هو اللَّه قد أرسل لي الطفلة لتردعني. إنَّه يسامحني، وفعلاً أترك النافذة وأترك منزل محمد، متَّجهةً إلى البيت. أعود راجعة من جديد، ومن غير أن أدري، إلى حافة النافذة، وإذا بمحمد قد بعثر الرمل، فيفرح قلبي. ويفتح لي باب غرفته، أدخلها وقد فارقني القلق، أستخفّ بنفسي وبه لأنَّنا لم نقوَ على الفراق سوى يوم واحد، وكأنَّنا لم نرَ بعضنا من سنين. وجدته هناك تخور قواه، وأنا لا أشعر بشيء إلاَّ برغبتي في الالتصاق به، وبحزني لأنِّي أفرض نفسي عليه فرضًا. يخبرني أنَّ اسمه من بين لائحة الأسماء التي سيذهب أصحابها إلى البقاع لإتلاف الحشيش.

يغوص قلبي من جديد. إنَّه يتركني شيئًا فشيئًا. أبدِّل رأيي وأنا أرى الأسى والانقباض على وجهه، وأتَّهم نفسي بالسرسبة، وبدلاً من أن يبوح بقلقه لأنَّه سيبتعد عنِّي، ولو لمدّة قصيرة، يخبرني أنَّه لا يحبّ إرتداء البذلة العسكرية. أشعر بالغليان، وكأنَّ حرارتي ارتفعت، لدرجة أنِّي أستطيع كواء دزدينة من القمصان. وأتمنَّى لو أصبح قشَّة، وأدخل دماغه لأعرف إذا كان فعلاً سيتركني ويتزوَّج. أعاتبه وأسأله أين ذهب الحب؟ وقبل أن أعطيه فرصة ليتحدَّث، أكمِّل عنه باللغة الفصحى: يأتي يوم الحساب. يأتي اليوم الذي يفقد المحبّ صبره. يأتي اليوم الذي يقف فيه المحبّ أو العاشق ويفتح ذراعيه قائلاً: «إمَّا أن تأتي حبيبتي هذه اللحظة، وتأخذ ذراعي وتضمّني إليها

وأضمُّها إليّ، أو أنّي سأقتلعها من حياتي. إنّها الضرس الذي لولاه لما تذوّقت الطعام الشهيّ، ولكنّه أصبح ينكزني ليلاً نهاراً».

يبكي محمد وهو يسمع تشبيهي هذا. يبكي لأنّي أحبّه كلّ هذا الحب. وأخذ يشرح لي بأنّه عليّ أن أطلّق زوجي وأتزوّجه. ولم أعد أسمع شيئًا. أسدّ أذني وقلبي. أميل أقبّله، فيبعدني عنه ويقول لي إنّ القبل حقنة مسكنة للألم، لكنّها موقتة، سرعان ما يتلاشى مفعولها.

وعندما لم أعد أقوى على الهرب من موضوع طلاقي، أجدني أزفّ إليه الخبر السعيد بأنّنا سنتزوّج آجلاً أم عاجلاً، فزوجي لا بدّ أن يموت. يسألني وكأنّه يكتشف سرًّا، لماذا لم أقل له من قبل إنّ زوجي يعاني مرضًا عضالاً؟ أخبره بأنّه سوف يموت لأنّه أكبر منّي ومنه سنًّا. عندئذٍ يضحك باستهزاء وبغيظ لمنطقي هذا. أطرح عليه حلاً أكيداً: سنتزوّج، ولكن عليه أن ينتظر ريثما تكبر ابنتي: «يعني كم سنة؟»، يسألني، فأجيبه «عشر سنين». يدير وجهي حتى لا يعود هناك مفرّ من مواجهته، وهو يشرح لي بأنّنا لا نمثّل فيلمًا سينمائيًّا، فالحبّ يجب أن يؤدي إلى الزواج، وعلينا التوقّف عن الكذب. إنّ قضاء ساعتين معًا، هنا وهناك، ليس حياة واقعيّة، إنّي أكذب على نفسي لذلك محوتُ بالشفرة صورة ابنتي حين تصوّرنا معًا تحت شجرة الجوز، وتركت بدلاً منها بقعتين بيضاوين: «مثل الغيوم بتمشي وبتروح»، ولم يشأ محمد أن أغادرمن غير أن أجيبه بكلمة نعم أو

لا، وهو يسألني إذا كنت أريد أن أكون زوجته كي يسعى بطلاقي من زوجي. أما رفضي فمعناه أنّي أضيّع الوقت معه لا غير.

أطلّق زوجي؟ أترك ابنتي؟

ولا أرى سوى شقيقي العابس يهزّ رأسه كمن يثني على حدسه بأنّي إمرأة لعوب، منافقة، أفتقر إلى المزايا والأخلاق. ولا أرى إلاّ زوجي مسالمًا، ينظر إلى الإسفلت، لربما عثر على كسرة خبز يرفعها عن الأرض، يقبّلها قبل أن يضعها في مكان لا تدوسها قدم.

يجيب عنّي محمد: «يعني بفهم إنّك عم تضيّعي الوقت معي لا أكثر ولا أقل!؟». أتركه وأسير إلى البيت، وعندما يلوّح لي من بعيد أشعر بأنّ للبيت ذراعين تصلان إلى رقبتي، وتخنقانني، ولا أرى أمامي إلاّ الظلام. لا توجد أنوار، ولا نجوم ولا ألوان ولا شيء.

أدخل البيت لأرى شقيقي العابس ينتظرني. أعرف أنّي تأخرت، لكن ليس إلى تلك الساعة، سرقني الوقت وأنا أضع هرمًا خلف الآخر. يصفعني شقيقي العابس وهو يسألني أين كنت، فيهرع زوجي لنجدتي. أنهض في الصباح التالي متّجهة إلى الروشة (صخرة انتحار العشاق) وقد عزمت على إنهاء حياتي. أفكّر بأم حسني، وأفهم لماذا أنهت حياتها، ولم تفكّر بي وبأولادها. فالاحباط والحزن يصاحبانني الآن، يسيطران عليّ، يصبحان قدمي اليمنى وقدمي اليسرى. يضخان فيّ العزم، ويمنحاني المنطق والرغبة في الانتحار. أقف أمام المياه. أريد أن أثير فضيحة بانتحاري، حتى تدلّ

الأصابع على شقيقي العابس بأنَّه السبب، ألم يصفعني؟ أنتحر لأنِّي لا أريد أن يتعقَّب خطواتي أحد، ولا أن يسيطر عليَّ أحد... إنتحاري سوف يجلب العار إلى عائلتي. إنَّه قوتي الوحيدة، أم حسني ثأرت من زوجها بانتحارها. سيأتي المحقِّق، وما إن ينتشلني الغطاس جثّة «هامدة»، وتلوك الصحف قصة انتحاري، حتى يصاب الجميع بالندم... وماذا عن محمد؟ سيعرف أنِّي استسلمت أخيراً، وأنَّه لم يعد بوسعي السير والتأرجح على الحبل. خارت قواي من حياة معه وبدونه، مع ابنتي وبدونهما، والحب لا يستطيع الركود كالمستنقع، وحبِّي له كالأعاصير والزوابع، لا أستطيع إخمادها. أنظر إلى البحر الهائج، الهادر، ولا أتوقَّف عن التحديق إليه، كأنَّ المياه تناديني وأنا أتمهلها، إلى أن تمتدّ إليّ يد تجرّني إلى إسفلت الطريق. رجل من المحلّة كان يراقبني، يصرّ على مرافقتي الى البيت رغم وعدي له بأنِّي تبتُ ولن أُقدم على الانتحار. ولم يقتنع رغم توسُّلاتي مع أنِّي أقسمت باللّه وبالنبيّ، أصارحه أخيراً بأنَّ خوفي من أن يعلم شقيقي بمحاولة انتحاري يفوق خوفي من الموت. أسرع وأعدل من تسريحة شعري، ولو تحت المنديل الأسود، وأنظر إلى ملابسي وأسرع راكضةً كأنِّي أنادي:

«دخيل أجريكم شو الحياة حلوة»... أرفع رأسي إلى الفضاء، أشكر الله لأنِّي في بيروت، في مدينة «الآجوج والماجوج»، ولأنَّ محاولتي هذه لن يعرفها أحد سواي.

«الخطوبة»

أتحسَّر على الأيام التي مضت، على النشوة العجيبة التي أسكرتنا وأنستنا الكون كلّه ولم أعدأنام إلاَّ إذا خطّطت كيف سألقاه في الغد. ولم أعد أستيقظ إلاّ لأخطِّط كيف سنعود معًا كما كنَّا...

لماذا لا أحمل منه فيشعر أنَّه صار أبًا إنَّما من غير مسؤولية؟.. ينمو الطفل في بيت زوجي، فيحسب محمد نفسه كالمهاجرين الذين يهاجرون ويتركون أطفالهم في الوطن. لكن هجرته ستكون على بضعة أمتار منِّي خصوصًا أنَّ (محمد) ما زال يبحث عن وظيفة أهمّ شأنًا من وظيفته، تدرّ عليه المال. يفكِّر بالهجرة إلى البلاد البعيدة، كما يفعل اللبنانيون من حوله، كما فعل ابن عمته وصديق طفولته عندما كان محمد يتسلَّم رسالة منه يقرأها مرّة ومرّتين، وكأنَّها من عشيقة له... تخبرني أخته المتواطئة معي، الحزينة لحزني،

أنّ (محمد) قد عقد خطوبته. وكانت الأفلام قد أفهمتني أنَّه أقدم على هذه الخطوبة من شدّة حبِّه لي، لا لأنَّه توقف عن حبِّي. فهو لم يهدِّدني كما يحدث عندما ينشب عراك أو قطيعة بين الأحباء، بل إنَّه يتعذَّب كعذابي. إنَّه يريد أن يبني مستقبله، وينجب أطفالاً، ويزداد فضولي لأرى خطيبته من بعد، فأمرّ بالوقت المحدَّد قرب بيته، حسب اتفاقي مع أخته، لأرى الخطيبة تسير إلى جانبها. وما إن وقع نظري عليها حتى ناجيت اللَّه: « شكرًا يارب. شكرًا لمساعدتي في محنتي! ». فهي لم تكن بجمالي، ولا بأناقتي. أحدس من ملابسها أنَّها لا تحضر الأفلام، ولا تهوى الغناء، ولا تستطيع أن تكون « غنوجة »، وأطمئن إلى أنَّه لن ينساني. كأنِّي ألاحظ أنَّ حبِّي له لم يعد يؤلمني فجأة... كأن (محمد) ليس أهلاً لي « لا يستأهلني »، وإلاَّ كيف يرضى أن تصبح هذه المرأة زوجته؟! أصعد إلى السطح متذرِّعة بنشري الغسيل على غير عادتي، وأخرج من حمّالتي رسائله كلَّها حيث كنت أخبِّئها، وأنقلها من حمّالة إلى أخرى، لأنَّ يدّ زوجي تطال كل شيء، حتى أحذيتي من أجل أن يدهنها بدهن اللوز، ويقوم بتلميعها.

أعرف كلمات كل رسالة أتتني من محمد غيبًا. « أحب الطريق التي تسيرين عليها، الفراش الذي تنامين عليه، والمخدة والغطاء والسقف والجدران ». أفكِّر لماذا تتبدَّل المشاعر؟ ثم أفكِّر أنَّه ربما كتب ما كتبه ليريح نفسه، ليشعر أنَّه اتصل بمن يحبّ ولو على الورق.

شوقي إليه يخزني كجبّ البلان الذي كنت آتي به إلى أمي من الحاكورة، مع فرق واحد أنَّه الآن يؤلمني بينما في الماضي كان الوخز معناه أنِّي سأشبع بطني، وآكل اللزاقات والمشاطيح. وكما كنت أمسك بحديد النافذة أمام جارنا وكأنِّي في السجن، أعود أمسك بحديد النافذة الآن، أعبِّر عن لوعتي، خصوصًا أنَّ ابن جيراننا ما زال يتلصَّص عليّ رغم أنَّه تزوَّج وأنجب. وكانت أمه قد لاحظت هيام ابنها بي، وهيام ابنها الآخر بابنة شقيقتي الملاك، وخافت من أن يفكس الاثنان خطوبتهما فاشتكت إلى أخيها الذي ما أن رآني ورأى ابنة شقيقتي حتى ابتسم لنا وقال لأخته: «بتأجروني هالشباك على يومين!».

أصبح وابنة شقيقتي كغرستي دوّار الشمس، نطلب الكثير من الهواء والماء والنور حتى نرتفع، ونلتفت برأسينا إلى كلّ معجب، شرط أن يكون نقيضَ زوجي وشقيقي العابس، إعترافًا منَّا بأنَّنا نستحقُّ حياةً أجمل. وكان الربيع قد هلَّ، فأخذنا نصعد إلى السطح فنراقب الجيران على شرفاتهم وفي الجنائن، نراقب خصوصًا بيت رئيس الوزراء الذي كان يعجّ بالحراس والناس. نرتدي الأرواب الجميلة، فنتخيَّل أنَّنا نجذب أنظار الجميع، حتى أنظار الزعيم نفسه، فنتمايل بغنج ونتوهم أنَّ زوجته قد شعرت بإنجذاب زوجها إلينا، لذلك طلبت إلى الخادمة إغلاق النوافذ في وجهينا، ولعلّها أغلقتها خوفًا من الشمس، أو من المطر والهواء.

أبتسم لابن الجيران ذات عشيّة، ربما لأنَّ الدنيا كانت جميلة، وسرب الحمام يلعب في السماء، وشجرة الزنزلخت كانت تميل وكأنَّها ذات يدين تسبحان في الهواء، وعطر العويشقة والياسمين النفّاذ ينتشر حولنا، وصوت عبد الوهاب يأتي من الأرجاء المجاورة.

يبادلني إبن الجيران النظرات والابتسامة، وهو يشير بيده كمن يسألني أين كنت؟ ولعلّه يريد رؤيتي. ولم آخذ إشاراته مأخذ الجدّ، بل نمت قريرةَ العين، سعيدةً لأنَّ هناك من يهتمّ بي، ولا بأس إذا توقف محمد عن حبِّي. تلاحظ ابنة شقيقتي ما يحدث على السطح، وتعلِّق: «معو حقّ المثل يا خالتي اللي بقول: البعيد عن العين بعيد عن القلب... هيّاني أنا مبسوطة بإشارات جارنا مع إنّو واقعة بالحب لشوشتي».

لكنِّي كنت جد واهمة، لم أكن أحبّ إلاّ (محمد)، ولم أكن أسعى إلاّ لرؤيته. يؤلمني شوقي إليه، مع أنَّ مدّة فراقنا هي ثلاثة أيام. أدوس على كبريائي، وأقرِّر المرور قرب مكان عمله بعد أن اتفقت مع صديقتي «ف» أن أمر عليها، فتصطحب أخاها الصغير ليبدو الأمر كما لو كان مصادفة. أفارق بيتنا مسرعة الخطى، وما إن أبتعد عن الزاروب حتى أسمع صوتًا غريبًا يناديني. ألتفت لأرى إبن جيراننا الشاب، ثم أسمع دعسات يعرف وقعها قلبي، دعسات أميِّزها من بين آلاف الخطوات لأنَّها كانت كالذراعين تحتضنانني، وتحنوان عليّ كلّما سمعتها.

أبتهج ويدقّ قلبي غير مصدِّقة أنَّها فعلاً خطوات محمد. لكنَّه ينهال على وجهي بصفعة وشتيمة: « يا عاهرة »، فيهرب ابن الجيران، وأكرّ عائدةً إلى البيت متذرِّعةً بأنِّي خبطت وجهي بالعامود الكهربائي. ساعة تمرّ وأنا أجلس في غرفتي مذهولةً، أضع لبخةً من الماء البارد على خدِّي، فأسمع صوت محمد وكأنَّه الرعد يعلو في الأرجاء: « يا خاينة » ولم أعرف من أين يأتي الصوت، من سطح ما؟ من الزاروب؟ ماذا لو سمعه شقيقي العابس؟ أشكر اللَّه أنَّ زوجي في واد آخر، حتى لو سمع هذا النداء، فلن يعرف أنَّه يعنيني وبالتالي يعنيه. أسمع نوافذ الجيران تفتح وتغلق، يهرع ابن شقيقتي من زوجي والذي لقبته أنا ومحمد بالعقائدي لانتمائه إلى حزب سياسي فيهبط الدرج مستطلعًا الخبر. وكان العقائدي قد بدأ يفهم أمور الدنيا بعد أن تربّى منذ الصغر على انتقاد شقيقي العابس لي وخوفي. أقسم، وأنا أودُّ لو أنبش الأرض وأختبئ تحتها، لأنِّي لن أرى (محمد) بعد الآن.

يخطب محمد امرأة ومع ذلك يتململ من علاقته بي، يلوم الحب، وكأنِّي الحوت الكبير الذي يودّ ابتلاع فرخ السمكة الصغير.

يلومني على الوقوف حجر عثرة في مستقبله، وكلّ ظنّه أنِّي إذا اختفيت من حياته فقد يصبح من علية القوم ذا وظيفة مرموقة تدرّ عليه المال الوفير. وقد تعود إليه جاذبيته، كذلك حيويّته، وصحته لأنَّه يتوهَّم أنّه أصبح شنيع الوجه، عليل البدن.

ولم يكتفِ بالصفعة وبالصراخ بأنّي خائنة، بل إنّه يرسل لي رسالة في كيس. ترى هل أتى هذا المرسال قبل الصفعة أو بعدها؟ أدور حول نفسي وكأنّي كلب يحاول قضم ذنبه، أخبّئ الرسالة في حمّالتي، وأهرع إلى الجيران، ولم يكن لي الخيار إلاّ أن أطلع الرسالة على ابنة القاضي، صديقة نجاح سلام، أوهمها أنّها موجّهة لابنة شقيقتي الملاك. تتردّد قبل أن تقرأ، وتحمر وجنتاها، فأحثّها على قراءة الورقة مهما يكن من أمر، وأنا أمازحها برياء بينما قلبي يخبط «خيفانة يموّتها أو يموّت حالو».

وإذا بها تقرأ لي بصوت يكاد لا يعلو: «يجب أن أنساكِ. لا يجب أن اراكِ مرةً ثانيةً هنا في هذه الغرفة. أنتِ سافلة، إنَّ نفسك لا تعرف الكرامة ولا الشرف... إذهبي من وجهي يا.... إنّي أتحمّل كل شيء في سبيل إرضائك... إنّي أعرّض نفسي وكرامتي للإهانة من أجلك. لكنّك لا تعرفين معنى الإخلاص».

هل من المعقول أن تكون هذه الكلمات المؤذية قد كتبها محمد؟ أو أنّها على لسان بطل في فيلم أساء فهم حبيبته؟ ألم يعقد محمد خطوبته على تلك المرأة الخالية من الجمال؟ من قرّر هجر الآخر: أنا؟ أو هو؟ ما ذنبي إذا لحق بي جاري؟

أصيح بكل هذا في أعماقي، ثم أعود إلى حافة السرير، أبكي غير مصدّقة ما يحصل. وبقيتَ على هذه الحال إلى اليوم التالي. إلى أن أتتني ابنة شقيقتي الملاك برسالة منه بعد أن انتظرها واقفًا عند

مدخل الزاروب، أهبّ مرتديةً ملابسي، وأقصد صديقتي البيروتيَّة لتقرأ لي:

«ظبيتي الحبيبة! وإن كنت لا تريدين أن تسمعي هذا الصوت الذي يناديك دائمًا في سكنات الليل، والذي لا ينساك مهما جار الزمان. وإن كنت لا تريدين أن تقرأي ما تجيش به نفسي المتعطِّشة إلى مشاهدتك وإلى سماع أحاديثك، فإنِّي آتيك الآن راجيًا منك أن تتعطَّفي على المعذَّب بهواك، وأن تسمحي لي بقليل من وقتك لأشاهدك، بل لأودِّعك قبل ذهابي إلى عملي حيث إنِّي سأغادر بيروت لمدة أشهر، فلا أظنُّك تبخلين عليّ بدقائق قليلة. وكوني أكيدة أنَّني أحمل لك تمثالاً من الإخلاص في قلبي، وأنا على استعداد لأكون على ما تعهدين، أن لا أفتر عن حبّك، وأن أكون حسب ما تريدين في أي وقت شئتِ، وفي أي وقت تشتعل فيه عاطفتك نحوي. أخيراً أنا بانتظار موعد تتكرّمين به في أي مكان شئتِ».

أتساءل: هل أنا القوية وهو الضعيف؟ لم أكن أعرف أن هناك الأقوى بين الأحباء والأضعف. أعرف أنَّ الأهل هم الأقوياء والظالمون، هم ضدّ الحب، وأنَّ الأحباء هم الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة. المحه من بعد يروح ويجيء عند مدخل الزاروب. ما إن يراني حتى يسرع إليّ، فأسلك منعطفًا وأنا أرتعش. يمسك بيدي يقبِّلها، وكأنَّنا في بستان أو في صحراء، لا في محلتنا، وبالقرب من الشارع الذي

نسكنه. ويسألني، كما تعوّد، عن صحتي، ويطلب إليّ أن ألقاه في غرفته للتو: «أرجوك» قالها بالفصحى.

أعطيته الوقت القصير قبل أن أدخل غرفته، وكان لقاؤنا معادلاً لقوة الصفعة وضراوتها. وبعد أن هدأنا، وبناءً على طلبي وإلحاحي، قرأ لي رسالته الأخرى: «لماذا لا يغار العاشق المملوء يأساً وألماً؟ رغم حبّي العنيف الذي أحبك إياه أنا أغار عليكِ من نفسي، أغار عليكِ من النسيم، وأخشى أن يدمي خدّيك. كيف تريدين أن أكون سعيداً في حياتي والغيرة المحرقة التي تكويني بنارها تنغّص عليّ حياتي، وتحرمني من لذة التفكير بك؟!»

أسأله عن خطيبته فيمغمغ الموضوع: «شكليات». ثم يخبرني أنّه قد تمّ نقله أخيراً إلى «وادي الحرير» لمدة ستة أشهر بعد أن عجز عن مماطلة رئيسه بهدف تأجيل عملية النقل. يطلب منّي أن أبقى مخلصة له، ويهمس في أذني «كوني على علم وخبر... راح حطّ واحد يراقب ابن جيرانكم بغيبتي».

«وادي الحرير»

يسلِّمني، قبل أن يذهب إلى وادي الحرير، خمسة أظرفة ويكتب اسمه وعنوانه على كلّ ظرف منها، ملصقًا عليها الطوابع البريدية، يأخذ وعداً منِّي أن أكتب له الرسائل لأطمئنه عن حالي. يشير لي أن أضعها في صندوق البريد في الشارع الموازي لبيتنا حيث يسكن قومندان في الجيش، لذلك تصل الرسائل إليه بسرعة.

وإذا بنا نأسف من جديد لأنَّه لم يأخذ أمر تعليمي القراءة والكتابة مأخذ الجدّ، كما وعدني حين إلتقينا للمرة الأولى في بيت قريبته الخياطة. نلوم معًا الوقت الذي كان يطير من بين أيدينا كلَّما التقينا. أطمئنه أنَّ صديقتي البيروتيَّة ستكتب رسائلي له.

أعود إلى البيت بعد توديعي له، أقلَّ حزنًا، بل أكثر راحة. فأخوه لم يسعَ لإبعاده عن بيروت من أجلي كما أيقنت. لم يكن

لديه أيّ نفوذ يُقارن بنفوذ محمد، كما أنَّ منطقة وادي الحرير، التي تقع عند الحدود اللبنانية السورية، منطقة نائية يكثر فيها قطّاع الطرق والمهرِّبون، ليس فيها إلاّ الثلوج والصقيع. أرسل له رسالة قبل أن يمضي على ذهابه أسبوع واحد، خصوصًا أنَّ اشتياقي له لم يكن يخالطه شعور الغيرة. أخبره أنِّي أفكِّر به وأنا أرى طبقًا مفتَّحًا من الورد الجوريّ، أو عندما أمر ببيته وأنظر إلى نافذته المغلقة، متمنيةً لو رأيت الشباك مفتوحًا نصف فتحة حتى أسرع وألقاه، ثم أختم الرسالة بأغنية «مشغول عليك ما أقدرش أغيب عنك». ثم أحضر فيلم «فتِّشْ عن المرأة»، فأكتب له رسالةً أصف فيها الممثلتين: آسيا وماري كويني، وكلي استغراب أنَّهما من أصل لبناني، لا من بيروت. بل من القرى...

تأتيني من محمد رسالة بواسطة أخته، فآخذها إلى صديقتي البيروتيَّة لتقرأ لي أغنية أم كلثوم، «أكتب لي.. أكتب لي»

«أكتب لي واشرح لي وقول

عن قلب وبأيه مشغول

وغيابك قد إيه حا يطول

من بعدك واللي أنت رضيه

أكتب لي عن وقت لقاك

أكتب لي صبحك ومساك».

أسألها عن الكلمات الأربع التي كانت مكتوبة بعيداً عن الأغنية، فقرأت: نظم بيرم التونسي، وتلحين زكريا أحمد. سماعي هذا مسّ قلبي أكثر من الأغنية، إنَّه يعاملني وكأنِّي ندّ له. ألاحظ أنَّ صديقتي البيروتية كيف تتلهف لقراءة رسائل محمد، وكأنَّها موجَّهة إليها، كانت مثلما تحبّ جو السريّة الذي كانت تفرضه قراءة رسائله، بين متعة فنجان القهوة والسيكارة المختلسة، فتدمع عيناها من فرط تأثُّرها عندما تقرأ كلماته: «أريد أن أرى النجوم في النهار حتى تسمعني أنادي كمُّولتي... كمُّولتي إذ القمر لا يكفيني». ثم تسألني صديقتي أن تتعرَّف على أحد اخوته، شرط أن يكون مثل محمد، ثم تقول وهي تدقّ على الخشب: «بلا حسد، لو رحتِ ودرتِ كل المعمورة ما بتلاقي حدا». وكنت أنتظر أن تنهي جملتها «حدا بيعبدك هالعبادة؟».... لكنَّها أنهت جملتها: «حدا آدمي، يعني كُبارْ، مش حدا أزعر»..

أفهم لماذا تقول لي هذا، فأنا بالتالي متزوِّجة ولي إبنتان، والمتزوِّجات لا بدّ أن يجذبن إليهنَّ الرجال الذين يودُّون قضاء الوقت معهنَّ، ومعاشرتهن من أجل غاية واحدة، وتلك تختلف عن الحب الحقيقي الذي بيني وبين محمد.

وعندما لم تستطع أن تكتب لي رسالة أردّ بها على رسالته، إذ هبطت العتمة فجأة، وأخذت صديقتي ترتعش خائفةً من عودة أخيها ورؤيته لها وهي تكتب لي رسالة غرامية، لم أجد بدًّا من سؤال

ابنتي فاطمة أن تأتي معي إلى الحمام بحجّة الاستحمام رغم أنّ الوقت لم يكن ليلة الخميس أو ليلة الجمعة، موعد استحمام سكان البيت. وكنت قد خبّأت في عبّي ورقة وقلمًا. وما إن عرفت فاطمة أنّها لن تستحمّ حتى فرحت، إذ كانت تخاف من رغوة الصابون وصعوبة تسريح شعرها الجعد الذي يصبح وهو مبلول كنشارة الحديد. أجلسها على الطبليّة وأملي عليها، أراقبها وهي تُحْني ظهرها، وتتهجأ الكلمات بصوت مسموع كلّما مال القلم بين أصابعها النحيلة. تشدّ على هذا الحرف، وتمحو ذاك، فأرى الأحرف كالمسامير مائلةً، بعضها مفلطح، وبعضها الآخر من غير وجه. مسمار يميل وكأنّه كعكة الصعتر، وآخر كأنّه حنفية الماء. الكلمات تشبه الحشرات، تشبه الأشياء. أسأل عن هذه الدائرة التي تشبه فقاعة صابون، أو طابة صغيرة، فتردّ عليّ ابنتي بأنّها الهاء، أو التاء المربوطة. أسألها أين الحبل الذي يربطها، فتضحك.

كانت فاطمة تحبّ (محمد)، تراه ينتظر عند باب الزاروب، ليمنحها صبيًّا صغيراً من الكاوتشوك الزهري اللون، أو لعبةً صغيرة هي كناية عن غزالة من خشب، إذا حُرِّك خيطها هزّت الغزالة رأسها، وكأنّها تجيب فاطمة عن سؤالها إذا كانت تحبّها. وكانت قد اعتادت رؤيته في حيّنا، أو في بحمدون، نتنزه معًا، وفاطمة تسمعنا يغنّي أحدنا للآخر. ولم أكن بحاجة إلى أن أحذرّها ألاّ تخبّر أحداً عن محمد، فهي كانت تعرف أنّ (محمد) هو «السرّ الكبير»، ومن حبها لي حفظت هذا السرّ، رغم أنّها كانت متيّمةً بوالدها أيضًا،

والذي لم يكن يعرف كيف يلاعبها، أو يلاعب أختها الصغرى. لم يكن يؤمن بشراء الألعاب لهما، فكنت أشتريها لهما خلسةً، وأخبِّئها تحت السرير، لتلعب بها البنتان في أثناء غيابه. كنت ألاعبهما بطريقتي الخاصة، فأمسك اللعبة التي أمسكتها حنان في الحفلة المدرسية، وذلك بعد أن أسدل شعري، وأفتل خصلاته، ثم أقلِّدها وأنا أغني: «لعبتي الصغيرة نامي في السرير، لتجي العصفورة لتجي العصفورة تفيّقك بكّير...»، وأنا أميل إلى الجهتين، ثم أقلّد ابنتي فاطمة، فأرتدي مريلتها المدرسية، وأضع الشرائط البيضاء في شعري، وأمسك كتبها ودفاترها، وأنزل الدرجات وأصعدها، وأرمي الكتب حالما أدخل البيت، كما كانت تفعل.

تكتب فاطمة رسالتي له، وأنا ألمح الفخر والاعتزاز على وجهها، ثم أطوي الرسالة وأخبِّئها في حمالتي.

وهذه هي رسالة فاطمة:

«حبيبي محمد، تقبرني يا محمد حروح وراك مطرح متروح، وأطلب رضاك يا حبيب الروح. مشتاق إليك، خايف عليك، واعمل إيه بحبِّي أنا، مثلك هنا، والقرب هنا، والبعد ضنا، بوستك بتقول عليك بتحبّني ليش يا روحي فتني. إنت بقربك تواسيني، يا حبيبي أنا تعلالي هنا. إنت بحبّك تحميني يا حبيبي أنا، تعلالي هنا، يا مكتوب يللي رايح إليهم والنبي تسلّم عليهم، نيّالك يا مكتوب يللي رايح إليهم. تتشقلب بين إيدين الحبايب».

يصيبني الضجر خصوصًا في أوقات لقاءاتنا رغم انغماسي بحضور الاستقبالات والزيارات والتردُّد على الأفلام السينمائيَّة، أفكِّر بأخذ بوسطة أو سيارة إلى وادي الحرير. أفكِّر كيف أصل هناك، وكيف أبرِّر غيابي لعائلتي ولو ليوم واحد؟ لكنِّي لم أذهب إلى وادي الحرير. وتمضي هذه الأشهر بسرعة لاسيَّما أنَّ (محمد) أتى إلى بيروت في إجازة، وأسرَّ لي خبرًا بأنَّه سيفسخ خطوبته، بعد أن احتجَّت خطيبته على إهماله لها، واتّهمته بأنَّه لا يزال يحبّني.

«لم يعد هناك مال في درج زوجي»

يبادرني شقيقي العابس وهو يهزّ رأسه تهكّمًا من شدّة انزعاجه منّي: «كأنّك مش عارفة شو صاير، عم تعلكي لي هالعلكة وبدّك تضهري؟». كنت قد سمعت من سكان البيت أنّ متجر زوجي قد خفّ ربحه، ولم أبالِ، لأنّي لم ألحظ تبدُّلاً في طريقة المصروف، فهو ما زال يوفّر لنا اللحمة والخضر والأرز والخبز الأبيض المحمّر، وما زال القرش في جيبه لا يرى النور إلاّ عندما يشتري بنفسه ما نحتاجه، وما زال بيتنا يعجّ بأقربائه وبالزائرين، عدا أنّه لم يأخذني على حدة، ويخبرني أنّ متجره لم يعد يربح. لم يكن يفتح قلبه، وبالتالي لم نكن كبقية المتزوّجين، ولم نكن حتى كصديقين أو كجارين، بل شخصان في بيت واحد، يعيش كلّ منّا على حدة، هو على مصلاته، وأنا قرب المذياع أو مع محمد. وكان شقيقي العابس على حقّ، فأنا

لمست تبدُّلاً في شخصية زوجي حتى إنِّي أخذت أشبِّهه بالممثّل عبد الوارث عبد العسر: العجوز الضرير، في فيلم «دموع الحب» الرجل المؤمن، المتَّكل على اللّه في كل شيء حتى في حالة المرض مردِّدًا: «الشافي هو اللّه».

تتوضّح الأمور بعد أيام، فأسمع أنَّ شريكه اشترى أسهمًا في البورصة من غير علم زوجي. وقد هبطت هذه الأسهم هبوطًا مخيفًا. ثم أسمع أنَّهما اشتريا معًا البضائع الكثيرة، ولم يعد بوسعهما تسديد السندات والكمبيالات.

يتصل بزوجي محامي شريكه طالبًا إليه المساعدة في تعويم المتجر، فشريكه سيبيع أرضًا له، فهل يملك زوجي أرضًا حتى يبيعها؟ يقع زوجي في حيرة، ترى لماذا لا يتحدَّث معه شريكه وجهًا لوجه بدلاً من أن يرسل له محاميًا؟ يبيع زوجي معظم السجاد العجمي الذي كان قد اشتراه لا لزخرفته وألوانه، بل لأنَّه كان يُمدَّد على أرض الجوامع والمزارات، ولأنَّه «ضيان». يبيع الأثاث الذي كان من أجود الخشب، ثم يطلب منِّي مصاغي وهو يبكي. فأعطيه إيَّاه وأنا أبكي على المباريم التي كانت كل منها على شكل حيَّة. أبكي على الدبابة التي كان جنزيرها كجنزير الدبابة الحقيقة، على إسوارة الليرات الذهبية التي كانت تتدلّى منها الليرات الذهبيّة الإنكليزية ونطلق عليها اسم الليرة «العثملية». يتكوَّم حولي سكان بيتنا وأنا أرغي الصابون على يدي لتتزحلق عشر أساور ذهبية لم تكن تفارق يدي بسهولة.

ألم أفكر من قبل بأنّي «نوال» في دموع الحب؟ وها أنا كنوال التي أعطت مجوهراتها إلى زوجها. والفرق أنَّ زوجها أخذها ودفعها إلى طاولة القمار وخسرها، بينما زوجي يحاول بها أن يعوِّم المحل... لكن المحل يغرق بالعًا صيغتي. ألم أكن دائمة التفكير أنَّ زوجي لم يخلق للتجارة بل للتعبُّد؟ كنت كلّما دخلت إلى متجره ورأيته خلف طاولة الخشب الطويلة ممسكًا بالمقصّ الكبير الذي كان يشبه المنجل، أفكر أنَّ هذا المقصّ لا يليق بيده الصغيرة النحيلة، ولا بعينيه الضيقتين، ولا بقامته القصيرة الضئيلة التي تكاد تضمحل وتختفي في رحابة مخزنه، وبين مئات أثواب الأجواخ الإنكليزية والفرنسية والإيطالية. كنت أرى أمامي الولد اليتيم الذي جاء إلى بيروت خجولاً، يمشي على الصراط المستقيم كما علَّمه شيخ الدين الذي ربّاه في النبطية، فأخذ يعيش وكأنّه حصان غطُّوا له عينيه، فلا يرى من بيروت سوى الأرض التي يسير فوقها. «الدنيا بدّها شوفة حال»، لطالما فكَّرت بهذا الأمر وأنا أقارن زوجي بقامة شريكه المربوعة، وبقهقهاته، وصوته الجهوريّ والنكات المنطلقة خلف الأخرى، حتى عندما كنت أرى فناجين القهوة فارغةً وأعقاب السكائر في المنفضة، كنت أتمنّى لو أنّها لزوجي.

تمضي أسابيع، ويتصل بزوجي محامي شريكه، ويخبره أنَّ شريكه استطاع أن يعوِّم المحل بعد أن باع كل أراضيه. ويطلب إليه التوقيع على أوراق تنازله. أسأل زوجي وأنا أبكي لماذا إذًا لا يعيدون

إلينا الأثاث والسجاد العجمي ومصاغي؟ يجيبني: «يللا خذي منديل وابكي بالقرنة».

ينتشر الخبر في الأسواق. يأخذ الباعة بالمناداة على بضائعهم كالعادة: معانا ريحة «عطر» يا شباب. ريف دوري يا شباب، معانا بنت السودان يا شباب... وفلان... (إسم شريك زوجي) أكل الشيخ يا شباب». يتقدَّم محام لامع من زوجي الحاج عارضًا عليه خدماته القانونيَّة من غير أجر حتى يستردَّ له حقوقه. لكنَّ زوجي يرفض منادياً: «المحامي هو اللّه». يجلس على مصلاته فتستغرق صلواته ساعاتٍ طويلة، كذلك تسبيحه، ثم يقرفص ساجداً، ولا ينهض عن مصلاته إلاَّ متى تحوَّلت عيناه إلى حصّين من البندورة حمراوين، وتحوّلت جبهته إلى أخاديد عميقة، يجلس ويبكي...

وأنا أبكي من أجله، ثم أثور على ضعفه خصوصًا أنِّي اعتدت عليه أن يتدخَّل في الصغيرة والكبيرة، محافظًا على كل ما يخصّه في البيت ولو أظهر ميلاً إلى البخل. ولم أخبر (محمد) بما حدث لزوجي، لا أريد أن يراني من جديد كما رآني في المرة الأولى: تلك البنت الصغيرة التي قدمت من الجنوب، وهي تلفّ شعرها بالمنديل الأبيض، ولا تعرف ما هي فرشاة الأسنان. أتصرَّف أمامه كأنِّي ما زلت زوجة من يملك محلاً في سوق سرسق. لكنَّ الخبر ينتقل من الأسواق إلى شارعنا، إلى العائلات الجنوبية، إلى محمد، فيسرع محمد إليَّ مستفسراً موجِّهًا لي اللوم لإخفاء الحقيقة عنه، فأتذرَّع

بشتّى الأسباب، ثم يأخذني بين يديه، ويضمّني إليه ويقول: «بتعرفي... اللّه بيحبّني وبيحبّك... اللّه بيحبّنا ياكاملة... اللّه عمل كل ها لعمايل مشان تطلقي ونتزوّج».

لم أصدِّق قسوته وعدم رأفته بما حصل لزوجي ولعائلتي، لكنَّ (محمد) حاول أن يشرح لي أنَّ المثل القائل: «مصائب قوم عند قوم فوائد» لا ينطبق عليه، أو علينا معًا، كما أتّهمه، بل لأنَّ الظروف باتت ملائمة فجأة، لا أكثر ولا أقل. ولم أشأ أن أسمعه يردِّد من جديد «أنِّي أدمِّر مستقبله وكأنَّ الإحدى عشرة سنة التي قضيناها معًا إنَّما كانت لقضاء الوقت والتسلية». بل أطلب منه أن يمنحني وقتًا للتفكير بالموضوع.

يعمّ الحزن بيتنا، يتفرَّق سكانه من أقارب زوجي، تصبح الأرض عاريةً بإستثناء ثلاث سجادات. يولِّي يوم الإستقبال، يولِّي كبريائي، تولِّي خشخشة معصمي بالأساور الذهبيَّة، يولِّي الاصطياف في بحمدون. تعود خيبة أمل شقيقي العابس الماضية، وتطفو على السطح، وكلُّه ثقة أنَّ زوجي لو لم ينكث بوعده له، وينسحب من مشاركته، لما حصل ما حصل. يتبدَّل وضع صبيان شقيقتي من زوجي بين ليلة وضحاها، فيأتي زوجي لولديه بكشَّتين صغيرتين حتى يقوما ببيع المواسير وأدوات الخياطة في السوق بعد أن كانا يدخلان متجر والدهما بكلّ فخر وطمأنينة. يترك الابن البكر العقائدي الكشّة، ويختبئ كلَّما لمح تلميذاً أو رفيقًا له من مدرسته (الحكمة) في السوق.

يعود شريك زوجي السابق، ويفتح المحل من جديد تحت اسم آخر، بعد أن اتّخذ أحد أخوته شريكًا جديداً له. يقصده زوجي طالبًا إليه أن يعمل في المحل كموظف لقاء راتب شهري حتى يعيل عائلته، فيوافق شريكه السابق. ولم يترك زوجي عمله هذا إلاّ عندما لم يستطع تحمُّل الذلّ وعدم احترام الأخ والشريك الجديد. يرشقه زوجي بالمتر الذي كان حول رقبته، ذات يوم، ويخرج من المحل إلى الأبد. يعود إلى التجارة والأسواق متحاملاً على مأساته، وهذه المرة بمساعدة مالية من أولاده الثلاثة الذين نزلوا إلى معترك العمل.

يستأجر زوجي «بسطة» تبعد عن محله السابق بضعة أمتار، فيمرّ من أمامه كل صباح ملقيًا التحية على شريكه السابق كأنّ شيئًا لم يكن، حامداً اللّه على كلّ شيء. وكانت هذه «البسطة» عند باب مخزن كبير لتاجر لم ينسَ نزاهة زوجي ومكانته السابقة، فكان يبيع عليها الملابس الداخليَّة القطنيَّة، والجوارب، وحاجيات أخرى، فيثير الأسى والحزن في قلوب معارفه كلّما شاهدوه يقف أمام بسطته المتواضعة، من غير متر حول رقبته، ومن غير مقصّه الكبير. هكذا كان يبيع صيفًا شتاءً، محاولاً جذب المتسوِّقين والزبائن إليه.

يهلّ فصل الصيف، تنتقل الفرش والأغطية والنموسيات إلى السطح بدلاً من الإصطياف في بحمدون، فننام في العراء هربًا من حرّ بيروت اللاهب، مطلقين على مصيفنا الجديد اسم «سطيحون». أسير على السطح، وأراقب البيوت من حولنا، وأغمض عيني كلّما

رأيت قرميداً أحمر، وأوهم نفسي أنّني في بحمدون، وبأنّي سأذهب إلى الكروم تحت ضوء القمر، لملاقاة محمد الذي راح يتململ مجدداً من علاقتنا، ومع ذلك يسعد بي ما إن يراني ناسيًا احباطه، وتلك كلمة تعلّمتها منه. يعود إلى تململه السابق كلّما جاء وقت فراقنا. ولم يعد بيدي حيلة أمام سوداويته ولومه لي اللذين كانا يشتعلان لأتفه الأسباب خصوصًا إذا حضرنا فيلمًا سينمائيًّا، ينتهي نهاية سعيدة، وكنت أنزعج من هذه النهايات السعيدة التي تبثّ الأمل في المشاهدين ولاسيّما في محمد، وتجعله يرى أمر طلاقي من زوجي، وزواجي به، من أسهل الأمور. نحضر فيلم «رابحة» المرأة البدوية التي تلتقي بشاب من الحَضَر، كان في رحلة صيد مع أمير وحاشيته، فيقع الشاب عن جواده من غير أن يتفقّده أحد من الصيادين، وتهرع إليه رابحة، وتداوي جروحه، ثم ينمو الحب بينهما. لكن ما إن علم أهلها بأنّ الشاب هو من الحَضَر حتى أمر رئيس القبيلة بإبعادها عنه، وتزويجها بابن عمّها، فتهرب رابحة في ليلة زفافها، وتلحق بالشاب الحضري.

ولم يتوقف محمد عن الزفير والتنهّد وهزّ ساقه طوال الفيلم. وهمس بأذني أنّ الفيلم هو النور الذي علينا الإهتداء به، وعندما لم يستقلّ معي الترام متذرّعًا بعمل له أمسك قلبي بيدي، وأهمس لنفسي، بأنّه قد قرّر تركي. وفعلاً لم أكن مخطئة. فمحمد لم يستقبلني في غرفته في اليوم التالي، ولا في الأيام التي تلت، بل أرسل لي رسالة سلّمها تسليم اليد إلى ابنة شقيقتي الملاك، فتقرأها

لي صديقتي البيروتيَّة، وأفهم سرّ حزنه للمرة الأولى، وأعزم على مساعدته لتركي، وأنا أفكّر بأنّ لا بأس إذا أصبحت كالصحّارة الخشبيَّة التي كان يأتي بها زوجي مع بقية الصحاحير وصناديق الكرتون الفارغة، ولعلّي سوف أبقى تلك الصحّارة إلى أن يموت زوجي، أو أموت قبله.

«أتمنّى أن تبتلعني جهنم، وأن أغادر هذه الدنيا المزعجة. إنَّ كل ذكرى جميلة، وكلّ دقيقة سعيدة قضيتها معك، هناك ما يعادلها من ذكريات مؤلمة تمحو كل جميل من حياتي.

فكَّرت كثيراً وكثيراً في الابتعاد عنك فلم أفلح، لكنّي في النهاية وجدت نفسي لا أستطيع الصبر على هذه الحياة المرّة، أريد أن أبتعد عنك مهما كلّفني الأمر. الموت أهون عليّ من العذاب؟ وها أنا أكتب لك هذه الرسالة لأقول لك وداعًا. تصبّري وتذكّري أنَّك لستِ لي، وأنَّكِ لربّ هذا المنزل كما يشاء، تنامين في فراشه، وتشاركينه طعامه وحياته. أمَّا أنا فأرى نفسي بعيداً عنك، تفصلنا حواجز شتّى، ولا يمكن هدم هذه الحواجز. كيف تريدينني أن أنام مرتاح البال؟ كيف تريدين منّي أن أعيش بسعادة؟ إنَّ قربك يسعدني، لكنَّ التفكير بالمستقبل يؤلمني ويعذّبني ويحرمني من لذة الحياة، من لذة قربي منكِ. لا معنى للحب وأنا أشتعل بنار الغيرة الملعونة. ليس لديّ ما أفكّر به إلاَّ أنتِ، ولا يشغل بالي إلاَّ حبك، ولا يمكنني الفرار من هذا الحب العديم الفائدة...».

«سامحني: المسامح هو اللَّه،
سامحيني: سامحتك»

أطلب السماح من زوجي ونحن جالسان أمام الشيخ، في المحكمة الشرعية: «سامحني». يجيبني وهو يبكي: «المسامح هو اللَّه». يطلب السماح منِّي بدوره: «سامحيني» فأجبته وأنا أبكي: «سامحتك». هل من المعقول أنِّي أجلس أمام رجل الدين وهو يوقِّع وثيقة طلاقنا؟

وكان محمد قد انقطع عن رؤيتي لمدة أشهر إلى أن رآني مصادفةً مع ابنتي، ونظر إليَّ تلك النظرة، فعرفت أنه يريد العودة لي. وفعلاً عاد إنَّما بالطريقة التي أرادها. ذهب إلى شقيقي البكر، عاشق العود طالبًا إليه مساعدته من أجل تطليقي من زوجي. وبدلاً من أن يتحدَّث شقيقي عاشق العود مع زوجي، يزورنا من غير علمي،

ويختلي بشقيقي العابس الذي أغمي عليه عند سماعه الخبر. تتعالى الأصوات، وأهرب إلى السطح بعد أن هربت إليه من قبل خوفًا من زواجي. لكنَّ شقيقي العابس لم يلحق بي إلى السطح. فقد أخذت الأمور والأحداث تمرّ بسرعة، ورأيت نفسي في المحكمة الشرعيَّة وقد تنازلت عن كل شيء. ثم يظهر والدي فجأةً ويصطحبني معه إلى الجنوب. ولم أستطع إلاَّ أن أفكِّر بمحمد الذي وعده بالمال لأنَّ عهد الليرات الذهبيَّة قد ولّى... أركب البوسطة مع أبي وأنا أغصّ في البكاء. البوسطة تبتعد عن الحيّ، بمن فيه ابنتاي، وأمي وابنة شقيقتي الملاك، وزوجة شقيقي، وصبيان شقيقتي من الحاج، الجيران، وشقيقي العابس. أجدني أتذكَّر اليوم الذي جئت فيه إلى بيروت مع أمي وأنا فارغة اليدين، والآن تستوي على حضني حقيبة صغيرة من ملابسي. كلّما ابتعدنا عن بيروت واقتربنا من الجنوب، خفَّ حزني واطمأنَّ قلبي. لم نذهب إلى النبطية أو إلى أرنون، بل إلى «القليعة» حيث ضمَّن والدي اشجار التين من أصحابها لفصل الصيف، وأقام هو وزوجته خيمةً كبيرةً من الحطب، بعد أن مدَّ حولها التراب المخلوط بالإسمنت ليجفّ وكأنَّه كالباطون. يصبح همُّنا جميعًا إبعاد العصافير عن هذه الأشجار، عن أكواز التين، حتى تنضج قليلاً من أجل أن تستعمل في تحضير الدبس أو المربّى، أو أن تترك حتى تنضج جيداً، وتفلش تحت الشمس، بهدف تجفيفها وتيبيسها. تأتي زوجة شقيقي عاشق العود بابنتيّ بعدما أتحرَّق شوقًا إليهما، رغم إطمئناني أنَّهما في رعاية ابنة شقيقتي الملاك، وأمي،

وزوجة شقيقي، ووالدهما. أشعر بالسعادة وهما إلى جانبي، وتأخذان بالرقص، كلّ منهما بدورها. تنهض فاطمة وترقص، بينما ينفخ شقيقي ـ من زوجة والدي ـ بالمنجيرة، فنتحلّق حوله، أنا ووالدي وزوجته مصفِّقين، ثم يحين دور حنان، فترقص وترقص، ثم تعود تجلس بقرب أختها. ثم يصدح صوتي بالغناء، متمنّية لو أعيش على هذا المنوال طوال حياتي في خيمة بين أشجار التين و كروم العنب والنحل الأصفر، بعيدةً عن الضجيج، وعن سكان بيتنا، أنشد الحرية تمامًا كليلى مراد في فيلم «ليلى بنت الصحراء». أنام بين ابنتيّ كما كانت تفعل أمي، فأرى نور القمر من بين أكوام الحطب، ثم يضيء دربنا وأنا آخذ ابنتي للتريّض بين الأشجار، فتفوح رائحة أكواز التين «البقراتي» وتصبح وجنات ابنتيّ بلون أكواز التين بعد أن أعاد هواء الجبل إليهما العافية.

يأتي محمد بعد أسبوعين في بدلته الأنيقة. وما إن رأيته من بعد حتى فارقني قلبي وهرع إليه. تفرح به ابنتي فاطمة، بينما تنكمش ابنتي حنان خجلةً منه. لحظات تمرّ وتدخل أنفه ذبابة صغيرة، فينهمك محاولاً إخراجها. أفكّر أنّ هذه الذبابة أتت في الوقت المناسب، لأنّها تكسر توتّر محمد من كلّ ما يراه حولنا.

يأخذ شقيقي ابنتيّ عنّي، وعن محمد، وهو يغنّي لهما، وينفخ في المنجيرة «الضمنو الضمنو الضمنونو». تأتي زوجة شقيقي عاشق العود، بعد يومين، لتعيد ابنتيّ إلى والدهما في بيروت. أروح

أقنع نفسي بأنّي سأراهما بعد أسبوعين، فور عودتي إلى بيروت، وبأنّي سأعيش في الحيّ نفسه، عدا أنّهما ستعودان إلى بيت يعجّ بالسكان، وبالغادين والآتين، ومع ذلك ما إن أرى يد كلّ منهما تمسك بيد زوجة شقيقي عاشق العود حتى يخبط قلبي بكلّ عنف.

تلتفتان معًا إلى الخلف كأنّهما تريدان التأكّد من أنّي فعلاً قد رضيت بمفارقتهما. أتسمّر في مكاني، وأصبعي بين أسناني. تتوقّف البوسطة وأراهما تصعدان إليها، وعيناهما الصغيرتان لاتزالان تتطلّعان إليّ، كأنّهما تحذّراني من أنّ هذه هي فرصتي الأخيرة إذا أردت أن أبقيهما معي.

تتحرك البوسطة، أسمع ضجيجها في طبلة أذني، فأعضّ على أصبعي، وأفهم للمرّة الأولى ما أقدمتُ عليه، وإذا بي أردّد كما تردّد أمي: «الدبس انقشع عن الطحينة».

«السجادة العجميَّة»

أترجَّل أنا ومحمد من السيارة التي أقلَّتنا من الجنوب إلى بيروت غير مصدِّقة أنَّنا معًا، وبأنِّي قد أصبحت زوجته بعد أسابيع فقط من طلاقي، فمحمد صوّب مسدسه على صدغ أبي مهدِّدًا إيَّاه عندما طلب إليه أبي الإنتظار ريثما أتمِّم عدَّة الشرع، وهي ثلاثة شهور. أدخل غرفة الهودج أياها التي كنت أتسلَّل إليها كاللص. أودّ لو أخبِّر حتى الخزانة، والمرآة، والسرير، والطاولة، والكرسي، أنَّ الأمور قد تبدَّلت. نفتح للمرة الأولى الباب الذي يؤدِّي إلى مصطبة تطلّ على حديقة صغيرة، وألاحظ أنِّي مازلت كاللص. لا أريد إثارة أيَّة حركة، رغم أنَّنا لم نوصد باب الغرفة بالمفتاح مرّتين كعادتنا. فأنا قد فُرضت فرضًا على سكّان البيت الذين تقبَّلوا زواجنا على مضض.

طلاقي كان فضيحة لأنِّي قد تقمَّصتُ دور الرجل. كأنِّي الزوج الذي تزوَّج على زوجته، كأنِّي من طلَّق زوجته، أم أولاده، وتزوَّج أخرى. فأنا تركت ابنتيّ: الكبرى في العاشرة من عمرها، والصغيرة في السادسة، لأنِّي لم أجرؤ على المطالبة بهما. أسأل (محمد) أن يذهب إلى حيّنا ويعلم ابنتيّ بمجيئي، لنتبادل النظرات ونضحك، وهو يقول لي إنَّه سيطلب ذلك من صاحب الدكان، أو من الولد الذي يعمل فيه.

أمسك قلبي خوفًا من أن تُمنع ابنتاي من رؤيتي. أدور في الغرفة وكأنِّي حيوان في قفص، إلى أن أسمع رنين الجرس، فأسرع أفتح لهما الباب، وأسألهما وأنا أضمهما إلى صدري إذا عرف أحد في البيت بأمر مجيئهما، فتجيبني فاطمة بأنَّهما كانتا تلعبان في الزاروب.

وإذا بحنان تسألني بتوجُّس وبخوف إذا كان «الدكتور» موجود، ولا أفهم ما ترمي إليه، وعندما ردَّدت سؤالها مرّة أخرى، أفطن أنِّي كنت قد أوهمتها بأنَّ غرفة محمد هي غرفة «الدكتور» عندما اختبأنا خلف باب غرفته. تمطرني حنان بالأسئلة في ذلك الوقت: لماذا لم يفحصها الدكتور؟ ولماذا لم «يشكّها» بالحقنة؟ لماذا لم يدعها تلعب مع البنت الصغيرة؟ أطمئن حنان الآن بأنَّه لا يوجد «دكتور»، وأقبِّلها، وأقبِّل أختها فاطمة من جروح قلبي، خصوصًا وأنا أرى ضفائر شعرهما، التي اعتدت على تضفيرها، وأمنع نفسي من البكاء عندما أتذكَّر كيف كنت أعضّ أياديهما أكثر من مرّة كلَّما عاندتاني في الطريق، ورفضتا السير.

تحين نظرة من حنان إلى السجادة الصغيرة التي فرشتها في الغرفة، وتصيح « يي يي السجادة المسروقة » . وكانت هذه السجادة العجمية الصغيرة قد مدّت على السطح تحت أشعة الشمس، مع سجادتين أخريين، بهدف أن يكنِّسها زوجي في اليوم التالي قبل أن يرشّ عليها حبات النفتالين، ثم يلفُّها ويضعها فوق الخزانة . صمَّمت على سرقتها، ووجدتني ألفّها منادية ابنتي الكبيرة طالبة إليها حمل هذه السجادة إلى غرفة محمد سرًّا، ثم أسرع قبلها، وأستلم السجادة منها منبِّهة إياها أشدّ التنبيه ألاّ تخبر أحداً .

وما إن جاء زوجي من عمله قبل الغروب، وصعد لتوِّه إلى السطح حيث السجادات الثلاث، وافتقد السجّادة الصغيرة حتى فقد عقله . قلب السجادتين آملاً أن يجد الثالثة تحتهما، بحث في أنحاء السطح، وتفقد جوانبه، فربّما قام برميها أحد الأولاد . هبط كالمجنون يبحث عنها في البيت، سأل عنها فرداً فرداً، دقّ أبواب الجيران، حقّق مع الشحاذين، إنتظر إطلالة المقشِّش الضرير « إيليّا » الذي كان يتردَّد على بيوت الحيّ، ويقشِّش كراسيهم، ويعيدها جديدة . ومع كل هذا اللغط والقيل والقال بقيت ابنتي الكبرى متماسكةً . حافظت على السرّ ولم تفشه إلى أحد . أحاول أن أصرف ابنتي الصغيرة عن موضوع السجّادة، وهي تتحسَّسها، وتسألني عن الضرير « إيليّا »، وكيف سيعرف أنَّ السجادة المفقودة قد تمّ العثور عليها، وهل نذهب ونبحث عنه ونخبره بذلك حتى يعود يقشِّش لنا الكراسي؟ وكان « إيليّا » قد توقَّف عن المجيء إلى حيِّنا بعد أن استجوبه زوجي عن

السجادة، كأنَّه يتَّهمه بسرقتها. تعود ابنتي الصغيرة إلى البيت فرِحةً بأنَّ الضرير إيليّا، مقشِّش الكراسي، لم يسرق السجادة العجمية، إذ قد رأتها على الأرض في بيتي المكوَّن من غرفة واحدة. وكانت تحبّ إيليّا. تجلس أمامه تراقبه، طوال الوقت، غير مصدِّقة أنَّه يمدّ القش مستدلاً على الثقب الكبير في الكرسي، مع أنَّه ضرير، فتنحني لتتأكَّد من أنَّه فعلاً لا يبصر، وتأتي له بالبرتقال لتراه وهو يقشِّر البرتقالة ويأكلها. ينتشر الخبر في البيت وفي الحيّ أنِّي سرقت السجادة. يروح زوجي السابق وابن شقيقتي من زوجي، الشاب العقائدي يمنعان ابنتي من زيارتي، لكنَّهما كانتا تتسللان لرؤيتي في أثناء لعبهما في الزاروب. وأقصد مدرستهما لرؤيتهما طالبةً إذنًا من المديرة، وأخبرها عن طلاقي وزواجي بمن أحبّ، فتهنئني المديرة على ما أقدمت عليه، وتصفني بالجرأة.

تعجبني صفة «جريئة» التي أطلقتها عليّ، بدلاً من أنانية، «طايشة»، وهما الصفتان اللتان تلازمانني حتى قبل أن أطلِّق، وأتزوَّج (محمد)، ويزيد زوجي السابق على هاتين الصفتين ويلقِّبني بالمزفِّتة «من زفت وقطران». تضحك المديرة وتخبرني أنَّها ابنة العلاّمة... ولم أصدِّق، فقد كانت ترتدي بلوزة من غير أكمام، وتنتعل صندالاً ذهبيًّا، وترفع شعرها المصبوغ عن رقبتها وكأنَّها امرأة أجنبيَّة. ثم أفهم، بعد مدّة، تعاطفها معي كل هذا التعاطف، فوالدها المرجع الشيعي الكبير كان متزوِّجًا امرأة عراقيَّة، وكانت المديرة خرِّيجة الجامعة الأميركيَّة، ومع ذلك كان أخوها يتعقَّبها من

مسبح إلى آخر، فيكتشف المايوه الذي كانت قد أخفته داخل منشفة، لكنّها تمضي في كذبتها مبرِّرة نفسها بأنَّها تلبس المايوه، وتسبح بالبانيو، بعد أن تملأه بالماء. وعندما واجهتها أمها بآثار الرمال على المايوه، هزَّت المديرة كتفيها مستخفَّةً بأمّها بأنَّها قد أتت بالرمل عمداً، حتى تشعر بأنَّها فعلاً تسبح في البحر، وتضيف: «وكمان بحطّ ملح وشوية حشيش».

أتكمّش بهذه الكلمة «الجرأة» وكأنَّها مرهم يبلسم جروحي. «أنا جريئة» كذلك محمد. تحدَّينا المجتمع، فتناقلت فضيحة طلاقي الألسن، لم يقف أحد ويشير إلى صِغر سني عندما أُجبرت على الزواج بزوج شقيقتي بل أشفق الناس، وأشفقت العائلة على زوجي السابق وعلى ابنتي، ونبذوني، ما عدا شقيقي عاشق العود وزوجته وأخي كامل. تحقد أمي عليّ، من شدّة حقدها على محمد. تعتكف ابنة شقيقتي الملاك في البيت خوفًا من أن يتَّهمها زوجي السابق، وشقيقي العابس، بالتواطؤ معي.

تقاطعني جميع النساء اللواتي كنت أدعوهنَّ لحضور الإستقبال في بيتنا، يقاطعني جيران حيِّنا. أحارب الجميع بسلاحي الوحيد: حبِّي لمحمد، وأنا أتصوَّر تعاسة النساء اللواتي كنت أعرفهنَّ لأنَّهنَّ لم يذقنَ طعم الحب والعشق مثلي، فأزواجهنَّ لا يشاهدون الأفلام مثلي ومثل محمد، لا يفهمون الأغاني وينفعلون بها، لا يكتبون الخواطر، ولا ينسخون الأمثال، ولا يحفظون الشعر ويتلونه غيبًا. أقرِّر أن أكتفي بمحمد، وأحذف الجميع من الوجود كما قاموا

بحذفي، وأتخيَّل نفسي عائمةً في نهر، أتجاوز الأشجار والصخور، وأتركها خلفي ولا أنساها، أترك خلفي الجارة، ذات العلاقة بجار متزوِّج، كان يفصل بين بيتها وبيت عشيقها، باب مقفول رُكِّزت عليه الخزانة كانت تبعدها إلى جانب آخر في فصل الصيف، كلَّما ذهبت عائلة جارها إلى الجنوب. أترك طاهية بيت الجيران ومدبّرته وعلاقتها بابن العائلة، لدرجة أنَّه لم يتزوَّج وفاءً لها. أترك خلفي قصصًا غراميَّة وجنسيَّة لا تعدّ ولا تحصى، تترعرع بكلّ أمان ما دامت سريَّة، أكمش لساني حتى لا يصيح: «اللي ساكنين ببيوت من زجاج مش لازم تراشقوا حدنْ بالحجارة». أتحدَّى الجميع، وأتركهم خلفي ما عدا أمي، وزوجة شقيقي العابس، وأولادهم. تتأكّلني الغصّة وأنا أفكِّر بأنِّي أترك خلفي ابنة شقيقتي الملاك، وكيف كنَّا نتواطئ معًا، نحوك الحيل والأكاذيب لنرفع رأسينا من الماء الذي كاد يغرقنا.

تمرّ الأيام، وهوسي ببيتنا وحيّنا القديم لا يفارقني. أكمش نفسي وأنا أهبّ من قيلولة بعد الظهر وقلبي يخبِّط. أبحث عن حذائي وسترتي وفيشتي السوداء من أجل الإسراع إلى بيتنا، وكلي رعب بأنِّي قد تأخَّرت. وما أن يحطّ نظري على الإيشارب الحريري الملوَّن الذي بدأت أضعه على رأسي بدلاً من الفيشة السوداء، ومشّاية قدمي بدلاً من حذائي، حتى أهدأ وأنا أمسك قلبي. أتقلَّب في الليل، أتساءل: «لماذا لم أعد أسمع وقع حنفية البركة؟ وهل ما زالت السمكة الحمراء تسبح فيها؟ كيف أستطيع أن أدخل بيتنا خلسةً، وأطلب إلى ابنة شقيقتي الملاك ألاّ تدهن رأسيْ ابنتيّ بالكاز إذا ما غزا

القمل والسيبان رأسيهما، بعد أن رأيت إحدى الأمهات تنقّي السيبان من شعر بناتها في الشرفة قبالتي.

أودّ أن أقف إلى جانب ابنة شقيقتي الملاك، على سطح بيتنا، عند إعادة جثمان رئيس الوزراء الذي اغتيل في عمّان، فأشهد جنازته، وأحشر رأسي مع بقية أفراد العائلة لأرى ما يرسله ابن شقيقي العابس من هدايا ورسائل من أميركا. أفكّر بكل لوعة إذا لم يخصّني بسلام لأنّي أصبحت عمّةً غير مرغوب فيها. لكنّ حزني الشديد يتحوّل إلى كبت، ثم إلى غضب، ثم إلى كآبة عند عودته من أميركا، في الوقت الذي أسمع عن الاحتفالات التي جرت على قدم وساق في بيتنا، حيث نُحرت الخراف وزغردت النساء، وذلك حين ترجّل ابن شقيقي من موكبه الذي ضمّ أهمّ الشخصيات. أكتفي بإمساك الصحيفة التي كتبت خبر عودته، وأطلب إلى محمد أن يقرأها لي أكثر من مرّةً، متباهيةً كلّ التباهي أمام إخوة محمد.

ولم تعد الروح إليّ إلاّ عندما تزوّجت ابنة شقيقي الملاك. فنعود كقطعة المغناطيس التي قُسمت إلى قطعتين، خصوصاً أنّها تزوّجت بالرجل الذي تحبّ، رغم خوفي من أنّ الحاج لا بدّ أن يتزوّج امرأة تدبّر له شؤون البيت، وهكذا حصل. تزوّج امرأة جنوبيّة كان قد طلّقها زوجها لأنّها لم تنجب له أولاداً، وأسمع أنّها قروية خالية من مسحة الجمال أو الدلال، لا تعرف بيروت، ولا تحبّ الضحك والمزاح. ولم أصدّق أنّ زوجي السابق قد تزوّج، لأنّه سبق وعانى من زوجة أبيه التي كان يهرب منها ليزور أمه سيراً على الأقدام، لمدّة يومين، بين

الحقول والأودية. لكن كيف ألومه وأنا لم أترك له الخيار؟ من التي سوف تكنِّس، وتمسح، وتغسل، وتطبخ؟ ولن أتساءل من تكون؟ لأنِّي لم أمسك المكواة قطّ في بيتنا. أجلس وابنة شقيقتي الملاك، مع زوجينا، والقاسم المشترك بيننا هو الحب، ووقوعنا نحن الأربعة في الحبّ المسروق، ثم عيشي أنا وابنة شقيقتي طفولةً موحشة، تكاد تكون مخيفةً. أضحك أنا وابنة شقيقتي حين أخبرها كيف يرسل لي الحاج الشحاذين الذين مازالوا يدقّون باب بيتنا، بينما يفتح لهم محمد الباب ويقول لهم بالفرنسية complet بعد أن ضاق ذرعًا بعددهم. كذلك تبرّم بأقربائي في الجنوب الذين كانوا يطلبون إليّ أن يتوسَّط لهم محمد في كل شيء: لإدخالهم المستشفى، ولحلّ مشاكلهم المتعلِّقة بالدولة، حتى الزراعيَّة منها. وتقصدني مرةً خالتي ذات الحيّة في البطن، عند الظهر، موعد قدوم محمد إلى البيت، فأطلب إليها أن تصعد إلى السطح وتنتظرني في الظل، ريثما يتناول محمد وجبة الغداء، ويأخذ القيلولة. لكنَّها أخذت تحوم من طرف السطح إلى طرفه الآخر، وتنادي الناس، وتغنِّي، ليراها الجيران ويظنُّوا أنَّها متسوِّلة، فتنكشف حيلتي، ويراها محمد رغم إرادتي، فأنا لم أكن أودّ أن يعلم بأنَّ لي خالة تظنّ أنَّ في بطنها حيّة، تستعطي «الرايح والجاي». تخبرني ابنة شقيقتي الملاك بدورها، وكانت حاملاً، كيف تبكي ابنتي حنان حين تريد زيارتها دائمًا، فيأتي بها الحاج بين وقت وآخر، وتنام في سرير المولود. فأبتسم للخبر مع أنِّي كدت أغصّ بريقي.

«أنا من القوم الذين حلّت بهم المصيبة»

يهزّني محمد من نومي، ويخبرني أن ابن شقيقتي من الحاج، الشاب العقائدي، حاول اغتيال القاضي، رئيس محكمة الشورى التي حكمت على أنطون سعادة بالموت عام ١٩٤٨ . وكان ابن شقيقتي قد انتمى إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، وجاء بالزوبعة الحمراء، وبصورة رئيس الحزب أنطون سعادة وعلّقها في الدار. منذ أن علم محمد بانتماء الشاب العقائدي إلى هذا الحزب وهو يلحّ عليّ لأسدي له نصيحةً: وهي أن ينسحب من هذا الحزب لأنَّ السلطات تقف ضدّه. لكنِّي لم أكن أجرؤ على الكلام معه، بل كنت أتحاشاه، فهو كان قويًّا، متمرِّدًا، ذا شخصيَّة نفّاذة، نظراته الثاقبة لي تحمل معاني كثيرة.

يهرب العقائدي بعد أن أثار الشبهات عليه عمداً، وذلك قبل يومين من إطلاق الرصاص، كي يلاحق شخصيًّا، فيحمي أعضاء

الحزب. وما إن تبلّغ الأمن العام خبر الاغتيال حتى اختير (محمد) ليكون من بين رجال التحرّي الذين سوف يقتحمون بيتنا ليبحثوا عنه وعن الأدلة، ويستنطقوا أفراد العائلة واحداً واحداً. يرفض محمد أن يمتثل لأمر رئيسه، شارحًا له أسبابه الشخصيَّة. فهل من المعقول أن يدخل بيت حبيبته الذي كان محظوراً عليه، وفي يده مسدس يخيف أفراد العائلة كلّهم، وهؤلاء يهابون رجال التحري؟ رغم قلقي وخوفي على الشاب العقائدي إلاَّ أنِّي أخذت أتصوَّر أنِّي ما زلت في بيتنا لأرى محمد في غرفتي، يخرجني من فراشي، ويدعني أسير أمامه، والمسدس في يده، وهو يقول لعائلتي ولباقي رجال التحري إنَّه سيأخذني للتحقيق معي، فيجرّني إلى غرفته الصغيرة لنبقى بها حتى اليوم التالي، فأعود إلى البيت من غير أن أثير الشبهات والتساؤلات.

لم أشأ أن يذهب محمد إلى مكتبه في اليوم التالي خوفًا من أن تظنّ عائلتي أنَّه يبحث عن ابن شقيقتي. أتمنَّى لو أتحوَّل إلى القطة التي كانت تأتي إلى بيتنا لأطعمها، والتي أخذت أمي تطعمها بالنيابة عنِّي، كما أخبرتني ابنتي. أدخل البيت وأجلس مع نسائه. فالمصيبة كبيرة. سيق الحاج وابن شقيقتي «الأوسط» إلى التحقيق. عدم تجاوب الحاج مع رئيس المحقّقين وردّه عن كل الأسئلة بجملة واحدة: «العلم عند اللّه»، جعل رئيس المحقّقين يفقد صبره، ويصفعه على وجهه، ومع ذلك لم يزد الحاج كلمة واحدة على تلك الجملة. لم يبدّل لهجته، ولم ينظر إلى وجه من يستجوبه. وأخبرني محمد بكلّ ما يحصل خاصة أن ابن شقيقتي «الأوسط» قد سجن، وربما

تطول مدة سجنه، بهدف الضغط على العائلة حتى تعترف، وتدلّ السلطات على مخبأ الابن العقائدي. هذا رغم أنَّ الابن «الأوسط» كان محبِّذاً لحزب البعث، ذي المبادئ السياسية المتناقضة لمبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي. عندما اعتذر محمد لرئيسه رافضاً أن يدخل بيتنا مع بقيّة رجال التحري، تفهّم رئيسه الوضع، لكنَّه عاد يشرح لمحمد، بطريقة غير مباشرة، أنَّ أسبابه الشخصيَّة في هذه المسألة ربما ستفيده، وتعزِّز مكانته في الأمن العام، بل إنَّ الترقية ستكون جاهزة على صينية من فضة إذا ما هو اشتمّ أخبار الابن الهارب، فيجيبه محمد: «أعرف جيّداً المثل القائل: «مصائب قوم عند قوم فوائد»، لكن أنا من القوم الذين حلّت بهم المصيبة».

أفرح بهذا القول، وأرسل مرسالاً مع زوجة شقيقي عاشق العود شارحةً لعائلتي توصيات محمد لهم، وأولها عدم التحدُّث إلى الصحافة، وعدم إعطائهم صور الشاب العقائدي، إذ حدث فور انتشار محاولة الاغتيال، أن هرعت إلى بيتنا قريبة زوجة شقيقي العابس التي يملك أخوها صحيفة يوميَّة من أهمّ الصحف في لبنان، تسأل عن صور العقائدي، فيقدِّم لها سكان البيت كل صوره، فتختار منها ما تشاء، وكل ظنِّهم أنَّ القريبة قد أتت لمساعدتهم، وقد غاب عن بالهم أن نشر صوره في الصفحة الأولى من الجريدة سيساهم في تعميم هيئته، وفي القبض عليه، خصوصاً أنَّ القريبة اختارت صورة له وهو يرفع التحية الحزبيَّة «تحيا سوريا»، وأخرى وهو يعرض فيها عضلاته. وكأنَّ أهل بيتنا قد وقعوا تحت سطوة المحققين،

والجرائد، ولم يفرحوا ولو سرًّا لاختفائه، ولم يفكّر أحد منهم بأنَّه لو عثر عليه فإنَّه سيلاقي أصعب العقوبات، وربما الإعدام. كان جميعهم مسالمين، ضد العنف، ولا بدّ أنَّهم غضبوا مما أقدم عليه، ووصفوه بالتهوُّر، بالأنانية، لأنَّه لم يفكِّر بمستقبله، ولا بالألم الذي ألحقه بوالده واخوته. وعندما مضى أسبوع على غيابه، همس محمد بأذني وهويتنفَّس الصعداء: «خَلَصْ هَرَبْ، اللّه يكون معه». ووجدتني أتنفَّس معه بفرح، وأنا متفكِّرة بأنَّ ما من أحد غيري أدرك لماذا أقدم ابن شقيقتي العقائدي على فعلته هذه. كان ضدّ الظلم، وفي اعتقاده أنّ أنطون سعاده قد ظلم، ووالده قد ظلم، عندما أخذ محلّه منه، ولا أذن تَسمع ولا عين ترى...

لذلك قام بتهديد شريك زوجي... واعداً بالانتقام منه في أول فرصة. باختفاء ابن شقيقتي العقائدي أخذت ابنتاي تزورانني يوميًّا، أودّعهما بالفاكهة التي كنت أمنحهما إيَّاها من غير وجل أو خوف.

«خراء السعدان»

أحاول بكلّ ما لديّ من مرح ودعابة أن أُبدّل بيتنا ببيت أهل محمد من غير فائدة. فهودج الجمل لم يعد يرفعني على الرحب والسعة، لم يعد عشّ غرامنا، لم يعد يهدهدني ويطمئنني، بينما كان بيتنا رؤوفًا بي رغم خوفي من شقيقي العابس، ويعجّ بمن يستلطفني ويحبّني. فيه أمي، فيه ابنتايّ، زوجة شقيقي العابس وأولادهم، ومن حوله الجارات اللواتي ينادين بعضهن بعضًا من النوافذ والشرفات والسطوح. كنت قد ظننت أنّي جذبت سكّان بيت محمد إليّ، وذاب الثلج القائم بيننا، إلى أن أتاني البرهان بأنّ كل فرد منهم يتمنّى لو أختفي من هذا البيت ومن حياة محمد، وبأنّ خوفهم من محمد فقط هو الذي جعلهم يبلعون ريقهم ويتحملونني. كان محمد قد نُقل من جديد إلى إحدى المحافظات،

لمدة أسبوعين، فظننت إبّان هذين الأسبوعين أنّي سأستميل سكان البيت إليّ، خصوصاً أنّ الغيرة لن تدبّ فيهم إذ لن يتخيّلوا، كالعادة، ما يجري خلف باب غرفتنا من حب وعشق إلى أن يعود محمد. وكنت قد بقيت سجينة غرفتي، فهو قد طلب إليّ ألاّ أفارق البيت إلاّ مع أخته، أو مع زوجة أخيه، منعاً للقيل والقال. ورغم غضبي الذي صعد إلى حلقي لطلبه هذا، فلقد انصعت إلى مشيئته كي لا أمنحهم فرصة التفكير بأنّه من السّهل عليّ الوقوع في غرام جديد، فأقدم على الخيانة من جديد: «واللي بتعملها مرّة، ليش ما بدّها تعملها ثاني وثالث مرّة».

يعود محمد إلى بيروت، ويدخل البيت، وما إن يراني في استقباله حتى يهتف: «يا اللّه شو إنت حلوة... هلّق عرفت ليش بموت فيك... يا اللّه شو أنت حلوة». تمرّ لحظات، وأقصد المطبخ حافيةً لآتي لمحمد بالفاكهة التي كنت قد أعددتها له، فأسمع زوجة أخيه تقول للبقيّة بخيبة كبيرة: «يعني العذاب اللي تعذّبناه لنجيب «خرا» السعدان راح عالفاضي»، فيجيبها زوجها: «يللا عجّلي روحي شيلي الخرا قبل ما تطلع ريحتو». أعود أدراجي على رؤوس أصابعي، أفتح الباب الخارجي لأرى في زاوية من مدخل البيت «خراء» لم أرَ مثل سواده من قبل. لم أستطع إلاّ أن أضحك، رغم حنقي، بينما أخت محمد تخبرني القصة بتفاصيلها في اليوم التالي، وكيف أنّ نتيجة خطّتهم كانت معاكسة، كأنّ السهم الذين أطلقوه

عليّ يعود إليهم، إذ المفروض أن يراني محمد، ما إن يقع بصره عليّ، قبيحةً كخراء السعدان الموضوع عند مدخل البيت.

منذ حادثة «خراء السعدان» هذه، وأنا أتوجّس من كلّ فرد من عائلة محمد، ما عدا أخواته الثلاث. لذلك عندما كان ابن أخيه الكبير يساعد أمّه في زرع الحديقة الصغيرة، رمى لها السّكين التي غزّت في ساق ابنتي فاطمة الواقفة تتفرّج عليهما. خالجني الشكّ بأنّ ما حدث لم يكن قضاء وقدراً، بل عمداً وعن سابق تصميم، رغم أنّ (محمد) قد استبعد الأمر إلاّ أنّه وعدني بأنّه سيعمل كي ننتقل إلى بيت خاص بنا. في هذه الأثناء كان يزيد حبّنا اشتعالاً كلّما شعرنا بأنّ هناك من يحاربه، كلّما اتحدنا معًا، فأنا باختصار معبودته. يقصّ بالمقص قطعةً صغيرة من فستان أقرّر رميه، أو لأنّه ضاق عليّ، أو لأنّ موضته لم تعد تعجبني. يلتقط شعرة سوداء من شعري التصقت بسترتي، أو هرّت على الشراشف، ليخبّئ هذه الأشياء جميعًا في محفظته. نذهب معًا إلى دور السينما، فأمسك ذراعه سعيدةً فخورةً. يصحبني إلى الخياطة التي كانت قد خاطت، قبل طلاقي، جهاز زواجي الأول وكل فساتيني، فأقف أمامها هذه المرّة من أجل أن تخيّط لي فستانًا واحداً، بينما يجلس محمد يختار لي الموضة، فأشعر من جديد وكأنّي في فيلم سينمائيّ، أحاول أن أرى نفسي في عيني من أحب. وما إن نغادر حتى يسألني: «لماذا هذه الخياطة بالذات؟». ولم أعرف بماذا أجيبه، لكن أجبت نفسي عن هذا السؤال بعد أشهر: هذه الخيّاطة هي حياتي الماضية، إذ رغم حبّي

الشديد لمحمد، ما زلت أشتاق إلى بيتنا، وإلى حياتي الماضية، عندما كانت مسؤولياتي تعمُّها الفوضى، أيام طبخي المحروق، وغسيلي غير الناصع، وتنظيفي غير النظيف.

أما الآن فعليّ أن أكون ربّة بيت، ومن طراز جديد. أشعر تحت وطأة هذه الواجبات وكأنّي تلميذة عليّ أداء واجبي على أحسن وجه، وإلاّ أغضبت أستاذي. عليّ أن أحضِّر الطعام، وأضعه على الطاولة، لا كما كنّا نأكل في بيتنا وقوفًا، بعد أن نغرف من الطنجرة في الصحن كلّما جعنا. عليّ أن أضع هناك مناشف نظيفة دائمًا، وأن أعثر على الزرّ الذي وقع في قميصه، وأن أنتبه من حرارة المكواة حتى لا تحرق بنطلونه، وأن أشدّ على ياقة القميص، وأرشّ عليها الماء حتى تبدو مستقيمةً. كلّ هذا كان عكس شخصيّتي التي هي عبارة عن نفاذ صبر دائم. وأخذ محمد يطلب إليّ أن أتذكّر ما كنت أنفقه، فما إن يمضي من الشهر أسبوع حتى أكون قد أنفقت كلّ راتبه. يطلب إليّ أن أخبره كلّ ليلة بما اشتريت حتّى يقوم بتسجيل مصاريفنا. أشعر كأنّ مفكّرته هذه تقيّدني اكثر من إخفاء الحاج عنّي المال، وشراء ما نحتاجه بنفسه. ويكتشف محمد أنّي لا أعرف أن أعدّ النقود، بل أبسط يدي بما أملك للبائعين ليأخذوا ما يريدون، ويعيدوا إليّ الباقي. يكتشف أنّه لا يستطيع الاتّكال عليّ، وهو يرى ما يقارب عشرين بيضةً علىَ الطاولة بعد أن غشّني بائع البيض، فأقنعني أنّي إذا اشتريتها كلّها أنقص لي السعر.

أسأل نفسي ترى: هل بدّلت خوفي السابق وأنا في بيتنا هناك بخوف آخر، أكثر تعقيداً؟ تأتي ابنتي الصغيرة في فرصة الظهر، وأنا أدقّ اللحمة على البلاطة عند المصطبة، قرب الحديقة، أعدّ طعام الغداء لمحمد. تأتي ابنتي معها قماش لأخيّط بنطلوناً قصيراً للرياضة يصل إلى فوق ركبتيها، كبنطلون أختها. أقول لابنتي إنّي سأخيّطه لها بعد الغداء، فإذا أتت في صباح الغد كان جاهزاً. تأخذ في البكاء وهي تقول إنّ المعلّمة ستضربها لأنّ درس الرياضة بعد ساعتين. ألتفت حولي وأنا في حيرة من أمري: هل أترك اللحمة، وأهرع إلى غرفتي، حيث مكنة الخياطة، وأخيّطه لها، ثم أشرح لمحمد ما حصل، مع أنّه قد يكون في أشدّ حالات الجوع؟ لا بدّ أن ابنتي سمعت التنهدات وأصوات الحيرة الصادرة عنّي، فتقترح عليّ أن تستعير بنطلون أختها الكبيرة، وكلّ ظنّها بأنّها ترفع العبء عنّي. لكنّ العبء أخذ يكبر، ويتشعّب، ويجعلني أتساءل لماذا أخاف من محمد كلّ هذا الخوف؟ لماذا تمرّ ببالي، ولو للحظات، فكرة العودة إلى بيتنا، حتى إلى الحاج؟ هل لأنّ الحياة بعد زواجي بمحمد أصبحت أكثر جديّةً، وعليّ مراعاة أدقّ التفاصيل؛ كأنْ أحاسب نفسي على الطريقة التي أضحك بها، على جملةٍ يطلقها لساني؟ أعليّ أن أطويَ صفحةً من شخصيّتي السابقة قبل الزواج بمحمد، وأنا أسمعه يردِّد: «مشان قيمتي يا كاملة! مشان مركزي؟».

أنجب ابنتي الثالثة ـ أ ـ، المولودة البكر لمحمد، فأعي ما كنت قد افتقدته في تربية ابنتيّ.

أرى (محمد) يجلس يحادثها وهي ترضع، يصفها وصفًا دقيقًا، يخبرها لماذا دعاها باسمها، يسجِّل في مفكِّرته ميعاد ظهور سنّها الأول، وأضراسها، ثم كيف ترضع، كيف تتجشّأ، كيف تقف وقفتها الأولى، كيف تخطو الخطوة الأولى، كيف لا تنام إلاّ إذا عبثت أو لعبت بشعري؟ لم أصدِّق أنَّنا نقيم لها حفلةً صغيرةً في عيد ميلادها الأول، تمامًا كما في الأفلام، فأدعو ابنتيّ، وأخي (كامل)، وشقيقي عاشق العود، وزوجتيهما، وأمي، وبعض إخوة محمد وأخواته. يحاول محمد أن يرطِّب الجوّ حتى نبتهج كلّنا بهذه المناسبة السعيدة، لأنَّ شبح طلاقي وظروف زواجنا مازالت تهيمن على جميع المدعوِّين.

ما إن ننتقل إلى بيت خاص بنا حتى أحمل بطفل آخر، ولم أفكِّر يومًا بأنَّ هذا الطفل سينال الغنج والاهتمام من محمد كما نالت - أ - لكن عندما أنجبت صبيًّا كادت الأرض تميل بنا من كثرة المهنِّئين والمهنِّئات، إلى درجة أنَّه خيِّل إليَّ أنَّ الجدران أخذت تسمع صدى الأشعار، وكلمات المديح، وأبيات الزجل التي راحت تمجِّد مولودي لأنَّه ذكر. وهكذا طويت صفحة موضوع طلاقي، فأنا أستأهل أن أكون زوجة محمد لأنِّي أنجبت له وليًّا للعهد. وأدركت لماذا أطلقت الخياطة فاطمة على محمد « هاي لايف »، فهم من عشائر « المولى »، ولديهم شهادة مصدَّقة تشهد بأصلهم وفصلهم. ولقد اشتهر والده بمحاربته للأتراك، وبقوّته إلى حدّ أنَّ الناس في قريته، والقرى المجاورة، كانت تخاف حتى من فرسه، فبقي مختاراً في بلدته لمدة أربعة وثلاثين عامًا.

دُعي مولودي من بين الألقاب التي تحدّثت عنها الأشعار «بالملك الصغير». وأجمل ما علق في ذهني هذا البيت من الزجل: «لو كنت ليلة مولودو موجود.. لكنت لبّست جسم الليل ثوب نهار». لكن سرسبة محمد على مولودنا كانت عظيمة. يلومني إذا أصيب بالزكام، بالإسهال، ويطلب إليّ بجملته المعهودة: «لازم خلّيتيه يأخذ برد حتى رشّح وصار يسعل، وصّيتك تديري بالك عليه كرمالي يا كاملة».

أرتعب شاعرةً بأنَّ مولودي بحاجةٍ ماسةٍ إليّ من أجل أن يتعافى، وبأنَّ مسألة موته أو حياته مرهونة بي لا بإرادة اللّه، أو معاينة الأطباء له. لذلك كنت أريد (محمد) أن يجلس إلى جانبي، وأن لا نفارق سريره إذا عطس ابننا، أو سعل سعلةً واحدةً.

أعود إلى وظيفتي السابقة «حمير الحجارة»، أفرغ حمولةً، وأملأ حمولةً، لا على ظهري، بل في بطني. أحمل بمولودي الثالث، وأنجب بنتًا خضراء العينين، وأكمش نفسي مرّة، والحليب ينزّ من ثديي، وأنا أنحني لحملها وكأنّي إحدى البقرات في بستاننا في النبطيّة، «لأمهر» مثلها، وألحس مولودتي بلساني، كما كانت تفعل البقرات. وتسرع أمّي، التي انتقلت لتعيش معي، وكأنَّ الروح قد رُدّت إليها: «ولِكْ يا كاملة عم أسمع البقرات بيمهروا، معقولي بنصف دين بيروت في بَقَرْ؟ دخيل أجريك بدي روح فتّش عليهن».

وكان محمد قد جاء بالقابلة القانونيّة إلى البيت من أجل أن تولّدني

إذ لم يعد بإمكانه دفع تكاليف المستشفى، فتحمل أمي «خلاص الولادة» في «وعاء» تغطِّيه بحرام، وتصحب معها ابنتيّ فاطمة وحنان بعيداً، إلى أن تجد «بورة» نائية، وتأخذ بالبحث عميقًا، عميقًا بيديها، ثم مستعينةً بكيلة، ترمي «خلاصي» في الحفرة، ثم تطمره بيديها. تجلس هي وابنتاي يحرسْنَ «الخَلاَص» لمدّة ساعة، ريثما تموت رائحته، ولا يجذب إليه الكلاب أو القطط.

أقول لمحمد إنّ الخلاص هو الذي يأتي مع المولود، وليست الرزقة، حين يراني أفتِّش عنها في حفاض مولودتي، أبحث في أذنيها، أقلبها إلى جانب آخر.

ولما كنت أحبّ الحلي، والفساتين الجميلة، والأحذية، حتى بات المال يتسرّب من بين أيدينا كالماء من زجاجة مثقوبة، أخذت أكتفي بالوقوف صباحًا لأودِّع محمد قائلةً بصوت عال لتسمعه الجارات «أوعى تنسى تمرق عالصايغ، وتجيب لي المباريم، وتسأله إذا صلّح جوز الحلق؟»

رغم انتقال أمي إلى بيتي، ومساعدتها لي في تربية أطفالي، ورغم أنَّ (محمد) قد أتى لي بخادمة، هذا إذا تحمّلت فراق أهلها ولم تهرب، إلاّ أنِّي كنت دائمة التعب والإرهاق نتيجةَ إصابتي بنزيف تلو الآخر، كان يجرف معه الجنين أحيانًا إذا لم يتكمّش هذا بجدار رحمي كالكمّاشة. ومع ذلك لم يتدخَّل الطبيب في اسداء النصائح الطبِّيَّة لي في مسألة حملي، وإجهاضي، والنزيف في أثناء حملي.

ولم نتشاور أنا ومحمد بأنَّه علينا التوقُّف عن الإنجاب ريثما يتعافى جسمي، وريثما تتحسَّن حالتنا الماديَّة، رغم أنَّ (محمد) ترقّى في وظيفته، فصرنا نُدْعى إلى حفلات أعياد ميلاد تقام لأولاد زملائه في العمل، ونذهب بصحبتهم إلى المطاعم. أتحدَّث إلى من هم خارج دائرتنا ومحيطنا، بينما تظلّ أفكاري مع أولادي في البيت، مع أمي التي شحّ نظرها، وثقلت همتها، فأجدها ذات مرّة نائمةً عند عودتنا من الخارج، بينما أطفالنا يلعبون في أيّ مكان. يعلِّق محمد بأنَّ أمي وأنا نعاني كلانا من مرض الكسل، فأجيب محمد: «أنت جِبْلي كيلو لحمة، بتشوف كيف بهبّ مثل النار، وبخبط هاللحمة وبعملها فَرَاكه، ولو بتشوف كيف بأكلها من نصف دين قوتي».

أعرف أنِّي كسولة، أفضِّل الاستلقاء، والنوم، والثرثرة، على شغل البيت، وتدبير شؤون الأولاد. أكنِّس الأرض غصبًا عنِّي، وبدلاً من الإتيان بالمجرور لألمّ به ما حصدته المكنسة، أرفع السجادة وأدفش كلّ الوسخ تحتها. كان محمد يفهم كسلي ويعرف أنَّه متأصِّل بي كلون عينيّ، لذلك عندما كان خارج بيروت في مهمة رسميَّة، وسمع عن الزمهرير الذي اجتاح العاصمة، وجد نفسه يأخذ سيارة، ويدخل البيت في منتصف الليل، يهرع إلى غرفة النوم حيث أولادنا، ليتأكَّد من أنَّ الأغطية محكمة حول أجسامهم، بعد أن تخيَّلني نائمة في الفراش من شدَّة الدفء والنعاس والكسل، بينما أطفالنا يرتعشون بردًا في أسرّتهم.

أحثّ نفسي لأصبح كالآلة، عاملةً في مصنع، تمامًا كزوجة شقيقي العابس، فأرى نفسي أقلّدها كيف تلمّ ملابس أولادها عن الأرض بأصابع قدمها، في الوقت الذي تحمل طفلها بيديها. أتهالك على الفراش بعد وقتٍ قصير، أرجئ كلام الغرام والوداد، ريثما تخفّ الآلام الناجمة عن أضراس أطفالي. أحاول أن أتأكّد من صحّة الفكرة التي تقول: «عندما يدخل الفقر من الباب يهرب الحب من الشبّاك». يأتي محمد، ويؤكّد صحّة هذه المقولة عندما يتمنّى، بل عندما يفكّر جدّيًّا لو يؤخذ إلى القمر كالكلبة «لايكا» شرط أن يُدْفع له المال الوفير، من أجل تربية أطفالنا وتعليمهم. أناجي القمر، وأشكو له تبدّل الأيام. ألم يكن القمر الخاطبةَ التي شبكتني مع محمد في بحمدون، وأنار لنا طريقنا، ودغدغ أعيننا وقلبينا؟ ألم يصفني محمد بالقمر... هو الآن يريد تركي والتوجّه إليه؟

«رأس الناقورة»

تأخذنا وظيفة محمد إلى رأس الناقورة عند الحدود اللبنانيَّة ـ الإسرائيليَّة، وما إن راح الجنود يفتّشون حوائجنا، ويتأهَّل الضبّاط بنا حتى أعود، من جديد، بطلةً من بطلات أفلامي، وأنا أرى الحديقة الوارفة، وأصعد الدرج، وأدخل غرفة النوم، وأرى البحر الأزرق يمتدّ أمام ناظري. كان ذا لون لم أرَ مثيلاً له من قبل إلاّ في «زوم» الغسيل الذي يُضاف إليه قرص «النيل». فأدور أغنِّي كليلى مراد بعد أن أسأل محمد باللهجة المصريَّة: «نحنا فين؟ براس البر؟ بالإسكندرية؟ بالمعمورة؟ أو بمرسى مطروح؟». وعندما يأتيني بالسمك كلّ يوم كبيراً وصغيراً، ملوّنًا وفضيًّا، أعرف أنِّي فعلاً قد ترقّيت درجاتٍ في المجتمع، إذ كان السمك بالنسبة إليّ من أهمّ المأكولات التي يسيل لها لعابي. كنت في طفولتي أشمّ رائحته من البيوت التي كنت أقف

على عتباتها وأنا أبيع القبّات، وكلّي شوق لو أذوقه، فأنا لم أكن قد رأيته من قبل في النبطية، رغم سماعي أنّ بيت فلان أو فلان جاؤوا بالسمك من نهر الليطاني. كنت كلّما توسّلت إلى أمي أن تشتري السمك، تعلّق قائلة: «لو السمك فيه خير ما كانتش بتطلع ريحتو». حتى الحاج لم يكن يشتري السمك: «شو نحنا نفر أو نفرين... واللّه جيش سمك ما بيطعمي الكل». هذا لم يمنع زوجة شقيقي من أن تشتري «سمك البزرة»، وتقليه مع الخبز، وتطعمني منه. كنّا نأكل المزيد من السمك كلّما ألقى الصيّادون «الديناميت» في البحر، فإذا أُخذوا إلى التحقيق، تركوا لنا السمك ولسائر الموظّفين.

كانت رحابة البيت المؤلف من خمس غرف نوم، وغرفتين واسعتين للإستقبال، بالإضافة إلى حجرات أرضيّة، هي التي رسخت في ذهني مركز محمد في الناقورة. وحين يشير إلى الحدود اللبنانيّة ـ الإسرائيليّة، ونحن نحتسي القهوة على الشرفة، حتى أكتشف أهميّة مركزه، في الوقت الذي يمتدّ نظري إلى طول الساحل، إلى الصخور والأراضي والسهول، فأفكّر فجأةً بـ«مفضّلة»، ابنة خالتي ذات الحيّة في البطن، التي كانت قد تزوّجت برجل فلسطيني تعرّفت عليه في جنوب لبنان، فانتقلا إلى فلسطين، ولكنّ أخبارها تختفي بعد ١٩٤٨. لو تعرف «مفضّلة» أنّي زوجة مدير الحدود. لو أعرف أين هي حتى أطلب إليها ملاقاتي، وأجبر محمد على أن يدعها تعبر الحدود، لربما توقّفت خالتي عن البكاء، وكذلك أمي، حزنًا على ضياع مفضّلة.

وكانت خالتي لم تتوقّف عن الركض صباحًا إلى الحدود وهي تنادي «مفظلة يا مفظلة». تحاول قصّ الأسلاك الشائكة بالمنجل وبالحجر، تضرب رأسها بالصخور حين تذهب محاولاتها سدى، ولا تتوقَّف إلاَّ عندما تشرّ الدماء على وجهها، ثم تذهب إلى الحدود من جديد، في عتمة الليل، لعلّها إذا صاحت: «مفظلة مفظلة» تعالى الصدى في فلسطين، وأعاد لها ابنتها.

أخذت أمضي أوقاتي في أثناء إنشغال محمد، بالسير مع الأولاد في الطبيعة مع زوجات بعض الموظَّفين، فأغنّي وأقصّ عليهن قصص الأفلام، فيثنينَ على تواضعي «وكأنّي لست زوجة المدير»، خصوصًا وهنَّ يرينني أنتشل بيدي الهندباء البريَّة، وقرص العنّة، والصعتر، والبابونج، فأكتفي بالابتسام وبالتنهّد، فكيف لو أقصّ عليهنَّ كيف كنت أتسلَّل وأمي إلى حقول القمح بعد غياب الحصادين، لنلتقط الحبيبات حتى نسدّ بها جوعنا؟

أسابيع تمضي أو عام يمرّ. أقرِّر مرّةً أن نبتعد في سيرنا أنا وزوجات الموظَّفين، بعد أن أصابني الضجر من المناظر نفسها، وحتى أرى عن كثب شجرة النخيل الوحيدة التي لاحظتها وأنا جالسة على الشرفة. وإذا بنا نسمع نداء موظّف، وهو يهرع خلفنا يخبرنا أنَّنا توغلنا من غير أن ندري في الأراضي الإسرائيليَّة، فتأخذ نساء الموظفين بالإرتعاش: واحدة تنادي «العذراء»، وأخرى «يسوع»، وثالثة يا «محمد»، ولم أنادِ أحداً. فضولي لا حدود له لأرى شيئًا

غير البحر والأمواج والزبد الأبيض والحصى الكبير المالس، والحشائش الخضراء. أنهض ذات صباح، وأقول لمحمد، وأنا أمسك برأسي «هلّق عرفت ليش سمُّوها رأس الناقورة... عم تنقر برأسي نقر». أسدّ أذني من صخب الأمواج التي أخذت تصدع رأسي، وكان محمد قد لاحظ تبدُّل طبعي، واختفاء ضحكتي التي لطالما جذبته إليّ، وكانت مصدراً لغيرته، ولم تعد قريحتي تتلقّظ بالنكات، ولم أعد أحاول التودّد للموظفين وزوجاتهم لأظلّ تلك المرأة المحبوبة. ولم أعد أحبّ الذهاب معه ومع الأولاد إلى شاطئ البحر، فرؤيتي للبحر أخذت تسرع من دقّات قلبي، وهيجانه يجعلني أمسك بالأولاد أريد الهروب بهم، خوفًا من أن تجرفنا أمواجه مع أنَّها بعيدة عنّا. وعندما لم أعد آكل حتى السمك، وما عدت أقوى على الوقوف، أتى لي محمد بالطبيب الذي دأب على زيارة رأس الناقورة مرّتين كلّ شهر، ليعاين الموظفين، من تلك «الحفرة النقرة».

يسألني عمّا أشعر به فأخبره عن صخب البحر، وعن الأمواج ورغبتي في البكاء حتى لو تبدّل لون البحر. يقول لي ولمحمد إنّي أعاني الكآبة التي تثيرها الأماكن النائية المنعزلة كالصحاري، والبحر، وهذا الأخير هو مصدر كآبتي. أبكي وأنا أخبره عن ابنة خالتي، فيهزّ الطبيب رأسه مؤكِّداً تشخيصه السابق: «طبعًا طبعًا، هالشي كمان زاد من الكآبة»... كنت أودّ أن أقول له إنِّي أعرف السبب الحقيقي لكآبتي: ابنتاي في بيروت، واشتياقي إليهما كبير، والبحر وصخبه يجعلهما أكثر بعداً عنّي. لكن لم آتِ على ذكر سيرتهما، فزوجة

المدير لا يجب أن تكون متزوِّجة من قبل، لا يجوز أن تكون عشيقةً لسنوات.

ولم أعد إلى طبيعتي إلاَّ عندما جاء محمد بأمرأة قُبِضَ عليها في المساء وهي تحاول التسلُّل إلى إسرائيل. تقسم أنَّها لبنانيَّة، أنَّ لديها أقرباء في فلسطين، فهي تتكلَّم العربية، بلهجة لم يتبيَّن محمد منها إذا كانت لبنانيَّة أو فلسطينيَّة. وأخذت تبكي طالبة إلى محمد إخلاء سبيلها، لكنَّه أودعها الطابق الأرضي، وأوصد الباب عليها بالمفتاح، ريثما يأتي المحقِّق في اليوم التالي ويحقِّق معها. يتحمَّس داخلي فجأة، وأطلب رؤيتها، لكنَّ (محمد) يرفض حتى مرافقتي له وهو يقدِّم لها الطعام. لم أكفّ عن الهوس بالمرأة القابعة في الغرف الأرضيَّة، وقد أطلقت عليها لقب «السجينة». أنتظر لحظة خلود محمد إلى الفراش، واستسلامه إلى النوم العميق، فأمدّ يدي إلى تحت وسادته، حيث أودع رزمة المفاتيح، أتسلَّل من الفراش على رؤوس أصابعي وأهبط إلى الغرف الأرضيَّة، أدير المفتاح في الثقب، وأجلس قبالة المرأة التي لم تتوقَّف عن البكاء. أحاول التحدُّث معها وهي لا تزال تبكي وأنا لا أفهم شيئًا سوى أنَّ هذه المرأة وقعت في مصيبة، وإلاَّ لماذا تحاول أن تتسلَّل عبر الحدود، وتعرِّض نفسها للخطر؟ آخذ في البكاء، لماذا لم تتسلَّل ابنة خالتي «مفضّلة»؟ أحضر للمرأة «زوّادة»، وأمسكها من يدها، وأفتح لها الباب وأنا أقول لها: «يلّلا هربي... هربي». تنحني المرأة على يدي تريد تقبيلها، فأسحبها منها، «يللا هربي، انفدي بجلدك... هربي»، فتبتلعها العتمة في لحظات.

أعود إلى السرير، تتسلّل يدي برزمة المفاتيح تودعها حيث كانت. ولم أنم، بل جلست أستمع إلى صخب الأمواج. ترى هل ستتسلّل المرأة من جديد إلى فلسطين، أو أنّها ستهرب وتختفي في الأراضي اللبنانيّة؟ أنتظر اطلالة الصباح وكلي خوف من محمد الذي يلاحظ عودتي إلى طبيعتي، فيدلّعني ويقبّلني سعيداً وعندما يرى ابتسامتي، ويناديني «كمّولة»، ثم يرتدي ملابسه على عجل، وكأنّه تذكّر تلك المرأة، ويتناول رزمة المفاتيح ويختفي، ثم يعود داخلاً غرفة النوم، ولا يسألني شيئًا، بل يضمّني إلى صدره، ويربّت على كتفي، ويهمس في أذني: «شو بدّي قول للمحقّق، مرتي سرقت المفاتيح وهرّبت المرا؟ هرّبتْ يمكن جاسوسة خطيرة؟».

«محمدان»

يصبح في حياتي محمدان: محمد الأول الذي كان يرتدي بدلة ذات نقش ملوّنة بالأسود والأبيض «رجل الدجاجة» «Pieds de poules»، إضافة إلى القميص المكوي المهفهف عليه. محمد ذو الشعر البنيّ المالس، محمد الذي لا أراه من غير كتاب أو ورقة أو قلم، لسانه يتدفّق بالزجل الذي حفظه، وبأبيات شعر ينظمها أصدقاؤه. محمد الذي أغار عليه غيرة حمقاء حتى حين أراه يلتذّ وهو «يمصمص» عظام الخروف. أغار عليه لأنّ عينيه الواسعتين الملوّنتين كانتا تحبّان الظرف والجمالَ. محمد الذي أهدس به وأسترجع رائحته غيبًا، والذي إذا نظر إليّ نظرته نفسها مَلَكَني.

ومحمد الثاني الذي أراه إبان حملي المتواصل، وإجهاضي، ووضعي للمولود بعد الآخر، والذي يساعدني على تربية أولادنا، فيعصب رأسه متألّمًا إذا ما أصاب الزكام أحد الأولاد. يعاني معي همّ

التنظيف، والغسيل، والكيّ، والطبخ، وإيجاد خادمة، يتخبّط في مسؤوليّات الأطفال والبيت، يحاول أن يستدين المال من أجل أن نصطاف في بحمدون بالذات. لكنّي أهرب إلى محمد الأول، ونزور معًا المنشية والنبع، والزعرورة، ونرى اسمينا، وتواريخ لقاءاتنا، محفورةً على شجرة الجوزة، فنجلس تحتها نحاول أن نستعيد تلك الأيام، فيسألني أن أغنّي له، فأفعل ذلك رغم انتفاخ بطني بحملي الرابع، وتعبي وإنهاكي ورغبتي في النوم. أغنّي له بكلّ غنج ودلع أغنية شادية: «الحقك بتبعد عنّي... أروح وراك تهرب منّي... مين غيَّرَك. مين قسّاك عليّ، ما تقولي عليه...»

لكنَّ محمد الأول يهزّ رأسه بكلّ تحسُّر ويقول: «صوتك مش مثل قبل، كأنَّه صار مربوط بحبل». ونضحك معًا على تعليقه هذا، وأقول له إنَّ كلاً منّا يحمل ميزان حرارة يقيس به حرارة الآخر، وهذا معناه أنّنا ما زلنا في أوجّ حبّنا. أهرع إلى محمد الأول في الصباح، وهو يفتح الجريدة، ويقرأ لي ما يحدث في العالم. أهرع إليه في المساء عندما يفتح الدفتر، واسمه «المذكرات»، يكتب فيه، أو يقرأ لي شعراً هو هديّة العيد في تاريخ ميلادي المسجَّل في الهويّة، رغم معرفتنا بأنَّ هذا التاريخ ليس بالتأكيد هو يوم ميلادي.

هدية العيد

لإيليا أبي ماضي

أي شيءٍ في العيد أهدي إليكِ

يا ملاكي وكل شيء لديكِ

أســـــواراً، أم دملجًـــــا من نضــــار

لا أحب القـــيـــود في مــعــصــمــيكِ

أم خـــمـــوراً، وليس في الأرض خـــمـــر

كـــــــالتي تـسكـبين مـن لحـظـيكِ

أم وروداً، والـورد أجــــــــمـلـه عـنـدي

الـذي قـــــد نـشـــقـتُ من خــــديكِ

أم عـــقـــيـــقًـــا كـــمــهــجـتي يتلظّى

والـعـــقـــيـق الـثـمين في شــفـتــيكِ

لـيـس عـنـدي أعـــــــزّ مـن الـروح

وروحـي مـــــــــرهـونـة فـي يـديـكِ

أستفسر منه عن كلمتين: «دملجًا من نضار»، فيشرح لي أنَّ الدملج هو إسوارة، والنضار هو الذهب. أسأله أن يعيد قراءة هذا الشعر لي أكثر من مرة، وإذا بي أتلوه عليه، فيأخذني بين ذراعيه، ويبكي لائمًا نفسه لأنَّه لم يعلِّمني القراءة والكتابة كما وعدني. أجفِّف له دموعه قبل أن أعود إلى البكاء، وأنا أصيح وكأنِّي فاتن حمامة: «خشبة ورصاص غلبتني!» ثم أتحوَّل إلى شاعر زجلي وأغنِّي: «خشبة رصاص غلبتني، كلّ ما بدّي أتعلّم كبر بطني». أتمنَّى لو أنِّي أجلس هكذا بين يديه، كلّ ساعة، كلّ يوم، أستمع إليه وهو يقرأ لي، ويقوم بشرح ما لا أفهمه.

أتمنّى لو أنّ الوقت، وضجيج والأولاد من حولي، يسمحان لي أن أتمادى في شعور الغيرة لأنّ الشعر الذي يقرأه لي كان عن امرأة زيتيّة العينين:

«زيتية العينين رفقا

لا تطبقي جفنيك

إذا أطبقا أطبق الأفق».

أستجوب محمد من تكون هذه المرأة، وكيف يحبّ الأعين الملوّنة، بينما عيناي سوداوان؟ ولماذا تبرق عيناه إذا سألني من زارنا، فأخبرته أنّ أم فلان هي التي زارتنا؟ لماذا يعلو بنظره إلى شرفة الجيران حين يحاول شرب الماء من الإبريق، فيلقي تحية الصباح على الجارة: «صباح الخير يا جارة». فتجيبه: «صباح ألف ألف نور يا جار». ويبتسم لها محمد، فأروح أقلّده ما إن يطلّ جارنا، فآتي بالإبريق وأرفع رأسي ألقي التحية على جارنا: «صباح الخير يا جار» ويجيبني: «ميت ألف صباح بجارتنا»، فأضحك له.

ثم نأتي أنا ومحمد بستائر سميكة نلفّها حول فسحة الشرفة، لتحجب عنّا مناظر الأودية والجبال، وكل قصدنا أن نحجب وجهي الجار والجارة. لكن ما يحدث من غيرة وعراك خفيف يضعني في حالة سعيدة، فأتوقّف عن انتظار حلول عادتي الشهريّة، أو انقطاعها، إذا كنت حبلى. حتّى خوفي من آلام الولادة، أو أن يصاب أحد أولادي بمكروه، يتلاشى أمام أوقات الحبّ المسروقة. أنجب مولودي الرابع، ابنة ثالثة تشبه «كدسومة» بطلة فيلم «سايونارا» الياباني.

«بيت الكوكو»

نصطاف في «بيت الكوكو» بعد أن أصبحت بحمدون دون طاقتنا الماليَّة، وتشاركنا في البيت ابنة شقيقتي الملاك وعائلتها. ولم تكن بيت الكوكو مصيفًا بكل معنى الكلمة، بل هضبة فيها الكنيسة وغابة صغيرة. نستبدل شجرة الجوز بشجرة البلوط، أمّا شجرة الفستق الحلبي التي ظننا أنَّنا إكتشفناها فنجد أنَّها، ويا للعجب، شجرة «بطم».

تأتي ابنتاي فاطمة وحنان، لتقضيا معنا أسبوعًا أو أسبوعين. تخبرانني وهما تضحكان على الطريقة التي ينطق بها خالهما، شقيقي العابس، اسم مصيفنا: «بيت الكووووكو، بيت الكيكو»، فأعرف أنَّه مازال يعاني من طلاقي، خصوصًا أنِّي وابنة شقيقتي الملاك بعيدتان معًا عن العائلة. ينقبض قلبي إلى أن تتوقَّف البوسطة في

ساعة معيَّنة، عند مدخل المصيف، ويترجَّل منها محمد. نحاول نحن الأربعة أن نعيشَ حياة الحب، فأنهمك مع ابنة شقيقتي في تحضير الطعام الذي يليق بالعشاق.

نخبط اللحمة لنصنع الكبّة النيئة، ونحضِّر التبُّولة، نقلي النخاعات والمقانق، نفتح علب الطون، نخرج الحنكليش من ورقته. نجلس بعد أن ينام أطفالنا، ويتبادل الرجلان الأحاديث السياسيَّة وهما يدقّان معًا كؤوس العرق، وينشد محمد الأشعار بينما زوج ابنة شقيقتي يخبرنا قصصًا تدور حول الناس والشّخصيّات السياسيَّة. نتغامز أنا وابنة شقيقتي سعيدتين لأنَّ كلاً من الرجلين يحاول فرض أهميّته وتفوُّقه على الآخر. ثم نتغامز لأنَّنا ما زلنا نجذب اهتمام رجال البلدة سواء أكانوا متزوِّجين أم عازبين، وما زلنا نشعل البريق في أعينهم كلَّما قمنا بزيارة الجيران عند العصر، قبل عودة رجلينا. وكانت النظرات البريئة التي كنّا نتبادلها مع ابن الجارة تذكِّرنا، أنا وابنة شقيقتي، بالأيام الماضية عندما كنَّا نعيش معًا. فتجعلني هذه النظرات طائرةً سعيدةً، أقلّ غيرة على محمد، إلى أن يتأخَّر في الرجوع من بيروت خمس دقائق لا غير، فأعود إلى غيرتي السابقة. لكن هذا الصيف لم يمرّ بسلام، إذ داهمني نزيف جعلني خائرة القوى، فلفّني محمد في الشراشف وحملني من جهة، وزوج ابنة شقيقتي من الجهة الآخرى، وكأنِّي كنبة تتألَّم وتتوجَّع، فأجهض في المستشفي دون معرفتي أنِّي كنت حاملاً. ثم ما إن أعود بعد أيام، وأرى الأولاد ينادونني ويتعاركون، ويبكون ويضحكون، ويشدُّون

بفستاني، حتى أروح أغمض عينيّ وأنا أفكِّر: «لماذا لا يدعونني أنام، من هم هؤلاء الأولاد؟ لماذا ينادونني «ماما»، وأنا مثلهم، أريد أن ألعب، وأقفز، وأنام، وأغنّي، وأنادي سواي «ماما»؟.

يطفح به الكيل وأبكي، فأسمع جملة من أمي، تجعلني أفكِّر مليًّا بحالتي: «جنّيتِ وبكيتِ بدّك تطلقي وتتجوّزي، وهيّاكِ مبيّن بعدكْ عم تبكي».



«ثورة ٥٨ تحدث من أجلي»

تندلع الثورة في الطرقات، وتحدث مقاومة شعبيَّة ضدّ رئيس الجمهوريَّة كميل شمعون، ضدّ الكتائب والحزب القوميّ السوريّ. يقال إنَّ جمال عبد الناصر يريد ضمّ لبنان إلى الوحدة العربيَّة، وإنَّه قام بتسليح المقاومة الشعبيَّة، وعلى رأسها صائب سلام، وإنَّ كميل شمعون لا يريد الوحدة، بل يريد تجديد مدّة رئاسته. يصبح كلّ موظَّف في الدولة، لاسيَّما من كان في الشرطة والجيش والأمن العام، مهدّداً بالقتل من المسلَّحين والثوار في محلتنا. عندما يهدَّد محمد بالموت والإغتيال إذا لم يقدِّم إستقالته للأمن العام، نقرّر الهرب إلى منطقة مسيحيَّة خصوصًا بعد تفجير منزل رئيس الوزراء سامي الصلح. أقترح على محمد أن نلجأ إلى بيت شقيقي العابس، الذي كان قد انتقل من البيت الذي كان يشارك به الحاجّ إلى ضاحية من ضواحي بيروت المسيحيَّة بعد أن بنى بيتًا عقب عودة ابنه من أميركا.

ننتظر في صباح اليوم التالي قدوم السائق بفارغ الصبر خائفين من أن يدخل علينا أفراد المقاومة الشعبيَّة أو الثوَّار بين لحظة وأخرى. وعندما لم يأتِ السائق أيقنا أنَّه لا بدَّ أنَّه متواطئ مع الثوَّار للقبض على محمد. يفكِّر محمد أن ننزل إلى الشارع، بدلاً من ملازمة البيت، والعثور على سيَّارة أخرى، وإذا بنا نرى السيَّارة نفسها في انتظارنا إنَّما من غير سائق. أركب مع أولادنا الأربعة في المقعد الخلفيّ، بينما يجلس محمد في المقعد الأمامي منتظراً السائق. لنعود نفكّر: «ترى هل غياب السائق هو نتيجة مؤامرة؟ هل وشى السائق بنا؟». وفيما محمد يضرب أخماساً بأسداس، نرى السائق يخرج من دكَّانة «القصير» مع زوجته الطويلة، وفي يده أكبر ساندويش فلافل. وكان دكان الفلافل هذا يغصّ بالمارة، منهم من يشتري، ومنهم من يتفرَّج على الرجل القصير الذي كان ينتعل قبقاباً خشبيًّا، كما يتفرَّج على زوجته الفارعة الطول، وكلَّما تشاحنا، اعتلى الرجل القصير الكرسي وصفعها على خدّها. نعبر الحواجز بسهولة، ونقصد بيت شقيقي العابس، وبدلاً من ارتياحي لابتعادنا عن الخطر، كان القلق ينهشني، ويزداد كلَّما اقتربنا من بيت شقيقي. ولم تكن هذه المرَّة الأولى التي أرى فيها شقيقي العابس وعائلته بعد زواجي بمحمد، إذ كنَّا قد التقينا به وبزوجته، مصادفةً، في منزل ابنة شقيقتي إثر وضعها مولودها البكر، فيتمّ الصلح بيننا وقتئذٍ.

يستقبلنا شقيقي العابس وزوجته أفضل استقبال. وكانت المفاجأة وجود ابنتيَّ فاطمة وحنان وشقيقهما. وكان القتال الدائر قد

منع من زيارة ابنتيّ لي لمدَّةٍ لا بأس بها. وتخبرني ابنتي حنان بأنَّها سيقت إلى بيت صائب سلام مع والدها، منذ يومين، للتحقيق معهما، إذ إنَّ بعض أفراد المقاومة الشعبيَّة أخذوا شقيقها هذا للتحقيق معه لأنَّه كان ينتمي إلى الحزب السوريّ القوميّ الإجتماعيّ مثل أخيه الكبير العقائديّ، فاستنجد الحاج بجارٍ لهم ذي نفوذ أصبح الناطق باسم الحيّ في أثناء هذه الحوادث. فيهرع الجار، ويتوسّط لإبن شقيقتي، ويعود به إلى البيت، شرط أن يذهب كل صباح إلى مركز المقاومة الشعبيَّة، ويثبت وجوده، حتى يتأكَّد الرجال من أنَّه لا يحارب ضدّهم.

يدبّ الخوف في ابن شقيقتي طوال الليل، ثم يتسلَّل، فجرَ اليوم التالي، من البيت سيراً على الأقدام إلى أن يجد سيَّارة تأخذه إلى بيت خاله. وعندما يحين موعد اثبات وجوده في مقرّ المقاومة الشعبيَّة ولا يظهر، يعود الثوَّار يطرقون باب البيت، فيؤكِّد لهم الحاج أنَّ ابنه قد ذهب إلى مكاتبهم حسب الاتفاق. عندئذٍ يكتشفون أمر هربه، فيطلبون إلى الحاج وإلى حنان مرافقتهم إلى مركز التحقيق حيث توجّه إلى ابنتي تهمة مفادها أنَّها كانت تتجسَّس في الحديقة لصالح شقيقها الحزبيّ. «ألم تشر بيدها مستعملة لغة الألغاز والأرقام»؟: تضحك حنان، وتقول لهم هازئةً إنَّها كانت تحاول أن تجد لشقيقها كبسولات لقناني جلول وبيبسي كولا ليلعب «الداما» مع صديقه.

رغم أنَّ حنان كانت فخورةً وسعيدةً لأنَّ كل الأنظار حطّت عليها وهي تقصّ قصَّتها، فإنِّي لم أستطع إلاَّ أن أشعر بالضيق لما

حصل لها، وأنا ألوم في سرِّي ضعف والدها الشديد. وما إن تختم قصَّتها، وآخذ في الضحك، حتى ترتاح أوصالي، واكتشف أنَّها قد ورثت «شرش» الفكاهة منِّي، ومن أبي. تخبرنا ابنتي كيف التفتت إلى المسؤول قبل أن تغادر التحقيق وقالت له: «بعرف إنُّو «محمد التوتة» هو اللِّي خبَّركم شو صار! الظاهر هو مدير الإستكشافات عندكم!» يضجّ جميعنا بالضحك إذ إنَّ «محمد التوتة» هو الجار الأبله، صاحب شجرة التوت، الذي كان يدلق الماء على الصغار، كلَّما رشقوا التوتة. أفكِّر حين يغفو أولادي أنَّنا في بيت شقيقي العابس حقيقةً، ذاك الذي عندما فاتحه أخوه البكر بأمر طلاقي غاب عن الوعي، وحثّ الحاج على تطليقي قائلاً له: «إنَّ (محمد) لا بدّ أن يتركني، ولن يتزوَّجني، فأنا بالتالي زوجة وأنجبت ابنتين». وها هو الآن يفتح باب بيته لإيوائنا. أعرف أنَّ شخصيَّة زوجي اللطيفة تفرض احترامها، وكذلك وظيفته المرموقة، لكنَّ إنجابي أربعة أولاد منه معناه أنِّي قد فزت في الإمتحان، ووضعت في خانة الزوجة الصالحة. وها أنا قد عدت إلى العائلة معزَّزة، مكرَّمة. أسأل (محمد)، قبل أن أخلد إلى النوم، إذا كانت الظروف القاسية هي التي تجعل الناس قساة القلوب، وإذا كان النجاح هوالذي يليّنها ويجعلها في غاية التسامح؟

أقول له كم أنا فخورة بشقيقي الذي انتزع من أحضان العلم، ورُمي به في معترك الحياة، لكنَّه يدفع أولاده إلى العلم ولو بتوفير القرش بعد الآخر. وها هو الآن يملك بيتاً بل «فيللا».

«محمد كمال»

تنتهي ثورة «٥٨» بدخول الأسطول السادس، وبانتخاب قائد الجيش فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية. تتعزَّز مكانة محمد في عمله، ويعيَّن مفوضاً للأمن العام في البقاع. وتزدهر أحوالنا، وأضع مولوداً ذكراً هو آخر العنقود، أصرّ محمد على تسميته «محمد كمال» حتى أنادي ابننا «محمد» ويناديه «كمّوله»، على رغم إنتقاد الأهل والأصحاب، وعلى رأسهم أنا، خوفاً من أن يجلب الاسم الشؤم وسوء الحظ. وخصوصاً أنَّ محمد كمال أتى بعد عدّة إجهاضات.

أتى محمد كمال في ظروف ملائمة، إذ عاد حبّنا يطفو بعد أن طمسه تعبي وإرهاقي، علاوةً على ظروفنا الماديّة والغيرة القاتلة. أخذنا معاً نقطف ثمار نجاح محمد في عمله وترقيته في عهد فؤاد شهاب. يطلّ فصل الصيف، ويستأجر لنا بيتاً كبيراً في البقاع، قرب

شتورة، حيث تساعدني شابتان من البلدة في شؤون البيت والأولاد والمطبخ، فأنتقل مع محمد، من نزهة إلى أخرى مع الأولاد، أو بدونهم. وقد نجلس على شرفتنا الواسعة وأمامنا الجبال والأشجار، فيشعل محمد «هبّولة» فوق الشرفة، ويشعل الأسهم الناريَّة بمناسبة عيد المولد النبويّ، فيهلّل الأولاد وهم يرون الأنوار تسطع في العتمة. يصحبهم في النهار إلى البيدر، حتى يروا كيف يُطْحن القمح، فيجلسون على النورج بعد أن يضع محمد الليرات في يد العامل، وتجرّهم البقرة وتدور بهم.

يأتي لهم بشاحنة صغيرة فيها البطيخ الصغير، وبشاحنة أخرى فيها التراب ليلعبوا به على الشرفة، بعد أن صاحت بهم الجارة وهم يلعبون بالرمل المتروك قرب البيت. أكمش نفسي التي تتشاءم قليلاً من هذا الإنسجام وهذه السعادة، مع أنَّ فكرة الموت لم تكن تخطر ببالي قطّ رغم النزيف والإجهاضات، والتهاب رأسي من جراء الضرس الذي ضاع بين أذني وحلقي، رغم التهاب كليتي محمد، وصداعه المؤلم بين فترة وأخرى. لكنَّ (محمد) هو الذي أخذ يهدس بالموت من شدَّة خوفه منه. كوَّم أولادنا حوله، ذاتَ ليلة، وهو يحمل محمد كمال الذي لم يبلغ ستة أشهر، ثم خرطش مسدسه منادياً وهو ينظر إلى السماء: «إسمع إذا أنت موجود لا تحرمني منهم، وإذا بدك تموّتني يعني أنت مش موجود... إسمعني أرجوك لا تحرمني منهم». ثم يطلق الرصاص عاليًا، فيطير الحمام والطيور. تهرع جارتنا لتستفسر عمَّا يحدث، يطلّ القمر فجأةً واسعًا، فيعلّق محمد: «القمر انبسط

بكلامي». تصرُّفه هذا كان يجعلني أتساءل إذا كان خوفه من الموت مرتبطًا بقيادته للسيَّارة بعد تعلُّمه القيادة منذ ثلاثة أسابيع، أو أنَّه اكتشف، فجأةً، دورة الإنسان: الولادة، الشباب، الشيخوخة، ثم الموت. لكنِّي ما زلت في الرابعة والثلاثين وهو في الواحد والأربعين من عمره، وما زالت أمه وأمي على قيد الحياة ترزقان. وإذا بدوري يأتي في التفكير بالموت، لا من تكوّم أولادنا الخمسة حولي يضحكون ويلعبون، بل من مسمار في غرفة نومنا كان قد ثُبّت في مكان غريب، لا خلف الباب لتعليق قميص نوم أو روب أو بيجامة محمد، بل ثُبّت على الحائط قرب السرير. لم أدرِ لماذا تخيّلت نفسي أعلّق فستاني، ثم أنتشله وأنا أولول. أهرع إلى محمد أقصّ عليه حلم اليقظة، وأرجوه أن يقلع عن قيادة السيَّارة، فيداه كانتا جامدتين على المقود، على خلاف أيدي السائقين المرنة، الممسكة بالمقود، رغم إمساكهم بالسيكارة، وبالمنديل يمسحون به عرقهم، يخرجونه من الشبّاك ليجفّ.

ويأتي اليوم الذي أسرعت فيه إلى فستاني الزهريّ المنقّط بالدوائر البيضاء، المعلّق على ذلك المسمار، أنتشل الفستان مولولةً، وأولادنا الأربعة الذين كانوا ينتظرون عودة والدهم يبكون على بكائي، ومحمد كمال يتشبّث بي غير مصدّق أنّي لن آخذه معي.

كان محمد قد طلب إليّ أن أحضر الأولاد ليصطحبهم في نزهة بعد ساعتين لأنَّه تمّ القبض على المهرّب الكبير، ومحمد لن

يتأخَّر في مكتبه، فاليوم هو يوم عطلة. لكنَّ سيَّارته تزحلقت من جرّاء الندى الذي بلَّل الطريق.

يصحو محمد من غيبوبته في المستشفى ويبادرني: «تزحلقت، الحمدللّه ما كانوا الأولاد معي». يحاولون إغاثته، وأنا أفكِّر بأنَّ الموت قد اختطف شقيقتي، وشقيقتي الأخرى، وجارتنا، ثم أطلب إلى اللّه مسامحة محمد لأنَّه أطلق الرصاص، في الفضاء، بعد أن جمع أولادنا حوله تلك الليلة. أطلب السماح إلى اللّه لأنِّي وضعت الملح لزوج شقيقتي، ولشقيقي العابس، أريد موتهما. أستغفر اللّه لأنِّي قلت لمحمد حين حثَّني على الطلاق أن ينتظر حتى يموت زوجي. أذكر اللّه لأنِّي تعرَّفت على محمد وأحببته قبل أن أعرف أنَّه قد كتب كتابي على زوج شقيقتي.

أجلس ساعات قرب محمد المضطجع في السرير، الحاضر، والغائب المتألِّم، المغطّى جسده بالأنابيب في كل مكان. يتشابك دم كليّته ببوله، بدم قلبه، أفكِّر وأستغفر اللّه وأطلب السماح، وأصلّي وأبكي، أسأل اللّه ألاّ يستجيب دعوات أمي القديمة لأن ينتقم من محمد عندما أراد تطليقي والزواج بي. أذكر اللّه من جديد لأنِّي تعرَّفت، وأحببت (محمد)، قبل أن يزوّجوني بزوج شقيقتي. ثم أعود وأفكِّر بأنِّي إذا قلت للّه: «هذه مشيئتك»، فهل يغفر كل شيء ويشفيه؟ مشيئة اللّه أن يتساقط الندى، لا على الورود والرياحين، بل على الإسفلت، فيتزحلق محمد، ويدعس على دوّاسة البنزين بدل الفرامل، ثم أعود أناجي اللّه بأنِّي أعلم أنَّه ينشر الندى على الورود

والرياحين والتراب، إنَّما الإنسان هو الذي شقّ الطرقات وغطّاها بالإسفلت.

كان يصحو ويهذي، يتشبّث بي ويخبرني أنَّ هناك ٧٠٠ ليرة مخبّأة في درج مكتبه، يسألني عن ابنتي حنان وعن سبب عدم زيارتها له. يقول لي: «خلليها تأخذ حبة أسبرو وتزورني» يعود يكرِّر، ألاَّ أنسى ال ٧٠٠ ليرة، وبأنَّه عليّ الإتيان بها من درج مكتبه.

وأنا أصحو معه وأهذي معه، ألوم نفسي لأنِّي لم أمنعه عن قيادة السيَّارة رغم حلم اليقظة ذاك. ألوم نفسي لأنِّي كنت أدعو عليه بالموت كلّما تخاصمنا. ألوم نفسي لأنِّي أضعت الوقت هباءً، وجعلته ينتظر السنوات قبل طلاقي من زوجي، لأنِّي أضعت الوقت في استنطاقه كلّما تأخَّر في الرجوع إلى البيت من عمله، ولأنِّي فضّلت النوم أحيانًا على جلوسي معه. هو يهذي ويصحو، ويأخذ يدي ويقبّلها، ثم يعود إلى الهذيان ويسألني أن أهرب معه من النافذة... تولول أخته قائلة إنَّ عزرائيل قد أطلّ ليأخذه... ومحمد يريد الهرب منه... يلفظ محمد روحه، ويؤخذ منِّي...

ولم أعد أرى نفسي سوى بين الجموع التي زحفت لتحضر دفنه، فيصبح مأتمه كالعرس. وفود من معظم القرى الجنوبيَّة، دماء وخراف مذبوحة، ومكبّرات الصوت، وتشريفات، في الوقت الذي أتذكّر فيه كلامه: «بدّك تبكي دم عليّ». لم أعد أرى نفسي سوى في مشّاية قدمي. كل الذين أردتهم أن يزوروني في بيتي المتواضع،

وأن أزورهم في بيوتهم الفخمة، أتوا في المأتم لا في مناسبة أخرى، أتوا بأحذية لماعة ثمينة وتايورات أنيقة، ببدلات فخمة تتدلّى منها المناديل الحريريَّة، ومسابح ذات أحجار كريمة بين أصابعهم، تقلّهم السيّارات الفارهة. الكلّ يأتي ليودّع الميت، وأنا من بينهن في المشّاية التي ركضت بها عندما جاء من يعلمني بحادثة تهوُّره. هل من المعقول أنَّ كل شيء قد توقَّف، وسيصبح محمد كناية عن عظام؟ أين الأفكار، والمشاعر، والخطط، والآلام، والذكريات، والشهوات، وكتابته الشعر وحفظه إيَّاه، بالإضافة إلى نعاسه وضحكاته؟ كيف توقَّف كل هذا ما إن توقَّف قلبه؟ كيف يختفي هذا بدون أي أثر؟ أين شوقه لرؤيتي؟ أين قدماه اللتان جعلتاه يصعد البوسطة ما إن سمعت أذناه كلمة بحمدون من فم معاون البوسطة، ليقف أمام بيتي ويراني لساعة أحيانًا، ويعود إلى بيروت سعيداً؟ أرى وجه أبي بين البكاء والعويل وهو يحاول أن يخبِّئ ضحكه، ويتمتم حين رأى أم محمد راكبةً على الحمار، وأفهم أنَّ قريحته قد أهاجها هذا المنظر. تحاول زوجة شقيقي العابس، وغيرها من النساء، اطعامي لقمةً لقمةً، وكأنّي طفلة صغيرة خصوصًا بعد أن أغمي عليّ، وحين سمعت أنَّ دمعة سقطت من عين محمد عندما قرَّبوا منه ابننا الكبير لوداعه. وأسمع امرأة مسنّة تربِّتُ على كتفي قائلةً: «معليش يا روحي، يا حبيبتي، اللّه عطاه واللّه أخذو... حاج تبكي وتضربي بحالك، البكاء مش راح يرجعو... يللا يا حبيبتي، يا ميمتي بكره بتلتقو...». ورغم معرفتي أنَّها تهوّن عليّ الأمر تطبيقًا للمثل

القائل: «هم السابقون ونحن اللاحقون» إلاً أنّي أحببت هذا الدعاء، وتلك التوصية. وأخذت المرأة تبكي على أمواتها قبل أن تقول لي من جديد «يللا يا حبيبتي قوّي حالك مشان أولادك... بعدهن طفالى... يللاّ بكرة فتّحي عين غمظي عين وبتلتقو». ولم أحبّ إستعجالها هذا اللقاء خصوصاً أنَّ طفلي محمد كمال لم يتم شهوره الستة بعد، فأتمتم «بعيد الشرّ عن حالي، بعيد الشر عنّي».

وكان بيت أهل محمد قد غصّ بالنساء المولولات، واللواتي ما زلن يتدفقن من القرية، والقرى المجاورة. تسأل امرأة أخرى كانت تجلس بقربها إذا كانت ابنتي فاطمة التي تحمل شقيقها محمد كمال هي ابنة المرحوم... ثم تتهامسان بأنّها ابنتي من زواجي الأول وتنجرفان بالحديث عن قصة طلاقي، وزواجي بمحمد وكأنّني لست موجودةً. وكنَّ على حقّ، فأنا لم أكن موجودةً إلاّ بجسمي، لا أعرف أين كنت، ربما مع محمد في القبر، في الوقت الذي ترنّ فيه صدى القصائد في أذني، لاسيّما قصيدة لشاعر طالما أحبّ محمد شعره. ألقى هذا الرجل شعراً بصوت متهدّج:

سافرت يا محمد عن دنيا البقا

لمّا زغر حجم الوجود بعينتيك

وهالارض مسرح للفراق وللقى

ومش بس وحدك، كلّنا للموت هيك

لكن أنت نغّصت وداعك بحرقة

بعد الصبا مفتّح جديد بوجنتيك

والأرملي الفيك انحصر تحنانها

كيف عنها قدرت تغمض عينتيك

تعيدني المرأة نفسها من هذياني «كلُّنا يا حبيبتي بدّنا نعود لأحبابنا، المرا لزوجها، الزوج لمرته، الأخ لخيو، الإخت لأختها... وإنت لما تطلعي عالسما، عالجنّة إن شاء اللّه، قد ما عمّ تتعذّبي وراح تتعذّبي أكثر وأكثر، بدّك تنادي: محمد يا محمد أنا جيت... وراح تشوفي محمد قدامك واقف ناطرك مثل البدر».

ويهبط قلبي لأنَّ محمد هو إسم زوجي الأول، هل من المعقول أن أعود إلى زوجي الأول؟ أحاول أن أتلهّى بشعور الحنق والحزن معًا، وأنا أشمّ رائحة الطعام، وأسمع قرقعةَ الطناجر، وانهماك نساء العائلة وهم يحضّرون الطعام الفاخر الذي يليق بميّتهم وبالعائلة أمام كبار القوم الذين حضروا لتشييعه ودفنه. ولم أستطع إلاّ أن أفكّر: «هل سألتقي بزوجي الأول أو بمحمد؟ ووجدتني أتململ أريد الاستفسار عن هذا الموضوع من أكبرهنَّ سنًّا، وأكثرهنَّ إيمانًا وتديُّنًا. أخبرها عن هواجسي وخوفي من أن ألتقي بزوجي الأول، وليس بمحمد. تمسح وجهي بيدها، وتقرأ الآيات وتبسمل، وتجيبني: «طمنّي بالك يا حبيبتي... بدّك تلتقي بالمرحوم محمد لأنّو جَوْزك الأولاني تجوز مش هيك؟ لكن إيَّاك تنسي تصلّي وتصومي».

يرتاح قلبي، لكنِّي لم أستطع إلاَّ أن أفكِّر لماذا هذه المسنّة، ذات الأسنان المفقودة، ما زالت تعيش بينما محمد الرجل، الطويل القامة «اللِّي كان جسمه مللا تيابو» يموت؟ ولم يفارقني هذا الشعور، منذ اليوم الأول للجنازة، بل أخذ في الازدياد غضبًا عنِّي، فأبادر كلّ عجوز أصادفه رجلاً أو امرأة: «معقولي يعني أنت ختيار مكركع، وبعدك عايش... ومحمد الشبوبيَّة يروح... يعني معقولي؟». ولم أرتدع إلاَّ عندما تمسكني أخت محمد من يدي، وتجرّني وهي تهمس لي بأن أتمالك نفسي، وإلاَّ قيل إنِّي مجنونة، فقدتُ عقلي. ولم أجبها بأنِّي فقدت عقلي فعلاً، فأنا مازلت أشعر وكأنَّ (محمد) مازال حيًّا إنَّما في مهمة حكوميَّة، في مركز من مراكز الحدود، وهو سوف يعود بعد يوم واحد. حوّل زلزال الموت الحقلَ الأخضرَ إلى يباب، ثم إلى صحراء! كيف سيعيش أولادي الخمسة؟ من يقصّ لي أظافر يدي وقدميّ بعد الآن؟

«الظاهر إنَّك غلطان بالبيت»

لم يعد بيتي في بيروت بيتًا، كأنَّه تحوَّل إلى جامع وصالون تشريفات. يأتي مقرئ كلّ يوم يقرأ الآيات عن روح محمد، ويأتي الناس من الأقرباء والأصدقاء والموظفين، بالإضافة إلى أصحاب الأقرباء وأصحاب الأصدقاء والموظفين. أترك باب البيت مشرّعًا، أولادي الخمسة التي تتراوح أعمارهم بين ثمان سنوات إلى ثمانية أشهر، يضجّون، ويأكلون، ويبكون، ويتخاصمون فيما بينهم، ما عدا الصغير الذي لم يتوقَّف عن البكاء ومناداة: «بابا بابا» إذ كان شديد التعلّق بمحمد الذي كان بمنزلة أم له. يحمِّمه، ويطعمه، ويضحكه، ويبدّل له حفاضه وملابسه، ولاينام الطفل إلاّ على ذراعيه.

يتدهور نشاطي، ويهبط جسمي، وأنا بين المتدفقين على زيارتي، والآيات القرآنيَّة تنافس ضجيج الأولاد. ولم أغلق الباب في

وجـه المقرئ الضـرير، إلاَّ عندما ضجّ رأسي، ولـم أعـد أتحـمَّل سـمـاع كلمـة واحـدة، لـكنِّي لم أستطع مواجـهـتـه طالبـةً إليـه أن يكفَّ عن المجيء، فتركته يجوّد القرآن وأنا مستلقية على السرير، ثم طلبت إلى أولادي إحداث جلبة ليظنّ أنِّي مازلت في غرفة الجلوس. ناديته من غرفتي ما إن هرع أحدهم، وأخبرني أنَّ المقرئ الضرير يسأل عنِّي. « يللا كنت عم إغليلك زهورات، يللا معلش بتشربها بكرة مع السلامة». ثم يأتي اليوم الذي أوصدت الباب بوجهه وأنا أسأله: «نعم شو بتريد؟» يجيبني «أنا الشيخ جاي أقرأ». أسأله من جديد «مين؟» يجيبني وهو يتلعثم: «أنا الشيخ اللِّي بيجي كلّ يوم أقرأ عن روح إبن عمك». أقول له: «الظاهر أنَّك غلطان بالبيت، ما فيش ميّت عنَّا مش حرام تفوّل علينا».

يلحّ وأنا أصرّ، إلى أن سمعته يضرب الأرض بعصاه، وينزل الدرج. أجمع ملابس محمد وأحذيته، أضعها في الصناديق، وأودعها «التتخيتة»، ثم أقوم بجمع كلّ أوراقه ومفكّراته، وأضعها في شنطة أودعها الخزانة. تسترعي انتباهي علبة دخّان فارغة، أفتحها فأرى بداخلها عشرة قروش، وقطعة من فستاني الأسود ذي الدوائر الذهبيَّة. لا أتذكَّر شيئًا عن القروش العشرة هذه، بل حزّ منظرها في نفسي إلى درجة الألم.

تهطل «المطرة الأولى»، فأعد أولادي بالدخول إلى المدارس، وأشعر وكأنِّي أستيقظ فجأةً بعد أن كنت نائمة في بستان، ورأسي

متّكئ على فخذ محمد الشبيه بوسادة. أستيقظ فلا أجده بل أرى خمسة أولاد يشدُّون بفستاني. أربعة منهم ينادون، يطلبون إليّ أن أكتب لهم أسماءهم على الدفاتر والكتب، أن أقرأ ملاحظات المعلّمين والمعلّمات، وأساعدهم على إتمام واجباتهم، الخامس يطلب حليبي ليلاً نهاراً، وفجأةً أصبح الولد السادس وأنا أشدّ بفستاني. من الذي سيقرأ لي هذه الورقات من البنك التي تنتظر توقيعي؟ من الذي سوف يشرح لي العقود والبنود؟ أجدني أوقِّع اسمي حرفًا حرفًا، كما علَّمني محمد، لكنَّ الغشاوة التي كانت تهيمن على الصفحة سرعان ما تسحب منِّي ثقتي بنفسي، فأتساءل: هل أوقِّع فعلاً اسمي على هذه الأوراق الكثيرة؟ هل أوقِّع على الإرث وعلى ما تبقَّى لي ولأولادي لأنَّ (محمد) قد مات؟ أتذكَّر كيف كتب لي مرَّةً ورقة موصيًا لي بالأراضي التي يملكها في قريته، ثم مزّق الورقة إثر مشاجرة حدثت بيننا، ثم عاد يكتبها من جديد فور مصالحتنا. ولا أدري لماذا لم أصدِّقه آنذاك. أتمعّن بالورقة. أبحث عن اسمي فأجده، أبحث عن كلمة الأرض فلا أجدها، أبحث عن اسم قريته ولا أجدها. أقول له هذا فيضمّني إليه، وهو يكاد يعصرني عصراً.

أشعر بأنَّ الأحرف تتصادم بسوادها، وكأنَّها ذباب يطنّ أمام عيني. وبدلاً من أن أرى الأحرف التي كنت أشبّهها بالمسامير المختلفة الأحجام، يطير فجأةً كل ما تعلّمته، وما علّمني إيَّاه محمد، فأجدني أتخبَّط، ويصبح الذباب أكثر طنينًا، وتنكمش المسامير، ويتكوَّم بعضها فوق بعض في ركن ما في عقلي. يتململ الموظَّف وأنا لا

أجرؤ على مصارحته بأنّي نسيت كيف أوقّع اسمي، رغم أنّي وقّعته على ثلاث ورقات أُخذت منّي. أجدني أرسم تداركًا لخجلي شيئًا كالوردة التي رسمتها إلى محمد، ثم شيئًا كالعصفور، فينظر إليَّ الموظف غير مصدِّق. يطلب إليَّ التوقيع على صفحة أخرى، ثم على أخرى، وعندما أكرِّر توقيعي، الشبيه بالوردة والعصفور، من ورقة إلى أخرى، يعترض الموظَّف قائلاً إنَّ هذا لا يجوز، ويقترح عليّ أن أبصم بإبهامي. أشعر وكأنّي فجأةً في سوق النبطية، والسكّاف البيطري يرفع قدم الحصان ليدقّ بها الحدوة. أفكِّر بزوجة الرجل القزم، بائع الفلافل، التي كانت كلَّما أتتها فاتورة قامت بالبصم، وكأنَّها خلقت بأصبع كحلي أسود. أرفض البصم بإبهامي رفضًا باتًّا، وأخبره بأنَّ توقيعي منذ اليوم سيكون على شكل الوردة والعصفور لأنَّه لن تغيب عن بالي كيفية رسمهما، وإذا بالموظَّف يأخذ منّي الأوراق، ويقوم بختمها .

أعمل بما يشير عليّ اخوة محمد، وأشتري بالتعويض الذي قدَّمته لي الحكومة شقةً أقوم بتأجيرها، ثم أودع بعض المال لدى امرأة في البلدة تدعى سلسبيل كانت تستدين المال من الأرامل، لتعيده إليهنَّ بعد عام بفائدة لا بأس بها، ثم أودع مبلغًا من المال لدى بائع أحذية، من بلدة محمد، ليشغّل رأس المال ويعطيني فائدةً. وأخيراً عُيّن لي زوج أخت محمد وصيًّا عليّ ليقبض، بالنيابة عنّي، الراتب الشهري من وزارة الماليّة، ويسعى لتسديد حاجاتنا المنزليّة ومتطلبات أولادي المدرسيّة.

ولم أستطع إلاَّ أن أفكِّر كيف أنَّ (محمد) ما زال يعمل من أجلنا ولو من تحت التراب، فنأكل ونشرب وننام في بيتنا، وأقارن ذلك بوفاة زوج أمي الأول الذي ترك والدتي معدمةً. عند هذه الفكرة أحضن نفسي، وكأنِّي أحضن (محمد)، وأبتسم له لعلّه يسمع وشوشتي: «الله يخلّيك إلنا يا ربّ»، ثم يقشعرّ بدني وأنا أفطن بأنَّ أمي كانت أيضاً في الرابعة والثلاثين عندما ترملت.

«أنا أبو الحن شو إِلك منِّي»

أعـود أعـيش مع سـرب النسـاء، كـمـا كنـت أعـيش فـي بيت عـائلـتي حيث تزوَّجت، وأنجبت، وترعرع حبِّي لمحمـد. فبيـتي الآن أخذ يجذب الفراشات والنحل: كل من تحمل رحيقًا، وكل من يريد رحـيقًـا. من الزوجات التعـسات، أو من العـازبات المتـصابيـات، أو المطلقـات. تعـود بطلات الأفـلام الـسينمـائيَّـة يـدخلن بيـتي، وهن ثملات بالغناء والطرب والحب، بكلام الغزل وسرد حكايات غرامهنَّ ولقـاءاتهنَّ بالتفـصيل، ثم يشتكين البـعد والهـجر وكـثرة الحب. كنَّ يزرنني، وكـأنَّ بيتي هو مسـتـشفى القلـوب، أو استـراحـة، أو مكان للنقـاهة. يلجـأن إليَّ من إخـوتهنَّ، أو مـن أزواجـهنَّ وحـتى من أمهـاتهـنَّ. وعلى رأسهنَّ ابنتاي فـاطمة وحنان اللتـان أخـذتا تمرحـان وتسـعدان في بيـتي كلَّ يوم، بعيـدًا عن والدهمـا وزوجتـه الصـارمة.

لكن يعود الخوف يسكنني، ويمتدّ إلى أولادي الخمسة، إلى أمي، إلى صديقاتي، إلى كلّ من تطأ عتبة بيتي، بعدما أصبح أهل محمد، الرجال منهم فقط، كصائدي الأسماك، ينتظرون بكلّ صمت، أيّة هفوة تصدر عنّي حتى أعلق بشباكهم المنصوبة. لكنّ حزن أخوات محمد الثلاث على موت أخيهنّ كان لا يوصف حتى إنّ إحداهنّ ابتعدت عن بيتنا ومحلّتنا كلّها، في حين أنّ الشقيقتين الأخريين لم تتوقفا عن البكاء وعن قرع الصدر، واحتضاننا إليهنّ.

يحاول إخوة محمد تملُّك كلّ ما يخصُّه. لم يعجبهم أنّي انتشلت نفسي من الكآبة، وأنّي توقّفت عن الاغماء وعن الغثيان. لم يعجبهم تماسكي كي لا تدور الأرض بي، ولا اتّكالي على نفسي بدلاً من أن يحقنني الطبيب بالحقن المهدّئة بين أصابعي لأنّ شراييني اختفت من ساعدي وزندي. أجزم أنّي لو كنت في الهند لقرّروا إحراقي حيّةً إلى جانب جثّة محمد. يضربني أحد أشقائه الذي وشى بي إلى الحاج لأنّي خرجت من البيت للمرّة الأولى منذ وفاة محمد مصطحبةً إحدى أخواته، لنقدّم معًا واجب التعزية لوفاة أحد أقرباء العائلة. أخ آخر يقع في غرامي، فأفكّر كيف يجرؤ على أن يتقرّب من بيتي هذا التقرّب إذا لم يكن متأكّداً من أنّه في مستوى أخيه محمد ومكانته؟ يريد أن يصبح رجلَ البيت، يتلصّص على كلّ من تزورني، يراقبني، يلحق بي أينما أذهب، يجيب كلّما ردعته «أنا حرّ، هيدا بيت أخوي!» فأرفع صوتي، أمنعه من دخول بيتي صائحةً به «أنا حرّة حرّة»، وعليه عدم التدخُّل في شؤوني، وأن يكفّ عن

استجواب أولادي لإيقاعي في الشرك: «أين كنّا؟ ومن كان معنا؟ وماذا أكلنا؟». أوجِّه اللوم لنفسي في الوقت نفسه لأنّي لم أشكّ بنيّاته في بادئ الأمر، حين كان يزورنا يوميًّا ممسكًا بكتاب زجل صغير يحشره في جيب بنطلونه الخلفيّ، فيقف وقفة الشعراء ويلقي أبياتًا من الزجل، للشاعر الذي كنت أحبّه ... والذي يقول: «وناس تأكل التفاح وليش أنا على الأزهار ممنوع؟». فأضحك وأنا أراه يسرع في انشاد أبيات الزجل مُتَفْتِفًا، مبعداً خصلة من شعره، كانت كلّما بلّلها بالماء تهبط على جبينه من شدّة انفعاله... وتذكّرني هذه الخصلة بشعر محمد .

الأيام تمرّ، والأخ الواشي يخسر معركته معي. بينما يتحوّل الآخر إلى مخبر سريّ، نراه فجأةً في غرفة الجلوس، في الرواق، في المطبخ، على الشرفة. وأتحوّل أنا إلى قطة أسرع خلف الفأر، الوصيّ ـ ألاحقه من مكان إلى آخر.

أسأله دفع هذا المبلغ أو ذاك لأمر ما، فيتهرّب منّي وكأنّي أطلب إليه الإستدانة، طالبًا إليّ أن أخبره بكلّ مشترياتي الصغيرة والكبيرة حتى علبة الكبريت. أوقن أنّه يتصرّف على هذا النحو بناء علي تعليمات من أهل زوجي، «خلّيها تشحد القرش شحادة».

لماذا أهل الزوج يتصرّفون هكذا سواء أفي الأفلام أم في الواقع؟ ولم أجد بدًّا من الذهاب إلى المحكمة، وأطلب إلى المسؤول أن يرفع عنّي سلطة الوصيّ. أطلب إليه أن يردع شقيق زوجي المتسلّط، لكن

أذني المسؤول كأنَّهما سُدّتا بالحجارة، لا يسمع سوى صوته وهو يشرح لي «القانون» والبنود، والذي يجوز ولا يجوز. تخطر على بالي قصة العصفور «أبو الحِّنْ»، العصفور الصغير «الجلبوط» الذي ما إن رأى البارودة مصوبّة إلى قلبه حتى ابتهل إلى الصيّاد وهو يرتعش «ولو يا صيَّاد؟ أنا أبو الحِّنْ؟ أصغر العصافير ... شو إلك منِّي، لقمة وبصلة خير منِّي؟». وإذا بقلب الصيَّاد يحنّ على هذا الجلبوط، وبالتالي يروقه منطق العصفور، فيتركه ليبحث له عن طريدة أخرى... فيصفِّق العصفور بجناحيه فرحًا وابتهاجًا، ثم يثمل من ثقته بنفسه التي أقنعت الصيَّاد الطويل العريض بعدم النيل منه، فما إن يرى صيّادًا آخر، حتى يخرج العصفور من عشّه مبادراً: «أنا أبو الحِّنْ ... شقفة من فخدي بتشبع أهل الدار»، وإذا بالصيَّاد يردي العصفور قتيلاً.

كنت في شكواي إلى المحكمة كأبي الحِّن السكران من ثقته بنفسه، وكأنِّي ارتديت مركز محمد درعًا لي، فيعلِّمني رفض المسؤول لشكواي، وحتى عدم إستماعه لها، أن أصبح «أبو الحِّنْ» المرتعش الذي ابتهل للصيَّاد قائلاً: «أنا أبو الحِّنْ شو إلك منِّي؟ لقمة وبصلة خير منِّي».

أعود إلى التحايل والمراوغة من جديد، أنشد أنشودة «أبو الحِّن» الأولى، أمام الوصيّ، وأمام الأخ المتسلِّط. أذهب إلى المحكمة وأطلب المثول إلى الشيخ في المحكمة الشرعيَّة، أقنعه بأن يفكّ عنِّي

سلطة الوصيّ، طالبة إليه أن أكون الوصيّة على أولادي، فيجيبني بأنّ الوصيّ إنّما وُصيّ لمحبّته وإخلاصه لزوجي المتوفي. أما تصرُّفات الأخ المتسلِّط فتعود إلى معرفته بالمجتمع الذي لن يرحم أية أرملة خصوصاً إذا كانت شابة ولم يزد: كلمة «حلوة». ثمّ أقرِّر أن أنشد أنشودتي الخاصّة بعد فشلي في إنشاد اللّحن الأول والثاني، ثم أهرع إلى بيت أخي كامل، أطلب إلى زوجته، الجميلة، ذات العينين الخضراوين، مساعدتي لتذهب معي إلى المحكمة بعد أسبوع. يحاول الشيخ أن يقنعني من جديد بما حاول إقناعي به في المرة الماضية، فأجدني أخبره «بأنّي لا أعتقد أنّ الغريب أولى... وأنّي ملك نفسي لا ملك العائلة، ثم أشكو له بصراحة تحرُّشات أخي زوجي بي».

كنت أبكي أمام الشيخ بينما كانت زوجة أخي كامل ترفرف بعينيها الجميلتين، وإذا بالشيخ يوقّع الأوراق معترفًا بأنّي الوصيّة الأولى والأخيرة على أولادي. وكنت قد وطّدت علاقتي بزوجة أخي كامل، تلك العلاقة التي تعود إلى الماضي عندما كانت أمي وأمها صديقتين.



«محمد يخونني»

تخبرني قريبة لمحمد أنَّ ابنها كان بصحبة زوجي، عندما أوقف السيَّارة ليقلّ فتاة أجنبيَّة كانت تشير بيدها علامة «الأوتو ستوب». أشتعل غيرةً وكأنَّ (محمد) لا يزال على قيد الحياة. أخلع حذائي وأرميه على صورته، ولكنَّ حذائي لم يصبها. وما إن تغادرني القريبة حتى أقف أمام الصورة ألومه وأسأله عن حقيقة ما أسمعه، لكنَّ ابتسامة شفتيه لم تتبدَّل. أضرب صورته، ولمّا لم ينكسر الإطار أو زجاجه، أبدِّل مكانها لتصبح صورته تلتفت إلى صورتي، في الوقت الذي أدير له ظهري. ولم أنم الليل من الغيرة التي تملّكت قلبي.

بينما كنت أموج بين أولادي، وكلي تعب وإرهاق، كان محمد يغازل امرأة أجنبيَّة، وربما أقام معها علاقة. أخبر كلّ من تزورني عن خيانة محمد لي، فتضحك عليَّ كل من تسمع

القصة . . . وتطري ظرفي، غير مصدِّقة أنِّي فعلاً حزينة. يعصرني الضيق، ويميتني الفضول لأعرف حقيقة ما جرى بينه وبين المرأة الأجنبيَّة، وبدلاً من أن تُطوى هذه الحادثة يحصل العكس، فتحدّثني جارة لي عن صديقة لها أخبرتها عندما سمعت بقصة غيرتي أنَّ محمد لم يكن زوجًا وفيًّا إذ دعاها مرّةً لتناول الغداء معه، فرفضت دعوته، ولم يهتمّ لرفضها، بل أخذ يغازلها محاولاً إقناعها بالقبول. وكانت قد التجأت إليه ليساعدها في إتمام معاملة رسميَّة بعد أن ذاع صيته في المنطقة بأنَّه يمدّ يد المساعدة لكل إنسان.

أذهب إلى المرأة هذه، وكانت مديرة لمدرسة حكوميَّة، أستوضحها حقيقة الأمر، طالبةً إليها أن تقصّ لي قصّتها مع محمد، لكنَّها تتراجع أمام حنقي وغيرتي وأنا أردِّد أمامها بلا وعي: «هلّق بشوف . . هلّق بفرجيه»، وكأنَّ محمد في الغرفة المجاورة. تقسم لي المرأة بأغلظ الإيمان بأنّها اخترعت هذه القصّة لأخلع ملابس الحداد، وأعود إلى حبّ الحياة. ولم أصدِّق حجَّتها هذه، بل تصوَّرتُ (محمد) جالسًا في مكتبه فتدخل عليه هذه المرأة وفي يدها شنطة يد، دون أن توحي ملابسها المهندمة بأنَّها تقبع في البيت تطبخ وتغسل وتنظِّف، بل إنَّها تحسن قراءة الأوراق الرسميَّة. وأتخيَّل (محمد) يحدِّث نفسه: «إنَّها متعلّمة وفي مستواه الفكريّ. هي في قلب الحياة، بينما زوجته كاملة في البيت. الخروج معها معناه أنَّه قد وصل فعلاً إلى هذا المركز الكبير الذي يمدُّه بقوّة لن تستطيع هذه المرأة أن ترفضها». أهرع إلى الخزانة، أنزل الشنطة التي أودعت فيها

كلّ أوراقه، أدور حول نفسي، تُرى بمن أستنجد حتى يقرأها؟ لا أريد أن يشمت بي أحد، أريد لسانًا دافئًا. أفكّر ببائع التليفزيونات، جاري الذي كان يعاكس ابنتي فاطمة، أفكّر بالصديقة البيروتيّة التي انقطعت أخبارها عنّي منذ زواجي، ومع مرور كلمة البيروتيّة في بالي، أصيح «وَلَوْ! سامية، سامية!» إنّها جارتي معلّمة المدرسة التي تحبُّني وأحبُّها.

أنتظر عودتها من المدرسة وفي حضني عشرات بل مئات الأوراق. أخبرها عن خيانة محمد لي وأقلّد لها ما قالته لي المرأة المسنّة في بلدة محمد حين كنت أزور قبر زوجي تحت الشجرة وأدلق الماء عليه، أقلّد لها كلامه ولهجتها: «يا حريقي... جوزك كان ملك... كان الفرد (المسدس) حاطو هون وهون، (وهي تشير إلى جنبها الأيمن و الأيسر) واللّه لما مات جوزي بكيت عليه بس ما قدرتش إلاّ هِتّو (أعاتبه).. أنت نزلت عبيروت وركبت الترون وأنا تركتني هون أرعى البقر... رحت لطيزي... يللا جنازتو ولا جوازتو، يمكن لَوْ بعدو عايش كان تجوّز عليّ...».

ولم أستطع إلاّ أن أعود فأقع من جديد في حبّ محمد حين رأيت خطّه، ورأيت رسائلي إليه المكتوبة بيد ابنتي فاطمة، وبيد الصديقة البيروتيّة. رأيت العصفور، والعشّ والورود التي رسمتها له. رأيتُ أوراقًا بين فقرة وفقرة، يفصلها خطّ باللون الأحمر، عرفت من سامية أنّها يوميّاته. لكنّي كنت في عجلة من أمري، أريد أن أكمش رسائل أُرْسِلَتْ إليه، وإذا ببصر سامية يقع على كلمة «بونجور

مونامي» بالعربيَّة والفرنسيَّة، غير أنَّها كانت قصة حب بين تلميذ وتلميذة. أما التلميذة فهي «فتاة كالبدر، اسمها K تسير في خطى موقّعة كخطى الريم. على ثغرها ابتسامة عذبة لو تمثّلها الأعمى لأنتحر أسفًا ولوعة». ثم يستطرد: «وصلنا إلى تلك الروابي القائمة شرق مدينة بيروت، والمدينة مستندة إلى تلك الناحية كأنَّها عجوز تلقي بظهرها إلى جدار متين، أو كأنَّها طفل تحتضنه أمه. هناك تركنا الكلام للعيون تنوب عنَّا وكانت نظراتنا عندما تلتقي تُحدث في أجسامنا ارتعاشات وهزّات». ثم يكمل أنَّ الصيف قد أتى، وذهبت حبيبته التلميذة إلى «بحمدون»، فضاقت به الدنيا، ولم يعد يحلو له شيء في الحياة، ولم يستطع المرور في الطرقات التي كانا يسلكانها معًا. ويراها فجأة، في محطَّة الناصرة وهي تحاول اجتياز الشارع إلى الجهة المقابلة. لم يصدِّق نظره، فإذا هو يناديها بكلّ فرح، فتلتفت، وما إن تراه حتى تركض إليه: «لكنَّ حافلة الترام لم تمهلها، ولم تسمح لها بالعودة إلى هذا الحبيب الذي لم يلبِّ طلبها، لذلك ترجع إلى بيروت لتمتِّع ناظريها بمرآه، فكان أن متَّع طرفه بمرآها تحت عجلات القطار التي بترت أعضاءها وقضت على آخر رمق لها في الحياة. تصاعدت الصرخات من الحناجر، وتراكض الناس في فزع وخوف، وعلت ولولة النساء، وكلهنّ يصيح «يا ساتر يا لطيف!». هرع الناس ليشاهدوا تلك المخلوقة البريئة تتحطَّم أعضاؤها، وتتبعثر تحت عجلاتٍ لا تشفق ولا ترحم دون أن... عندما حطمتها هدرًا. هذا يبرئ ساحته، ويضع المسؤولية على الشهيدة، والثاني في هرج

ومرج، ما عدا إنسان، إنسان واحد، ولكنَّه لم يعد إنسانًا، فقد أصبح تمثالاً لا يتحرَّك، وقف يتأمَّل بروحه ما حدث تحت العجلات».

تنتهي سامية من قراءة القصة، فأخبِّط صدري، أكان يريد هذه النهاية لي من شدّة قهره، لأنِّي كنت لا أزال متزوِّجة بالحاج وخائفة من الطلاق؟ يريد موتي حتى يتوقَّف عذابه ويصبح كالتمثال... وها هو الآن تحت التراب فأصبح أنا هذا التمثال. وكأنَّ أمر عثوري على دليل الخيانة لم يعد مهمًا... وتنقلنا هذه الأوراق كالمسحورتين إلى بستان مليء بالعشب، فنتحوَّل إلى بقرتين لا تعرفان من أين تبدآن، ويتأجّج شوق سامية لقراءتها بمقدار تأجّج شوقي، فأتركها، وأدخل المطبخ لأعود أراها لا تزال مكبّةً على الأوراق، تهزّ رأسها، تارة تمسك قلبها، وتارة أخرى تنسخ بعضها، وتقول لي: «اللَّه من فوق بعتلك إيَّاه، مشان تذوقي طعم الحب... في نسوان بتعيش وبتموت، وضرسهن ما بيعرف غير الوجع».

ثم تقرأ لي سامية عبارة في أسفل ورقة كتبت عليها أبيات من الشعر. تقول العبارة التي ذُيّلت بتوقيع «مخلص»: «مضطر للبحث عن الحقيقة، واسلم لصديقك الغيور». ولم نفهم ما علاقة الشعر بتلك الجملة في أسفل الورقة. تبدأ سامية في قراءة الأبيات، ثم تتوقَّف وهي تخبِّئ وجهها خجلاً فهي لم تكن قد تزوَّجت بعد ولا تزال عذراء، رغم تخطِّيها الخامسة والعشرين، ثم تكمِّل قراءة الشعر، وتتوقَّف وهي تعلِّق بلهجتها البيروتيَّة بين حين وآخر «يا لطيف تتلطف... شو هيدا هيدا».

شكوى ثريّا

شكتني ثريّا إلى والديّا
وقالت فتاكم تجنّى عليّا
حسا الخمر حتى استطار هواه
فشدّ وألوى على ناهديّا
وبالرغم منّي ترشّف ثغري
وطوّق نحري ولاك المحيّا
قد امتصّ شهدي وزَعْفرَ وردي
وعاثت يداه برمانتيّا
وظلّت ثريّا تغالي وتبكي
فهاج بكاها بكا والديّا،
وفاوض أمي أبي في فتاها
وقال لي لمَ تماديه غيّا
فقالت سيصحو واسديه نصحي
ولا ذنب إلاّ لتلك الحميّا
ومتى جاء فاخلُ به في خبائي
وافرك خدّيه بين يديّا

وامتص من فيه خمراً حساها

فيصحُ من السكر شيئًا فشيّا

فقالت ثريّا إذا كان هذا

الدواء دواه كليهِ اليّا

أنا بامتصاص المراشف أدرى

وما اعتاد فوه سوى شفتيّا

مضطر للبحث عن الحقيقة واسلم لصديقك الغيُّور

«مخلص»

نضحك على ما كتبه محمد قرب الكلمة الأخيرة: «فهنيئًا مريئًا».

نضحك على هذا الشعر «الرزيل» الذي لا بدّ أنَّ (محمد) قام بنسخه، ولم نجد علاقة تربط مضمون القصيدة بجملة الصديق الغيور، المضطَّر للبحث عن الحقيقة، صاحب إمضاء «المخلص». وتقلب سامية الصفحة وإذا بها رسالة، بل مسوّدة رسالة حسب رأي سامية، موجَّهة إلى الوجيه الشهم السيِّد الذي يحذِّره فيها كاتبها من الزواج بامرأة تدعى خديجة: «إنَّها حيَّة رقطاء لها عشرات الزبائن... إذا اقترنتَ بها فسيسقط مركزك وتذوب أموالك. ماذا ينفع الجمال بدون الفضيلة؟ إنَّه كزهر بلا رائحة! إذا أردت التأكُّد بنفسك فاحضرْ إلى فناء دارها الساعة الحادية عشرة في الليل، فتراها تستقبلُ أحد الزبائن الجدد...».

وثمّة رسالة من قريب لمحمد يخبره كيف رأى هناك المدموزيلات الرائعات، ذوات النهود العارمة، والخصور النحيلة، والأرداف الجميلة. «فاندسّ بين المدموزيلات كالعصفور تحت جناح أمه... آه كم أتمنّى لو كنت بجانبي إذ لا يوجد غيرك في هذا الميدان!». عرفت من تاريخ الرسالة أنَّ (محمد) كان منقولاً إلى طرابلس، فاجتاحتني طمأنينة عميقة. أبدأ بإعادة الأوراق إلى الشنطة، وكلّي ثقة بأنَّ (محمد) لم يخُنّي قطّ. أنهض وآتي إلى سامية بفنجان قهوة، وأشعل السيكارة التي لم تعد تفارق يدي.

أعود بعد ستة أشهر إلى الشنطة نفسها، أخرجها من أجل أن تقرأها صديقة جديدة، تصغرني سنًّا، تعرَّفت عليها بعد أن سمعت بقصة غيرتي على محمد بعد موته. تقرأ لي يوميَّاته كلّها، ومن بينها جملة، بل جملتان أثارتا فيّ أشدّ الألم: «حبيبتي كاملة؟ لم تعد تدفئني». وتقرأ في مكان آخر: «بعد السنوات الأربع التي قضيتها مع K، ذهبت لعند بنات (...) ولم أجد أحداً». ألوم نفسي لأنّي أنبش الماضي، وكأنّي دجاجة تنبش عن حبّة قمح، وإذا وجدتها عرفت أنَّها لن تستطيع بلعها لأنَّها من غير حلق. أوجِّه اللوم له، أعاتبه وأغضب منه، ولا أشفي غليلي، فهو لا يستطيع الاعتذار، أو إبعاد الظنون عنّي.

وكانت بنات (...) يكاد لا يراهنَّ محمد إلاَّ من وقت إلى آخر قبل أن أطلّق. أتذكَّر الحلم الذي رأيته، وفحواه أنَّه عاد ورأى

إحداهنّ، فأخبر (محمد) بهذا الحلم عبر مكالمة هاتفيّة جرت بيني وبينه في أثناء قضائه مدّة أسبوع أو أسبوعين في إحدى المناطق البعيدة بحكم عمله. يضحك منّي، ويرسل إليّ رسالة يتحدّث فيها عن حلم حلمت به إحدى أخواته بعد أن أكلت الكثير من المجدرة قبل النوم، فرأت في المنام أنّ «المجدّرات» حملتها وحطّتها على الطنجرة. أعيد الرسائل ويوميّاته وكلّ أوراقه إلى الشنطة، وأودعها من جديد في «الخزانة»، وأصل بعد مرور أسابيع إلى قناعة أكيدة وهي أن أبعد عن ذهني السطرين اللذين أثارا فيّ جراحًا لن تندمل، ثم أستحضر إلى ذاكرتي عشرات من كلماته التي رفعتني إلى السماء، وأوهم القريبة التي أخبرتني عن الأجنبيّة والأوتوستوب، ومديرة المدرسة، والصديقة الجديدة التي قرأت لي السطرين نفسهما، بأنّ حيلهن قد نجحت، وها إنّي سأخلع ملابس الحداد، كما تمنّينَ لي. وبالفعل أذهب مع ابنتي فاطمة، وأشتري كنزةً جميلة ملوّنة، ثم نعرّج معًا على صالون للسيّدات ليسرّح لي الحلاق شعري الأجعد، وأتعمّد المرور في حيّنا القديم، لعلّي أصادف ابن جيراننا. ويلوح لي بيتنا بلا سطح، إذ بنيت فوقه ثلاث شقق، وأرى شرفة ابن جيراننا، لكنّي لا أتوقّف، بل أكمّل طريقي وأنا أبتسم.

خوف أمي يكبّلني، خوفها من أهل محمد والدائنين، خوفها على أولادي الصغار، من الشرفة، ومن فرن الغاز، من أن يتجاوزوا الطريق، أو أن يمتدّ إليهم مرض عينيها. كلّ هذا الخوف كان يهون أمام خوفها من صباي؛ تردعني حين تراني أقف أمام المرآة أسوّي

شعري. أما إذا ضحكتُ، أو خرجت من المنزل، أو جلست على الشرفة، أنا وجارة لي أو قريبة، ننفث دخّان سيكارة، فهي تتأفّف وتقول لكلّ من تزورني: «بتعقّوا القهوة كأنّها جاية من النبع بلاش». تريدني أن أنسحب إلى غرفتي إذا جاء أخو محمد، ورغم حبّها لأولادي إلاّ أنّها كانت تتشاحن طوال الوقت مع ابنتي ـ أ ـ تردعها لأنّها تلعب، أو تقفز، أو تقف على الشرفة. تريدها كبنات الضّيعة، أن تتحمَّل معي مسؤوليَّة البيت وأخوتها الصغار.

وتظهر أمي كل حنقها واضطرابها وكمدها الشديد حين يزورني أبي، مبديةً له نفورها وازدراءها منه، لا من زوجته غريمتها. حتى عندما كان يقصّ علينا قصصه المضحكة عن نساء القرية اللواتي كنَّ يطلبن مساعدته في كلّ صغيرة وكبيرة. هؤلاء يستهضمْنَه ويشعرْنَ بسماحة صدره، فالسخرية ترافق كلامه، ووجهه الضحوك يشجِّع من حركاته الجريئة، فيربِّتُ على كتف هذه، ويقرص وجنة تلك، ولم تكن النسوة قد اعتدنَ على رجل مثله، لذلك كنَّ يخبرْنَه عن الحميميّات والخصوصيَّات، ويطلبْنَ مساعدته الفعليَّة، خصوصًا في مسألة علاقتهنَّ الجنسيَّة بأزواجهنّ، مستندات إلى البرهان: «كلما اشتهاك زوجك وضاجعك، ابتعد عنك الوسواس بأنَّه لم يعد يرغب بك، ولا بدّ أن يتزوَّج بامرأة أخرى، ويأتي لك بضرَّة»... وكنت قد حلَّلتُ كلمة «الضرّة» ورأيت أنَّها من الضرر. الضرّة، أو الزوجة الثانية، هي التي تسبِّب كلّ الألم للزوجة الأولى... هي التي توجِّه إليها الضرر بكل أنواعه وقسوته. وكان يكتب لهنَّ الأحجية مع

يقينه أنَّ ما يفعله لن يقدِّم أو يؤخِّر شيئًا، ما عدا منفعته الشخصيَّة التي لم تقتصر على المادة، إذ كان يتقاضى نتيجة خدماته ما يعادل أي شيء باستطاعة المرأة الاستغناء عنه من غير أن يدري زوجها... من ورقات الدخّان المجفّفة إلى البيض، إلى اللبن والطحين والمؤونة...

تقدِّم له امرأة ديكًا وسطلاً من اللبن، لقاء كتابته لها حجابًا بعد آخر ليعود زوجها إلى فراشها ويضاجعها. وعندما لم ينجم عن هذا الحجاب الذي وضعته المرأة تحت وسادة زوجها إلاّ الكبت والقهر، راحت المرأة تدقّ باب أبي، وتشكو له همّها، وتذكِّره أنَّ أحجبته لم تنفع في رجوع زوجها إليها، وكان أن ضاق أبي ذرعًا فصاح بها ذات يوم: «أكلنا لبناتك، وشوينا ديكك، وإذا ما بدّو ينيـ... ك عمرو ما ينيـ...ك».

يحاول أبي إضحاك أمي في البداية، ثم يوجِّه إليها الكلمات القاسية ما بقيت على موقفها الصارم منه: «يلعن كبرتك». أحاول منعه من توجيه هذه الإهانات إليها من دون فائدة، فقد كان يهدِّد زوجته الثانية وهو يدلّ على أمي: «إذا حكيتِ أو شكيتِ راح لحقكِ فيها». أحاول تطرية الموقف، لكنَّ أمي تسكتني بجملة واحدة: «نسيتِ كيف تركْنا بلا كَلَفْ؟». أحاول أن أقول لها أنَّ «اللي راح راح»، فتتنهد تنهدةً تخرسني، فأعضّ على شفتي متألّمة لألمها، متمنّيةً لو أنّها تزور شقيقي العابس، أو عاشق العود، أو أخي كامل في أثناء زيارة أبي لي، لكنّي لا أجرؤ على عرض فكرتي هذه عليها،

فهي لا تطمئنُّ ولا تشعر بالرَّاحة إلاَّ في بيتي، تريد أن تكون قريبةً من أولادي فما إن تبتعد عنَّا حتى يبدأ سرسابها، ويصبح خوفها عليهم مرضًا. أراها تكبو على الكنبة، وأتذكَّر أنَّها لم تُسْعَدَ ليوم واحد. منذ أن قُتل زوجها الأول، ازداد صمتها وحزنها مع مرور السنين، وكبر وسواسها ناخرًا رأسها، خصوصًا عندما تأوي إلى السرير، وتتقلَّب في فراشها متمتمةً «إجت الونّة» وكان طنين أذنيها، يدور حول أحفاد ابنتيها المتوفيتين وأولادي، فهم الذين يشغلون بالها سواء أكانوا كباراً أم صغاراً. تسمع شكاوى حين لا يجدون الوظائف، فتعرض على كل منهم: «بتاخذ خاتمي بتبيعو؟ بتاخذ جوز الحلق وبتبيعو؟»، وهي تدلّ على طرف منديل رأسها حيث خبَّأت كلّ ما تملكه بعقدة. فهي أخذت تميِّز بين النجاح والفشل بعد أن نجح صبيان ابنها العابس، وفشل كلّ أحفادها الباقين.

وإذا طلبت إليها مشاهدة التلفزيون لإدخال البهجة إلى قلبها تحثّني، وأنا أشاهد الفيلم على أن أتدخَّل شخصيًّا بما يجري على الشاشة الصغيرة: «قولي للمرا مش لازم تصدّقو وتطلع معو بالعربيّة (السيّارة) بكره بيُورّها (أي يرميها)». وعندما كانت البطلة تبكي وتسألني أمي لماذا تبكي، فأخبرها بأنَّ حبيبها قد تركها، كانت تعلِّق: «إي بتستاهل.. قلنا لها شو بدّك فيه؟ الحقّ عليها ليش ما سمعت كلامنا؟». وحين ترى مذيع الأخبار تنحني على ركبتها، وتأتي لي بغطاء شعري، وترميه لي: «ولِكْ تستّري تستّري»، ثم تتأكّد من أنَّ منديل شعرها مُحْكم حول وجهها. تجلس عند باب

الشرفة، وعندما يأتي الأولاد من المدرسة كانت تمدّ ساقها تسدّ بها الباب حتى لا يخرج أولادي إلى الشرفة ويسقطون منها.

تموت أمي ونأخذها إلى النبطية لتدفن قرب ابنتيها، نصل بيت أخيها الاسكافي الذي يرفض أن ندخلها بيته لأنَّ ابنه قد تزوَّج منذ مدّة، وهو لا يودّ أن يجلب فأل الموت إلى البيت.

أبكي دمًا وأصيح دمًا، فها هي أمي حتى في موتها تشحذ العاطفة والمأوى. يقدِّم لنا جيران أمي بيتهم احترامًا لذكرى الماضي، رغم أنَّ أبصارهم لم تقع عليها منذ أن نزحت إلى بيروت، وتأتي خالتي «ذات الحيَّة في البطن» وتبكي على أمي بكاءً يحرق القلب، ولا تنسى أن تبكي على مفضّلة، ابنتها التي ما تزال أخبارها مقطوعةً. نواري أمي التراب، وأطلب إليها السماح للمرَّة الأخيرة لأنِّي عضضتُها ذات يوم بكلّ قوتي، وكنتُ قد طلبت إليها السماح أكثر من مرة، في أثناء مرضها، لكنَّها لم تكن تجيبني بأيَّة كلمة. أخيرًا عندما نادتها ابنتي فاطمة: «ياستّي يا ستّي»، سمعنا أمي تلفظ كلمة: «ياروحي»، وكانت تلك كلمتها الأخيرة.

«يقال لي إذا وضعت المصاري تحت قدميك عرفتها، وإذا اعتلت رأسك أنزلت من قيمتك، وأنا بقول: «بس فرجّوني إيَّاها...»

مرّت سبع سنوات ونصف سنة على وفاة محمد. تبدّلت أمور كثيرة منها سقايتي لشجيرة الفتنة، في الليل لا في النهار، خوفًا من أن يلمحني الدائنون على الشرفة: الجزار، الفرّان، صاحب مخمر الموز، بائع الخضار، بائع المفروشات، بائع الأقمشة، وحتى جابي الكهرباء. شجيرة الفتنة التي زرعها محمد في أصيص صغير لا تنمو، ولا تموت، بل تبقى على ما هي عليه، وتزهر الزهرات القليلة. كان محمد يودّ نقلها إلى أصيص أكبر، لكنَّه مات قبل أن ينقلها.

يدقّ الدائنون باب بيتي، فيفتح لهم ابني الصغير، وينقذني كالدرع، وكان قد أتقن أجوبته والإيحاء بتعابير وجهه حسب

الظروف. حتى عندما كان يجد نفسه أمام الدائن بغتةً، كان يسيطر على الموقف بسرعة خاطره رغم أنَّه لم يكن تخطَّى الثامنة من العمر: «ماما راحت، وبعد شوي بترجع». وإذ يلاحظ غضب الدائن، يقول له والدموع تنفرَ من عينيه «راحت ماما عند الحكيم... قال هي مخطرة». وإذا استشاط الدائن غضبًا، وقرَّر انتظاري، يبدِّل ابني حجَّته بأنِّي ذهبت إلى الجنوب لأنَّ قريبتي قد توفيت، وهو ينتظر أولاد عمّه أو خاله ليأخذوه إلى بيتهم.

وكان «جابي الكهرباء» هو الأحبّ إلى قلبي من الدّائنين، ذلك الشاب اللّطيف الذي أخبرني، ذات يوم، وبخجل تام، بأنَّه كان زميلاً لابنتي فاطمة في المدرسة، فوعدته بأن أخبرها لتأتي وتراه. ثم خطرت على بالي فكرة، فسألته إن كنتُ أستطيع ارجاء الدفع حتى نهاية الشهر، وإذا به يرتبك أشدَّ الارتباك قبل أن يجيبني خجلاً: «أكيد». عندئذٍ أسأله إذا كان باستطاعته تسليفي عشر ليرات حتى أشتري بها الكتب لأولادي، وأكّدت له بأنِّي سأدفعها مع فاتورة الكهرباء في الشهر القادم. طلبي هذا جعله يمدّ يده إلى جيبه، ثم إلى جيبه الآخر، إلى أن عثر على الليرات وأعطاني إيَّاها. كلامي هذا أدهشه، خصوصًا أنِّي أعيش في بناية جميلة، وابنتي فاطمة كانت تُعَدُّ من التلميذات المحبوبات «المزنطرات»، التي ترتدي الملابس الجميلة، وتذهب إلى الحفلات الراقصة.

كلما حاولتُ أن أنتبه إلى مصروف البيت أصابني الفشل، إذ حتى فنجان القهوة له تكاليفه: البن، والسكّر، والغاز، والركوة،

والفنجان نفسه، ثم صابون الجلي، والسفنجة، فبيتي تحوّل إلى مقهى الزائرات فيه يكرعْنَ القهوة صباحًا، وبعد الظهر، ومساءً، ثم تحوّل بيتي المقهى إلى مطعم يزاحم فيه الزائرون أولادي على الطعام، يشتهونه فأعرض عليهم تناول الغداء، «صحن، صحن عالماشي»، وإذا بالطنجرة تفرغ، كذلك صينيّة الكبّة. وما إن يعود أولادي من المدرسة حتى أوزّع عليهم النقود من أجل أن يشتري كلّ منهم ساندويشةً وساندويشةً أخرى، من الدكّان المجاور. ولأنَّ بقايا الطعام في الصواني والطناجر الفارغة تذكّرهم بما افتقدوه، كانوا لا يتوقّفون عن شراء السندويشات مظهرين غضبهم منّي ومن الزائرين. وأضيف إلى كلمة الساندويشة كلمتي «المحّاية والبرّاية»، وهما عدوّتان لدودتان لكثرة ما تختفيان حتى لو كانتا في أيدي أولادي.

لم أكن أنجح، مهما حاولت، أن يجد أولادي الطعام بانتظارهم، وإذا نجحت دبَّ فيهم الجوع، فأسرعوا إلى شراء السندويشة نفسها، يليها شراء كلّ منهم «تحليته» المفضّلة.

وعندما لم يسمع صاحب الدكّان نداءاتهم المتواصلة من جراء ضجيج السيّارات، ولإقفاله باب الدكّان من برد الشتاء، اتفقت معه أن أركّب جرسًا على الشرفة. فإذا كبسنا عليه، ردّ من دكّانه، فيهرع إلى تلبية طلباتنا، ويضعها في سلّة خاصة كنّا ندلّيها له. كنت أؤمن بأنَّ تغذية أولادي أمر في غاية الأهميّة، وأنَّ الطعام وأصنافه المتعدّدة نوعٌ من الحب والدلال، فأشتري لهم الكلاوي والكبدة والقصبة السوداء، خصوصًا أن إحدى بناتي كانت مصابة بفقر الدم.

تستثير قصص هربي من الدائنين كل الضحكات، لاسيّما قصّة الدائن الذي لم يمنحني الوقت الكافي لأحتمي بغرفة نومي، فاختبئ خلف ستارة غرفة الجلوس، واكتشف أنَّ السيكارة لا تزال في يدي، فأبعدها إلى طرف الستارة خوفًا من احتراقها، لكنَّها تفضحني بدخانها المتصاعد. وقصة الدائن الآخر الذي لم يصدِّق حجّة صغيري بأنِّي ذهبت إلى الطبيب، ولم يترك لي المجال لأركض من غرفة الجلوس، وأختبئ في الحمام، بل اختبأتُ خلف الستارة، وهذه المرة من غير سيكارة، وسمعت الدائن يقول وأنا أحبس أنفاسي: «والله شايفك... شايفك». ولبثت في مكاني لا أتحرَّك وكلي ظنّ بأنَّه سيوقع بي: «شايف إجريك واللَّه شايفهم». أرفع الستارة عنِّي بكلّ خجل، وأقول له وأنا أضع أصبعي على فمي: «هُسْ هُسْ عالسّكيْت، لو معي مصاري ما تخبَّيْت». ويضحك الرجل لجملتي التي بدت وكأنَّها ترنيمة، ثم يهزّ رأسه ويتمتم: «لا حول ولا قوَّة إلاَّ باللَّه»، ويضحك ويغرق في الضحك، خصوصًا أنَّ ابني الصغير راح يرقص ويقفز على الكنبات، ويرتمي على الأرض من شدّة الضحك. وأخيراً يتحوَّل ابني الصغير من غير أن يدري، إلى مبتزٍّ، فيسألني أن أعطيه ليرة، وإذا لم أفعل فسيخبر عمّه أين ذهبنا، ويقف مهدِّدًا: «بتعطيني ليرة وإلاَّ بقول».

وكان أخو محمد ما زال يتردَّد على البيت، ويتجسَّس عليّ، وعلى الزائرين والزائرات، رغم محاولاتي الكثيرة لمنعه من دخول البيت. فهو من عائلة اشتهر رجالها بالقوّة، يتحدَّثون بكلّ عنفوان،

ويصرخون إذا تكلّموا، يتشردقون إذا ضحكوا، يدقّون رؤوسهم بالجدران إذا بكوا، يخرطشون مسدساتهم إذا غضبوا، والفرق بينهم وبين محمد أنَّه كان عبارة عن كفّتي ميزان متساويتين في القوّة والضعف.

«بتعطيني ليرة وإلاّ بقول» يردِّد ابني، ولا أفكّر إلاّ بإسكاته، والخوف من شقيق محمد يكاد يشلّني. هل من المعقول أنّ ابني الصغير يحاول ابتزازي؟ هذا الولد الذي ظلّ يرضع من ثديي رغم تخطّيه سن الخامسة! كان يطرح كتبه ودفاتره على الأرض فور عودته من المدرسة، ويناديني، حتى لو كنت في بيت الجيران أو محاطة بالزائرات، ويومئ إلى صدري، فأتذكّر انّي لا أزال أقوم بإرضاعه، فأدخل معه غرفة النوم، وأكشف عن صدري، فيتمدّد وهو في مريول المدرسة، مغمضًا عينيه حين يرضع كأنّه طفل لم يتجاوز شهوراً قليلة.. يرضع وسط ضحكات أولادي وأولاد الجيران، يرضع حتى لو كنت ألبس جواربي، أو أفقّي البازيللا... وأجدني أصيح به أمام عمِّه: «ولَكْ يللا قول، قول قول». ويرتعب ابني ويفرّ هاربًا، ثم أعود فأسمعه يغنّي عن بعد: «إذا ما بتعطيني بدّي قول إنا رحنا على بع... بع» ولم يجرؤ على تكملة كلمة «بعلبك» حيث ذهبت مع قريبة جارتنا تلك التي ولدت في أفريقيا، وأتت إلى بيروت، وطالما سمعت عن بعلبك من أفواه اللبنانيّين، واشتهت زيارتها. أصيح بابني، أصيح بأخي محمد، أصيح بنفسي لأنّي أبلع «الموس»، وإذا بأخي محمد يسحب مسدسه ويصوّب فوهته عليّ، فيتكوّم أولادي

حولي، ويعيدني خوفي إلى كاملة القديمة التي إذا نوت شيئًا فلا بدّ أن تحقِّقه، إما بالنفاق والتحايل، أو بالعناد والصياح. لكنّي لم أتخيَّل أنَّ تصرُّف أخي محمد هذا قد ترك كل الأثر في ابنتي ـ أ ـ وهي ترى عمّها يستشيط غضبًا مصوِّبًا المسدَّس علينا، فتتوقَّف عن الذهاب إلى المدرسة، تريد حمايتي منه بينما ظننت أنَّها أصبحت كسولة، وينتقل ابني الكبير من مدرسته البعيدة إلى مدرسة قريبة للسبب نفسه. أحاول اللجوء إلى أفراد عائلة محمد، لكنَّ الأخ لا يرتدع، بل يصبح أكثر تسلُّطًا وهوسًا، فأقف أمام صورة محمد وأخاطبه ذات مرة: « يلّلا خلّصني إنزال واضربوا لخيّلك»، ثم أخاطب الصورة في مناسبة أخرى: «أنا كزهرة القندول، ما إن تصبح يابسة كعود الحطب حتى تُرمى إلى الماشية».

ولم أجد بدًّا من دقّ أبواب الذين أودعت لديهم المال كالمرأة «سلسبيل» لتصبح «سلسبيل» إسمًا على مسمًّى، فهي أخذت تتهرَّب منِّي كالماء، ثم تنكر أنِّي أعطيتها شيئًا، وتأكل مالي ومال كلّ الأرامل. أقصد بائع الأحذية مطالبةً بالمبلغ كلّه هذه المرَّة، بعدما كان يعطيني «الشحّاطات» والأحذية بدلاً من المال، وهو يقسم لي بأنَّني الرابحة! كذلك بائع قمصان النوم الجميلة الذي كنت قد أودعت لديه «المنحة الحكوميَّة» خوفًا من إنفاقها، فيقدّم لي «كشفًا بالحساب» يدلّ على أنَّني قد اشتريت بكلّ ما أودعته لديه، كقمصان النوم الحريريَّة، والمزيَّنة بالدانتيلا، والشرائط الساتان. ولم أصح به أنّه السبب، إذ كلَّما أردت أن أسحب من مالي تمتم أمامي أنَّ

حالة السوق راكدة، فآخذ قمصان النوم لي ولبناتي، رغم صِغَر سنِّهنَّ، ونلبسها ونختال بها. وهكذا أعود شهراً بعد آخر بقمصان نوم أجمل وأشهى.

وكان الحلّ الوحيد هو أن أبيع الأساور الذهبيَّة تباعًا، كما أبيع الحلق بعد الآخر. يحزّ في قلبي أنِّي رهنتُ «مرشوش» بمئتي ليرة، فأكتشف أنَّ الصائغ قد غشَّني لأنَّ قيمته كانت تقارب الألف ليرة. طبعًا سيقوم بغشي من يسمعني أساومُ البائع المتجوِّل ليبيعني سلعةً بأغلى مما كان يطلب وهو يقول لي: «يلّلا خذيها بـ ٧٥». وأنا أجيبه: «لا بليرة، إذا بليرة باخذها...». فيسألني أن أسمعه جيِّداً ويقول لي: «بدّي أنا منك ٧٥»، وأنا أردِّد: «أنت أسمعني بس باخدها بليرة». وعندما طفح الكيل به، قال: «... يللا ليرة ليرة...» وهو يلفّ لي السلعة. ولم أفهم أنَّ البائع المتجوِّل كان يطلب منِّي أقلّ من الليرة إلاّ من جارة لي كانت تراقب مساومتي؛ فسألتها لماذا لم تتدخّل لإغاثتي، فأجابتني بأنَّها كانت غارقة في الضحك.

أحاول أن أحدّ من ديوني، فأنبِّه البائعين ألاّ يبيعوا أولادي ولو قشةً واحدةً ما لم أوقّع على ورقة. وطبعًا راح الأولاد يزوِّرون توقيعي. وعندما أقرِّر ألاّ أشتري لأولادي ملابس العيد يأتيني محمد في الحلم معاتبًا: «ولَوْ يا كاملة، نسيتِ قدّيش العيد مهمّ بحياة الصغار؟ نسيت شو عملوا فيك أهلك بالعيد؟». ورغم حالتي الماديَّة الميؤوس منها، لم أتوقّف عن التصدّق على الفقراء الذين يقصدونني، فأمدّ يدي للفقير، سائلةً إيَّاه أن يصرف الليرة المتبقية لديَّ حتى يأخذ هو

نصفها. أغنّي للأعمى إذا أصبح عبّي فارغًا، حتى من خمسة قروش، فيفرح بأغنيتي، ولا يغادرني إلاّ عندما أنتهي من أدائها، وهو يدعو لي بالتوفيق، فأوصيه أن يعود في أول الشهر، لا في منتصفه أو في آخره، من أجل أن أتصدّق عليه، أحاول مرّةً أن أكمِّلَ لسائق السرفيس ما تبقّى له من نقود، ولم يكن معي أو معه «فراطة»، فأخرج صورة لوالدي من شنطة يدي أمدّها للسائق مازحةً، وأنا أقول: «طيّب خود صورة أبوي». ينظر إليَّ السائق نظرةَ ذعر، ولعلّه ظنّ أنّي مجنونة، ولم يكن يعرف كيف يتصرَّف مع المجانين. وجدتني أصرّ عليه: «يللا خود صورة أبوي»، فيردِّد بصوت منخفض: «شو بدّي أعمل بالصورة؟» أقول: «وَلَوْ، أبوي من أحسن عيل بالجنوب، هو شيخ، إذا علقت صورته بالدار...». لكنَّ السائق لم يدعني أكمل «شو الصورة رَحْ تطعميلي أولادي؟ رَحْ تبعتهم عالمدرسة؟». أطلب منه المرور على بيتي غداً لأمنحه ما تبقّى له، أدلّه على عنوان بيتي موصيةً أن يسأل عن «أم توفيق» فالحيّ يعرفني كلّه، ولم يصدِّقني، رغم إصراري بأنّي لست مجنونةً حين قلت له: «شو بدي أعمل بالمصاري لما بتصير بإيدي؟ بيصير عندها جوانح وبتطير منّي؟!»

وكان والدي قد أسدى لي نصيحة عندما علم بحالتي الماديَّة: «إسمعي منّي، وحاج تشكري ربّك. هلّق بيصدّق، وبيبطّل يساعدك ويبعتلك». وكأنَّ طَفَري في البيت مستور، فلا يظهر إلاّ لأعين الدائنين فقط.

فكيف إذا كنت خارج لبنان جالسةً على حجر، بين الحدود اللبنانيَّة والسوريّة، وأولادي من حولي، والسيّارات كلّها تعبر ما عدا السيَّارة التي أنا فيها إذ لم يصدِّق السائق أنَّ ليس في شنطتي المال. والمأمور السوري الذي ينظر إلينا، غير مصدِّق أنِّي أحاول العبور من غير أن أدفع الرسوم، ويتجاهل كلّ ما أخبره عن ظروفي... وعندما أتأكَّد بأنَّه لن يدعنا نمرّ، وبأنَّه علينا العودة إلى بيروت، أترك غضبي يعبِّر عن حالتي، فأقف على حجر وأهتف: «وأمّا السائلَ فلا تنهر، وأما اليتيم فلا تقهر». ويبدو أنَّ وقوفي على الحجر أثار فيَّ الحماسة للخطابة، فرحتُ أقلِّد مذيعًا يبدأ برنامجه: «أخي في مصر، أخي في سوريا، أخي في العراق، أخي في الجزائر». يقف المأمور حائرًا بأمره خصوصًا أنَّ ردَّة فعل أولادي اختلفت من واحد إلى آخر، منهم من ضحك، ومنهم من طلب إليَّ السكوت: «بس ماما... بس عيب».. لكنِّي لم أتوقَّف إلاّ عندما اختفى العسكري وأتى بضابط من الغرفة، وما إن رأيت النجوم على بذلته العسكريَّة حتى عدتُ أهتف بالفصحى: «أخي في العراق، أخي في لبنان، أخي في الجزائر». يقترب منِّي الضابط فأخاطبه «كلو حكي عالدقون». يفهم تمامًا ما أرمي إليه، فيبتسم لي، ويأخذ بطاقتي من المأمور، ويدخل الغرفة، ثم يعود المأمور ببطاقتي مختومةً.

يأخذ كل من حولي يقدّم لي النصائح لأحدّ من مصاريفي، وأوّلها أن أتوقَّف عن التدخين، لأنَّ السكائر غالية، وأن أعتاد على تدخين النرجيلة، فأنصاع إلى هذه النصيحة «لأشرشر» بصّة نار هنا وهناك. أنهض ذات صباح على رائحة شواء بطاطا، فأشتهي أكل

البطاطا المشوية، فأكتشف أنَّها لا تتصاعد من المطعم المجاور، بل من غرفة الجلوس، حيث كان طرف السجادة العجمية يحترق. أرمي الماء عليها وكلّي ندم لما حدث، ثم أفكّر بأنَّ (محمد) الذي اشتراها قد أصبح تحت التراب، وهي لا تزال كما هي منذ اليوم الأول الذي اشتريناها فيه... فأهدأ وأخاطبها: «أوعى تفكّري إنّو راح أحزن عليك هَهْ». النصيحة الثانية هي أن أتزوَّج، من أجل أن يأتي من يتكفَّل بي وبأولادي، فلا أحتاج إلى الاستدانة. ويتقدّم أكثر من رجل طالبًا يدي، رغم وجود أولادي الخمسة. نعم، رجال لم أرَ مثلهم إلاَّ في الأفلام الكوميديَّة المصريَّة، ولا أقصد «إسماعيل يس» بل على شاكلة عبد الفتاح القصري، ورياض القصبجي، وشرفنطح. كنت لا أستطيع عند رؤية كلّ منهم إلاَّ أن أتخيَّل (محمد) وهو يهزّ رأسه أسفًا على الأيام التي دارت، والظروف التي حلّت بي، فسمحت لهذه الشخصيَّات أن تتجرأ، وتسألني الزواج بها. نجحت بإبعادهم جميعًا ما عدا العريس صاحب الرأس الضخم، والذي ضبطتُ لساني، أكثر من مرة، وهو يهمّ أن يسأله إذا كان الحلاّق يقاضيه ضعف الثمن لكبر رأسه، ثم أطلقتُ عليه رجل «الكِلَلْ» لأنَّه عندما شاهد ابني الصغير يأكل الموز أثنى عليه لأنَّه لا يلعب «بالكِلّة»، وعلّقت قائلاً: «يي شو بتضايق من الأولاد اللي بيلعبوا بالكلة». فأجيبه من قلبي: «واللَّه... واللَّه... قاعد بالقرنة وعينو عم تجأرني». كان رجل «الكِللْ» هذا يعمل في المؤسَّسات والجمعيَّات التي تعنى بشؤون الأيتام. وما كاد يزورنا في المرّة القادمة حتى كان كيس «الكِلَلْ» في انتظاره، فيفرغه

ابني، حسب اتفاقي معه، على السجادة لحظة جلوس الرجل على الكنبة، ثم يتمدّد ابني على السجادة وهو يلعب بها: «تريك تراك، تريك تراك»، إلى أن يقترب من الرجل يضرب له حذاءه، ثم يبعد له قدمه عن الأخرى، وهو ينحني ليأتي بالكلِّة من تحت الكنبة. ورجل «الكلل» يزداد تأففًا، ويحاول عدّة مرّات أن يمنع ابني من اللعب مردِّدًا جملته الوحيدة المملّة، «عمهلك يا صبي خلّينا نحكي كم كلمة». وأخيراً ضاق بنا ذرعًا، وترك بيتنا إلى غير رجعة.

رغم أنِّي كنت ممسوحة كسطوح المنازل، لكنَّ بيتي المقهى - المطعم ما زال يؤدِّي دوره المعتاد، وأضفت إليه صفةً جديدةً وهي مدينة الملاهي لأنَّ الكلّ يأتي لينسى همومه حين يطأ عتبة بيتي. يجلسون، ويتفرَّجون، ويستمعون إلى الأحاديث الدائرة والضحكات، يحتاجون إلى دفء بعضهم بعضًا. لا عين رجل تراقب، ولا لسان رجل يؤنِّب، ولا ساعة تعلن عن الوقت. أسمع شقيقي عاشق العود يقول لأقرباء محمد عندما كان يأتي إلى زيارتي تباعًا مصطحبًا زوجته الجديدة: «يعني أنا يوم عند كاملة، ويوم بقهوة الإزاز عالبسطة». وكان شقيقي هذا قد أعجبته الخادمة الكرديَّة الممتلئة الجسم التي تأتي لمساعدتي من وقت إلى آخر، وأخذ يغازلها ليعقد عليها زواج متعة، ويعاشرها في بيتي وقوفًا بالحمام، أو خلف الباب.

ولم أكن أقدِّم القهوة فقط بل «أبصِّر» وأقرأ البخت، وعندئذٍ أفطن إلى أنِّي لم أعد مثل باقي النساء. فأنا لا أنتظر «إشارة» كما في التبصير، وليس هناك «عين» تتطلّع عليّ، وإذا وُجدت هناك «قشوة»

على سطح الفنجان (الرزقة) فهي لن تكون إلاّ من الحكومة أو زيادة معاش. ومع ذلك أستجيب للصديقة التي أصرَّت أن تقرأ لي بختي في الفنجان. أتمعَّن فيه، ولا أرى سوى أطياف كالفراشات وأجدني أتساءل: هل الفراشات رزقة كالسمك؟ هل الفراشة امرأة لعوب، أو رجل يحبّ الطيران من امرأة إلى أخرى؟ تأخذ منِّي صديقتي الفنجان وتقول: «لا فراشات ولا ما يحزنون! هول نسوان بفساتين طويلة مثل قمصان النوم». عندئذٍ أصيح: «أعوذ باللّه بدّن يشّروني قمصان نوم بدل ما يدفعو لي المصاري».

أقرباء يبصبصون على زائراتي العازبات والمتزوِّجات يتمنّون نيل نظرة من عين، ليؤكِّدوا ذكورتهم وجاذبيَّتهم، وأنا كالسعادين الثلاثة: لا أسمع، لا أرى، لا أتكلَّم. لماذا لم أكن آخذ تصرُّفاتهم مأخذ الجدّ، وأردعهم حتى ولو كانت زوجات هؤلاء الأقرباء من أعزّ صديقاتي؟ هل لأنِّي أريد أن يلتفّ حولي الناس منذ صغري، وأن أكون محبوبة، أتودّد إلى الجميع ليبادلوني عاطفة الحبّ، فيهتمُّوا بي كي لا أبقى وحيدة؟ رغم معرفتي بأنَّ أهلي وأهل محمد يتهامسون فيما بينهم، ويردِّدون: «كاملة مش دبّارة، مش ست بيت، فوضويَّة، ودايرة على طقّ الحنك»، فماذا أفعل في الأيام الطويلة، وفي الليالي الطويلة، بعد تركي المجلى والطناجر ووعاء الغسيل وحبل الغسيل، غير الغوص في زيارات صديقاتي، وتبادل الأحاديث، واحتساء القهوة، وتدخين السيكارة؟ كيف أنسى الحب وكيف أنسى (محمد) ما لم أحوِّل بيتي إلى مقهى، وإلى مدينة الملاهي؟

ولم أكن أنتبه إلى ضجيج الكبار، والباب مفتوح، والشرفة يصل إليها ضجيج الشارع، ولم أنتبه إلى أنَّ كبس الزرّ لصاحب الدكان يلهي أولادي عن الدراسة. كان ابني البكر يقول إنَّه يريد الدرس، فكنتُ أطلب إلى الزائرين عدم الصهصهة والقهقهة العالية «وطّوا صوتكم الأولاد بدّون يدرسوا»، فتخفّ الجلبة لوقتٍ ما، ثم تعود الأصوات تعلو، فيضطرّ ابني الكبير إلى دخول الحمام حيث يراجع دروسه. أما ابني الصغير الذي يهبّ بكل نشاط في الصباح ليرتدي ملابسه ويمسك كتبه، فما إن يصل إلى الباب حتى يتظاهر أنَّه تعثّر، فيرتمي على الأرض صارخًا من ألم في قدمه. فكنت أحمله أريد أخذه إلى الطبيب، وأسرع بارتداء ملابسي، فيقف، ثم يسير وهو يعرج، فأفرح لأنَّه وفّر عليّ أجرة الطبيب، وأسأله ألاّ يذهب إلى المدرسة. فأكتشف بعدئذٍ أنَّه كان أحيانًا يفتح الباب ويغلقه ليوهمني أنَّه ذهب إلى المدرسة، ثم يتسلّل إلى غرفة الجلوس، وهناك يختبئ تحت الكنبة طوال النهار حتى موعد عوته من المدرسة.

وكان لا يخفى عليه شيء إذ كان يفهم حيلي ويكشفها حتى إنَّه تعلّم لغة العصفوري السريّة التي سهّلت أموري، وحافظت على أسراري، وكان محمد علّمني إيَّاها بعد أن تعلَّمها من «النَوَر» أو الغجر المتنقّلين من القرى. ويتدخّل ابني بخططي ومشاريعي ويجيبني بلغتي السرّيَّة كلّما سمعني أتحدَّث بها مع صديقاتي. لا بدّ أنّ ابني هذا قد تلقّى ضربات ضعضعتي أكثر من أخوته، فأنا أرسلته مرّةً إلى المدرسة من غير «كيلوت» بعدما لم أجد له واحداً نظيفًا

وجافًا، فظلّ جامداً طوال النهار كالتمثال خصوصًا أنّ مريلته كانت تصل إلى ما فوق ركبتيه. ولّما اعتدت على البصق على مؤخّرته من أجل تنظيفها، بدلاً من استعمالي الخرقة والماء سمعته يقول لي مرّة: «أنا مش وسخ، حاج تبصّقي عليّ». لم أكن أعرف إذا كان جوّ البيت هو الذي ساعد أولادي على عدم الدرس والاجتهاد. صغرى بناتي لم تفتح صفحةً، طوال فرصة الربيع، غير صفحة الأنهار التي حفظت كلماتها ورسوماتها. ولم أكن أتدخّل إلاّ وأنا أراهم يبحثون عن دفاترهم وكتبهم لأبحث معهم، فأميّزها من اللبان الذي التصق بها، أو من نقطة الزيت التي أصبحت كدائرة جميلة.

وكان قد انضمّ إلى ضجيج بيتنا ولدا ابن شقيقي العقائدي من امرأة أفريقيّة، وهذان جيء بهما بناءً على إلحاح الحاج على ابنه ليترعرعا في كنف العائلة خصوصًا أنّ والدهما انتقل إلى بلد أفريقي آخر. ورغم محاولة الحاج إغداق الحنان عليهما إلاّ أنّه لم يتفهّم العقد النفسيّة الناتجة عن فراقهما لأمهما الأفريقيّة، وبالتالي عيشهما مع كبار السنّ، وكون لون بشرتهما دكناء بالنسبة إلى أولاد المدرسة. وربّما تكيّفت البنت مع الواقع الجديد بينما لم يستطع أخوها ـ الذي يصغرها بعامين ـ أن يتأقلم في لبنان بعد انتزاعه من أحضان أمّه، فأخذ يغمض عينيه احتجاجًا، أو اشتياقًا إلى أمّه، أو إلى والده، وإلى أفريقيا، وربما هربًا من قسوة الصغار والكبار في لبنان وعنصريّتهم. وكان قد سدّد لكمةً لولد في المدرسة بعد أن أخذ هذا الولد يضع البصاق على يده ويحفّها لعلّ ـ ر ـ يصبح أكثر بياضًا، وينقشع لونه الأسمر الداكن.

«إجا البابا إجا البابا»

تزورني صاحبة البيت الذي عشنا فيه في البقاع من وقت إلى آخر، فتهبّ عليّ رياح الحزن على محمد، وتمدّني في الوقت نفسه بالقوة وأنا أتذكّر الأيام التي كنت أعيش فيها معزّزةً، مكرَّمةً. ألم أكن زوجة مدير مفوض الأمن العام في البقاع؟ وتتجرّأ مرّةً وتسألني لماذا لا أصطاف عندهم من جديد؟ أفرح للفكرة، وكأنّها أعطتني خبراً بعودة محمد بعد طول غياب، وهكذا كان. فما إن جاء الصيف حتى أخذت البوسطة أنا وأولادي، على الطريق إلى البقاع نمرّ فوق التلال والجبال والأودية، فيسألني الأولاد: «هون تدهور البابا؟... هون؟» هذا عدا ابنتي الكبرى التي أغمضت عينيها بعد أن كاد يغمى عليها. أدخل البيت وكلّي شعور بأنَّ (محمد) سيطلّ من تلك الغرفة، أو من تلك الشرفة، أو سيطلّ من بين أوراق الشجرة.

عندما رأيت المسمار نفسه حيث علّقت فستاني وجدتني أتمتم وأبكي: «يا ضيعان شبابك يا محمد»، ثم أنهمك في الحياة اليوميّة مع الأولاد، ولا أفكّر لحظة لماذا عزمت على استئجار هذا البيت عينه، بل أستأنس بالجوّ البديع، وابتعادي عن المسؤولية التي كانت تفرضها عليّ مدارس الأولاد والمعيشة في بيروت. أعود طفلةً مفعمةً بالطمأنينة كلّما رأيت الحصى والتراب، بينما كانت رؤيتي للإسفلت في بيروت تذكّرني كم أنا معدمة، تحت رحمة الدكّاكين، تحت رحمة الزرّ الكهربائي الذي كلّما كبسه أولادي، وأطلّ البائع يسألنا عن طلباتنا، تراكمت ديوني. أما المعيشة في هذه البلدة، ذات الأسعار المتهاودة، فكانت لا تقارن بأسعار بيروت.

كنت قد أيقنت يومًا بعد آخر أنّي طويت صفحة محمد، فلقد ولّى من هذه الحياة. وكم كنت مخطئة! أولادي الخمسة يسرعون يومًا وهم يصيحون وينادون: «البابا إجا، البابا إجا»، فأجد نفسي أعدو ألحق بهم، وأنا أمسك قلبي بيدي. وإذا بسيّارة كسيّارة محمّد «الفولسفاكن» تتوقّف، فتترجّل منها ابنتي حنان، ثم صديق لها كان يقود السيّارة. أجدني أخبّط كفًا بكفّ وأنا أتساءل «الأولاد فهمنا بس أنا ليش ركضت وصدّقت أنّو محمد إجا»؟.

وأروح أستأجر هذا البيت كل صيف بعد أن شاركت صديقتي الأرملة (أم...) التي تعرّفت بها في أثناء زيارتي لأرملة أخرى. تصبح (أم...) من أعزّ الصديقات، ويتصاحب أولادها مع أولادي،

ونصبح عائلةً واحدةً حيثما كنّا، في بيروت أو في الجبل. كانت (أم...) نقيضي، قديرةً، تحسب القرش، تعلّمني لعب الورق، نراهن على ربطة خبز حتى «لا نقامر». أما فوزها عليّ دائماً مهما فتّحت عينيّ، وصببت كل انتباهي على الأوراق، فقد أزعجني إلى درجة أنّي حلمت مرة بأنّها تقول لي وأنا أسألها أن تدلّني على طريقة أجعلها تخسر ولو لمرّةٍ واحدة: «شخّي تحتك وأنا بربّحك». ولم أجد هذا الطلب غريباً، فأنهض من نومي وقد بلتُ في الواقع.

تحدث حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧ ونحن في مطلع الصيف، فيأتي إلينا أبي وفي يده بارودة صيد، وحول ساقه الضماد بعد أن أصيبت ساقه بحروق النابالم من جراء القذائف الإسرائيليّة على البلدة السوريّة التي يعيش فيها. أخذ أبي يبكي حزناً على الاحتلال الإسرائيلي للضفّة الغربيّة، والجولان السوري، ولسيناء المصريّة. ولمّا كان أبي محدودبَ الظهر، قصيرَ القامة لا يتعدّى طوله متراً واحداً، لم يجد بدّاً من اعتلاء طاولة صغيرة ليلقي علينا شعراً سياسيًّا نظمه من شدّة قهره لما حصل للعرب، فيتغامز عليه أولادي، ثم يشفقون عليه وهم يرونه يبكي تأثُّراً. يأتي الليل، ويطلّ علينا «أبونا جان» القسيس الذي يودّ بطريقة غير مباشرة أن يعلّم الدين المسيحي لأولادي وأولاد كل من يزورنا، فيتعلّق به أبنائي، ويبادلهم الحبّ ويفتح لهم بيته كي يزوروه وخصوصاً في الليل حتى يقدّم لهم المشروبات الباردة، والحلوى بالأكياس. وما إن يرى أبي هذا القسيس يدخل بيتنا حتى يقفز كمن لسعته حيّة، ويصيح به موجّهاً له كلّ

اللوم: «ليش ما ساعدتونا، ليش؟». ولم يفهم أبونا جان شيئًا، لذلك أغرقنا في الضحك، لاسيَّما أنَّ والدي أتى بالبارودة، وحدّث أبونا جان عن قتاله للإسرائيليِّين. وأخذ أولادي وأولاد (أم...) في الضحك من جديد، إذ لم يبدُ لهم أبي كمقاتل.

«نادي الأرامل»

كان الأحرى بنا أن نؤسِّس ناديًا ندعوه «نادي الأرامل» لأنَّ قصصنا وشكوانا كانت متشابهة، بل تكاد تكون واحدة، وكلُّها تدور حول طمع الآخرين بنا مستغلين أوضاعنا وضياعنا. ما أكثر النساء الأرامل والعانسات والمطلَّقات! وما أكثر الرجال الذين يحاولون التودُّد إليهنَّ! فنحن كـ«خيال الصحراء» الذي يضعه الفلاّحون لإبعاد العصافير عن المحاصيل. لكنَّنا موجودات من غير أن نشكِّل خطرًا حقيقيًّا على العصافير. وكنت أكثر الأرامل براءةً، وما زلت أشعر بالخجل إذا حدَّثني رجل، وكأنِّي لم أتزوَّج وأنجب، فإذا غاب الرجل عن ناظري أعود إلى نفسي كأنِّي فاتن حمامة أو شادية.

كنت قد ظننت أنِّي أوصد الباب، وأقيم حاجزًا بيني وبين الرجل كلَّما رفضتُ من تقدَّم طالبًا يدي، فأكتشف بعدئذٍ أنِّي

مخطئة. فعيون الجيران حولي تلاحظني، وتغازلني، تماماً كما كانت تفعل وأنا مازلت في بيتنا مع أمي وشقيقي العابس. كَوْني أرملةً أضفى عليّ جاذبيّةَ الثمرة المحرَّمة. ولم يكن ينقصني إلاّ أن أمسك «مكنسة» وأكشّ عنّي نظرات التودُّد مع أنَّها تجعلني أتباهى بأنّي لا أزال جذّابة. أشعر من جديد بأنّي مراهقة بالفعل، لكنّ الإعجاب وقتيّ رهين ساعته. لا مستقبل، لا زواج، لا إنجاب، ربما إعجاب واستلطاف. وإذا بالنهار يمرّ بسرعة، وإذا بمسؤوليات الأولاد والبيت تصبح أخفّ وطأةً. وكانت أغنية نجاة الصغيرة: «ساكن قصادي وبحبّه... وبحبّه»، تدغدغ خيالي، لأنَّ الشاب الذي يصغرني، والذي يسكن في بناية جميلة لا تبعد عنّي إلاّ عدّة أمتار، أخذ يلاحقني بنظراته. أعجبتني الفكرة بأنَّه يعيش معنا، ومع ذلك فهو في شقته، يسمع أصواتنا، ويرى أولادي، وأنا أسمع صوته حتى حين يتحدَّث في بيته على التلفون، كما أسمع صوت التلفزيون، وصوت الثلاّجة تُفتح وتُغلق. وألاحظ نظرات الإعجاب التي راح يغدقها أيضًا على ابنة جارتنا، فأجدني آتي ببطاقة الهوية، وأزيد شحطةً صغيرةً على رقم ٢، فأصبح من مواليد ١٩٣٥ بدلاً من ١٩٢٥. ثم آتي ببطاقة جديدة، بدلاً من ضائع، تحمل تاريخ ميلادي الحقيقيّ. أقدِّم ذات يوم سهواً البطاقة المزوَّرة للأمن العام من أجل «زودة المعاش»، ويسقط هذا الالتباس في يد الموظف فيستعظم الأمر. أحاول الشرح، لكنّ الموظف رفض سماع أعذاري، بل أخذ يردِّد: «مدام هيدا تزوير... تزوير...». لكنّي أجبرته على سماعي: «في

واحد بدو يتزوّجني، يعني عندي عريس، ومشان هيك صغّرتْ حالي، ولو شحطة صغيرة بتغير لي كلّ حياتي... حطّ حالك محلي ٥ أولاد ومسؤوليَّة وغلا... ولو شحطة صغيرة شو راح تأثر»؟. وإذا به يضحك ويقول «طيِّب هالمرّة مسامحتك لأنَّك ضحكتيني».

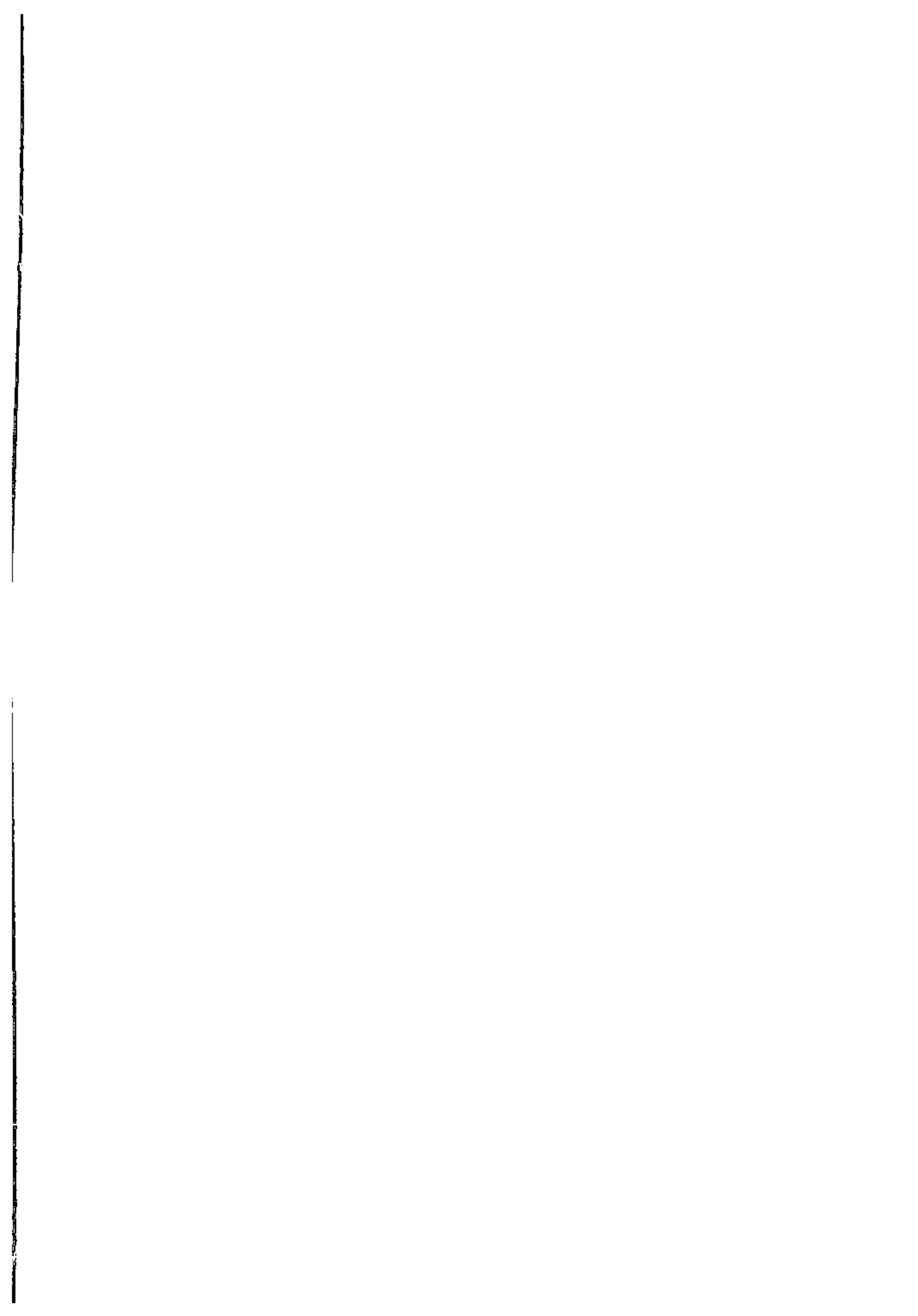
وكنت قد رضيت أن أرافق جاري إلى السينما شرط أن يأتي معنا ابني الكبير، ولمّا كان الفيلم مترجمًا إلى العربيَّة، أخذت ألكز ابني أسأله إذا كان يريد سڤن آب أو شوكولا حتى يأتي معي، ويشرح لي ما يحدث خوفًا من أن يكتشف الجار أنِّي لا أعرف القراءة والكتابة.

أضبط هذا الجار من جديد وهو يغازل ابنة جارتنا فأقوم بطلاء الشباك الزجاجي، فلا يعود يراني أو أراه، وعندما بدّلت رأيي ورحتُ أحفّ الدهان اكتشفت أنَّ جارنا قد انتقل من شقّته، واختفى في بيروت الكبيرة. وباختفائه عدت أنهمك ببيروت وضجيجها، بالأولاد ومدارسهم وأصدقائهم بمحاربة «الطَفَرْ» والاحتيال عليه، بسيل الزائرات والأقارب، بالمطر والبرد، بشقيقي عاشق العود، وأخي كامل وعائلاتهما، وابنتي فاطمة، وباصطحاب صديقتي «ف» كلَّما خرجت مع صديقها العالم الروحانيّ، فأرافقهما بين حين وآخر إلى المطعم، أو إلى المقهى، وحيدتين، أو مع أصدقاء هذا العالم، فأكتشف أنِّي لم أعش الحياة التي كنت أراها في الأفلام، والتي كنت أظنّ أنَّني أعيشها مع محمد. ماذا تجديني معرفة محمد بالوزراء والنواب، وبأشعار الزجل التي كانت تنهال علينا؟ ماذا تجديني طاولة

مكتب محمد الفخمة، والمساعدون من يمينه ومن شماله؟ والأهم من هذا كلّه أنّني بزواجي بمحمد، انقطعت صلتي بالصديقات والقريبات، وبالناس والدكاكين، وأصبحت أرى العالم من خلاله، كأنّي أبدأ حياتي من جديد بعد موت محمد. أبدأ بسنّ المراهقة، وتتفتّح عيناي على ما يحدث حولي، وكأنّي شابة في مرحلة النموّ، فأفهم ممَّ يتكوَّن المجتمع، وماذا يجري في المؤسَّسات والوزارات من كثرة ما دققتُ الأبواب، واحتككتُ بالناس.

لكنَّ الأوقات الأحبّ إلى قلبي هي مجيء الصيف حيث أرحل إلى المصيف نفسه. عيناي على التلال والمروج والهضاب، وعلى النظرات التي تقتحم جسدي، وتتودَّد إليّ كيفما استدرتُ، خصوصاً لأنّي آتية من بيروت. وأرى مرّةً شابًّا يشير إليّ من الشرفة، والرياح التي اشتهر بها مصيفنا تلوّح بقميصه الأبيض الناصع الفضفاض. يعمّني الفرح، وأروح أسوّي شعري بيدي، أبادله النظرات، وأخبر (أم...) بما يجري، وأدلّها على الشرفة بنظراتي فقط، محذِّرة إياها من أن تتقدّم حتى نزيده شوقًا، وحتى لا يعرف أنّنا نوقف سيّارات «أوتوستوب» كلّما أردنا الانتقال من مكان إلى آخر. لكنّ (أم...) تنبري تضحك وتضحك، وهي تخبرني أنّي «عمياء»، وأنَّ الرجل الذي رأيته ما هو إلاّ قمصان وشراشف منشورة على حبل الغسيل، فأستحلفها ألاّ تخبر أحداً بضعف نظري الذي راح يتدهور، والذي جعلني أضع القثّاء إلى جانب العنب والأجّاص، حين كنت أقدِّم الفاكهة إلى الزائرين.

يصبح الأوتوستوب هوسنا الأول والأخير، هوس الصغار والكبار، فلقد بدا حاجة ماسة للنزول إلى بيروت بعد تأخُّر مرور البوسطات وأفضى إلى طريقة للتسلية والضحك. نبدّل أسماءنا، فنعود ننسى، وينادي بعضنا بعضًا بأسمائنا الحقيقيَّة. نتحاور مع أصحاب هذه السيَّارات متبادلين شتى أنواع الأحاديث، فنكتشف أنَّ معظم الرجال يحبّون التسلية البريئة، وتمضية الوقت أيضًا. أحدهم يميل إلى (أم...) ويطلب الزواج بها فتسأله هل يريد حقًّا الزواج بامرأة لديها ثمانية أولاد؟



«زواج بالجملة»

يتزوَّج أبي زوجةً ثالثةً تصغرني سنًّا. تتزوَّج ابنتي حنان فجأةً، وأسمع بأنَّ الحاج علم بزواجها من معارف قرأوا له الخبر في الجريدة التي تعمل بها. يلطم وجهه ويبكي لأنَّها تزوَّجت خفيةً عنَّا. وكنت أعرف، في قرارة نفسي، أنَّ فاطمة وحنان لن تتزوَّجا زواجًا تقليديًّا لأنَّهما لم تتربّيا، أو تعيشا حياة تقليديَّة بسبب طلاقي. وكنت قد علمت أنَّ فاطمة قد وقعت في غرام شاب أرسل أهله ليتعرَّفوا بأهلها، لكنَّهم بدّلوا رأيه عندما لم يكن أحد في استقبالهم سوى فاطمة وأختها حنان. لا أم، ولا أفراد عائلة، ولا فنجان قهوة على صينيَّة، ولا شو كولا في صحن فضّي، أو من الكريستال، بينما الخطّاب الذين لم يبالوا بطلاقي من والدها لم تنجذب إليهم قطّ. أذكر الأم التي أتت تطلب يد فاطمة منّي ظنًّا منها أنَّ ابنتي تعيش في بيتي،

فاستهلّت الأم كلامها بقولها إنَّ ابنها على الصراط المستقيم، لا يدخِّن، لا يشرب، لا يرقص، لا يذهب إلى السينما، من عمله إلى البيت، ومن البيت إلى عمله «يعني أكثر منُّو بيتوتي ما فيش». وإذا بي أربِّتُ على كتفها وأجيبها: «يا ريت»، وظنَّت الأم أنَّ ابنتي «مخطوبة لآخر»، ولكنِّي أكملت «يا ريت بنتي من هالشكل، بنتي بدّها واحد يدخِّن، ويشرب، ويرقص، ويروح عالسينما، وما يقعدش منوب بالبيت». ثم تتزوّج ابنتي ـ أ ـ بطالب فلسطينيّ كان يسكن قبالتنا في الشقة نفسها، حيث كان الحب على طريقة «ساكن قصادي وبحبّو»، ثم تسافر معه إلى الكويت ويقيمان هناك. يقرِّر ابني الكبير السفر إلى لندن للتخصُّص في «الكمبيوتر»، فأضطرّ لبيع الشقّتين، وأكتشف أنَّ الوصيّ لم يكن قد دفع الضرائب المستحقَّة منذ تاريخ شرائي لهما، فأسدِّد ما عليّ تسديده، ويبقى من ثمن الشقتين القليل القليل من المال.

تنجب ابنتي حنان ولدها البكر، فأصبح جدّة وعمري ثمانٍ وأربعون سنة. أذهب لزيارتها في المستشفى، وأدخل غرفتها الخاصة، قبالة البحر. أراها في السرير وحولها عشرات من سلال الورد، فأفرح فرحًا لا يوصف. ها هي ابنتي تعيش كما أردت أن أعيش، من حولي الأزهار بشذاها العطر، وعائلتي من حولي كعائلة زوجها تغدق عليّ علب الشوكولا والهدايا. بينما أرى حنان تتحدّث بكلّ ودّ وحميمية إلى أم زوجها، تدبّ في الغيرة للحظات، ثم أردع نفسي فحنان لم تعشْ معي، تكاد لا تعرفني، وأكاد لا أعرفها، ومع ذلك

هناك الحب الشديد الذي أكنّه لها، وأعرف أنَّها تبادلني الحب، لكنِّي لا أعرف قوّة حرارته. تضع حنان مولودتها وأجدها على غير عادة تتلهّف لزيارتي إلى أن ترى أنِّي أصطحب معي جارة لي أو صديقة، فأتغاضى ظاهريًّا عن مضايقتها بينما أوجّه لها اللوم في قلبي لأنَّها لا تحبّ من عالمي سوى أخيها وأخواتها، وأفهم أنَّها لا تقدِّر مدى فرحي «وشوفة حالي» أمام محيطي، وبيني وبين نفسي، مع أنَّها كانت تؤمّنني على طفليها، وتفضِّل أن أكون بقربهما، بينما كنت آتي من بيتي الذي يضجّ بالجيران والأولاد، والزائرات، وقرقعة القهوة، وصياح الدائنين، والخوف من أن تُقطع الكهرباء لأنِّي لم أسدِّد ما ترتّب عليّ هذا الشهر، ولأنَّ قنينة الغاز قد استهلكت، ولأنَّ التلفزيون بحاجة إلى التصليح إذ توقّف فجأة، وكأنَّه أصيب بالنوبة القلبيَّة.

أزورها في بيت تصدح فيه الموسيقى الأجنبيَّة الهادئة، فيه القفص والكنار يغرِّد ويستحمّ في الطشت الصغير. أنظر إلى الفأر في القفص الآخر الذي أتت به فاطمة إلى ابن حنان، فأراه يقفز على دولاب ويلعب، ثم يدخل بيته، الذي فُرشت أرضه بالنشارة. أرى هذه الفأرة تملأ فمها بالحبوب والبزر حتى تبدو وكأنَّها تعاني من «أبو كعيب». أمازح ابنتي التي ترتدي الملابس الجميلة حتى لو كانت في البيت، وتجلس خلف الطاولة لتكتب، بينما الخادمة تعنى بشؤون منزلها، فأقول لها: «يا ريتني هالفأرة». وتضحك وتخبرني أنَّ اسمها «همستر»، فأجيب: «طيب يا ريتني «همستر» بلعب وبنطّ، مش

فارق معي شي، وبآكل وبشرب وبنام». وتتزايد ضحكاتها، ثم تدير رقم الهاتف، وتخبر صديقة لها بما قلته، وأزيد أمامها من تقليدي للفأرة، فأنفخ وجنتيّ وأرفع يدي، وأروح أهزّ جسدي وأردّد: «نيّالو اللي ما عنده ديون، ولا فواتير كهرباء وغاز»... لعلّ (حنان) تفهم ما أقصده، وتضع النقود في شنطة يدي من غير أن أدري. لكنّ ابنتي تكتفي بالضحك، ثم تعود إلى عالمها، إلى أوراقها، إلى الكنار، وإلى طفليها، وتعود تطلّ على عالمي من خلال نكاتي وتعليقات صديقاتي خصوصًا «ف»، التي رأت طفليْ حنان الأسمرين، فضربت على صدرها: «ولَوْ على الحساب متجوّزة مهندس «كُبار» من أحسن عايلة، وين العيون الزرق؟وين البياض والشقار؟».

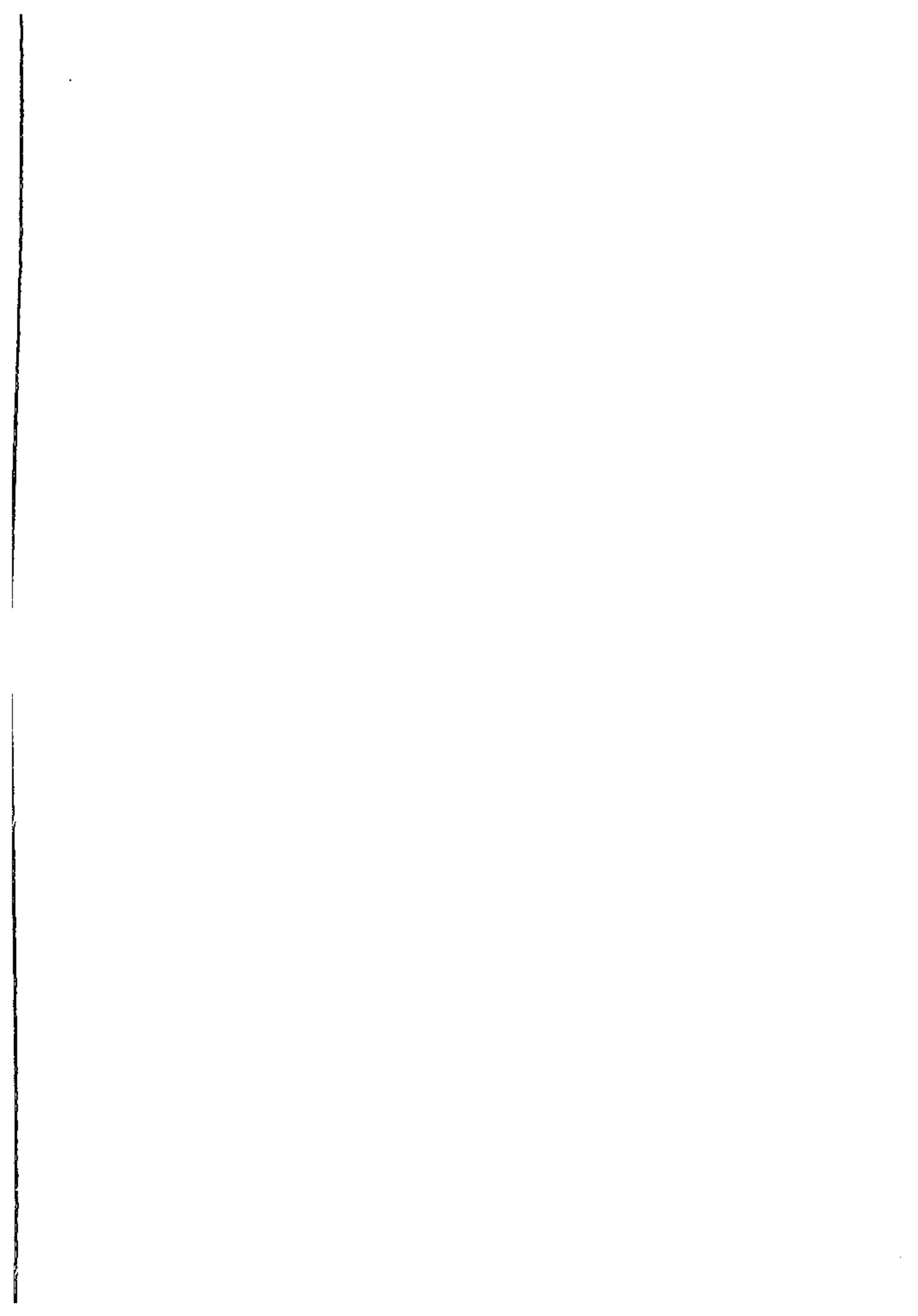
١٩٧٥

تعود الاضطرابات تخضّ بيروت في أوائل ربيع ١٩٧٥، فأوقن ككلّ الناس أنّها كاضطرابات ٥٨، ولا بدّ أن تتوقّف بعد مدّة قصيرة، وكلُّنا ثقة أنّه كلّما اشتدّت الأزمة انفرجت. أرى صورة رشيد كرامي يرتدي كنزة سبور، فأهتف: «الهيئة خلصت وإلاّ كان لبس جاكيت سوداء». أرى صور رؤساء الدروز والشيعة والموارنة والسنّة، وكلُّهم يبتسمون مرتدين البدلات اللمّاعة، فأستبشر بالخير. لكنّ الأحداث تتسارع، وكأنّها الأعمى الذي يمسك سيفًا ويخبّط به من حوله، ولسان حاله يقول: «أنا أعمى ما بشوف... أنا ضرّاب السيوف». هناك قتلى وجرحى وانفجارات ومظاهرات، ومع ذلك فابني الكبير الذي عاد من إنكلترا، وأخذ يعمل في شركة طيران، لم يتوقّف عن مزاولة عمله. فكنتُ والجارات نتحلّق حول المذياع لنستمع إلى المذيع

شريف الأخوي الذي يرشدنا إلى الطرق السالكة والآمنة. باختصار، توقّفت الحياة التي كنّا نعيشها لتحلّ محلّها حياة أخرى، كالوقوف بالصفّ عند الفرّان، وتعبئة الماء بنفسي خوفًا من أن يفعل هذا أحد أولادي، فأعرّضه إلى الخطر. أفرح وأتخيَّل أنّي قد تركت الجنوب توًّا إلى بيروت وأنا أرى «الطُمْبُر» (البغل) وهو يجرّ برميل الكاز، أو صوت الزمور (البوق) الذي لا أنساه. عندئذٍ أتمنّى لو أنّ (محمد) موجود إلى جانبي ليرى «الطُمْبُر» معي، فأحسب كم يكون عمر محمد لو كان على قيد الحياة، ثم أشهق: «خمسة وخمسون عامًا». لكان مازال يعمل في وظيفته، وربما أصبح رئيس الأمن العام، لكنّي أفكّر بتهديدات المقاومة الشعبيَّة له في أثناء أحداث ٥٨ بحكم وظيفته الحكوميَّة، فأتراجع وأرتاح لكونه فارق هذه الحياة.

يزدحم بيتي بالأقارب والمعارف الذين كانت بيوتهم على خطوط التماس في المناطق المتحاربة. صديقتي (أم...) وأولادها الثمانية، أخي كامل وعائلته، ابن شقيقتي ذو الساق الخشبيَّة الذي عاد إلى العائلة. ويتحوّل بيتي إلى نَزْلٍ، نزل كخان طومين، فنستلقي كلّنا في صالة الجلوس، في الرواق، والمطبخ، وغرفة النوم، والفسحة ما بين الحمام والمطبخ، وهناك تتعالى النحنحة، والضحكات، والسعال، وينفجر الضراط، وتنكشف الأسرار، ويقوم ابني البكر، في ليلة، ويسجل شريط «الشخير»، ويدير المسجِّلة عندما ينام الجميع، فيصحو أحدهم، ويلكز الآخر، وكلّ ظنّه أنّه مصدر الشخير... وهكذا يستقيظ الجميع تقريبًا، وهمّ يضجّون بالضحك. جارة لنا

تحوم حول ابني البكر، ابن هذه الجارة يحاول مغازلتي عندما ينقطع الماء في شقتهم، فيأتي أهله للاستحمام في بيتنا. تمرّ أيام لا نجرؤ فيها على الاقتراب من النافذة، فتتعالى ضحكاتنا، ويزداد خوفنا. «أخرطش» بندقية الصيد على ابني البكر حين أراه يحاول مغادرة البيت ليلتقي حبيبته فأقول له: «خلّيني أقتلك أحسن ما يقتلك حدا غيري، بالقليلة بدفنك وبعرف وين قبرك». وما إن يتوقف إطلاق النار لأيام قليلة، وتأخذ الناس في الهرب والسفر، حتى تغادر ابنتي حنان مع طفليها إلى لندن، ثم ابنتي فاطمة وزوجها. ثم تغادر ابنتاي إلى الكويت، وتقيمان عند أختهما الكبرى المتزوجة، فألحق بهما مع ابني الصغير الذي صار عمره ستة عشر عامًا، ثم يسافر ابني البكر إلى أميركا، وتلحق به حبيبته، وهناك يقرّران الزواج. ولم أغلق بيتي في بيروت، بل اكتفيت بإقفال خزانتي، إذ أخذ يعيش في هذا البيت كل من ابن شقيقتي صاحب الساق الخشبيّة، وأخي كامل وزوجته وأولاده، وكلّ من وجد نفسه قرب بيتي، وأراد الاحتماء به من المعارك. وهكذا تحوّل البيت مأوى للكثيرين، وصار المفتاح عشرات من المفتاح يستخدمها الجميع.



«بنت بطوطة»

لم أترك لبنان نتيجة الخوف، بل لأكون مع أولادي. أغادر البلد وأنا مصعوقة، مملوءة بالغضب لأنَّ المسلمين والمسيحيِّين يتقاتلون، ولأنَّ من بين الجثث عند الجسر بائعي الصحف من الأولاد الصغار. والذي حزّ بقلبي ذهابي إلى المصيف نفسه ـ في هدنة من الهدنات ـ مصطحبةً معي بعض أولادي، وزوج ابنتي الفلسطيني، فنزور كلّنا صديقتي صاحبة الملك، فاطمئنّ عليها وعلى عائلتها، وما استجدّ في أثناء المعارك ، وإذا بابنها الذي كنت أمازحه قبل أشهر يطرد زوج ابنتي لأنَّه فلسطيني، فأعضّ على اصبعي لأصدِّق أنَّ ما يحدث هو واقع وليس وهمًا. أترك صديقاتي، وشارعي، ومحلتي، وأحمل معي أسرار كلّ شخص دخل بيتي. أكتشف وأنا بعيدة عن أجواء الحرب سرّ ضياعي بدل فرحتي، فأنا قد اعتدت

على أن أكون ضمن مجموعة، وأن أكون لولب الجلسة. رحلتي الأولى كانت إلى الكويت، وهناك تقتل الكويت نفسيّتي بقسوة طقسها، وعدم تأقلمي معه، ولا ينشرح صدري إلاّ حين تهبّ الرياح ذات مساء، فأفتح زجاج النافذة حتى أتنفَّس الهواء الطبيعي، لا هواء المكيّف، وقد خيِّل إليّ أنّي في المصيف حيث الرياح المولولة تأتي محمَّلة برائحة الكروم والتين. لكنّي أنهض في الصباح وأنا «أتشردق»، «فالطوز» وما يحمله من غبار ورمال، قد ترك عليّ طبقةً خفيفةً بيضاء، وكأنّي سمكة غُطِّست بالطحين قبل أن ترمى في المقلى. ولمّا لم نكن نجلس على الشرفات، ولا نرى الرائح والغادي، شعرتُ وكأنَّ بيت ابنتي الجميل ليس إلاّ سجنًا. أعدّ أصناف الطعام، وأصبح العشّي من أجل أن يدعو زوج ابنتي زملاءه في العمل. أتحمَّس بادئ الأمر لمهمتي الجديدة، وكلّي تمنٍ لو يراني محمد قد أصبحت أمًّا وجدّةً مثاليَّة، ولكن سرعان ما تبرد همّتي بفعل ضغط الواجبات، فأُدْخل مرّةً الدجاج إلى الفرن، وأخرجها محمَّرةً شهيَّةً، ويروح زوج ابنتي يقطّعها، ونكتشف جميعًا، في غمرة خجلي الفظيع، أنَّ الكيس الصغير الذي يحمل القلب والرقبة مازال في داخلها. وعندما لم أستطع الانسجام الكلّي مع جيران ابنتي، أخذت أدمن على مشاهدة المسلسلات التلفزيونيَّة، أدخل عوالمها وأنشئ صداقات بيني وبين أبطالها. ومن هذه المسلسلات «رأس غليص»، والذي جعلني أتأخَّر على عودتي إلى بيروت عدّة أشهر.

في هذه الأثناء قرَّرت كل من ابنتي الأخريين الزواج، فيستقرّ قلبي، لأنّي لن أتحمَّل إلاَّ مسؤوليَّة ابني الصغير، وهذا الأخير الذي ذهب إلى مدرسة في لندن، ثم لحق بأخيه الكبير إلى أميركا. ووجدت نفسي أسافر إلى أميركا بعد مدّة، وأنا أتساءل هل من المعقول، أنا كاملة، من النبطية الفوقا، التي لا تفكّ الحرف بالعربيّة، تصبح فجأةً في أميركا؟ يغوص قلبي في أحشائي، ويعتريني الخوف والطائرة تحلّق في السماء، فألتفت حولي وأسأل رجلاً بدا لي عربيًّا: «تامبا؟ تامبا؟» وأعود بعد ساعات فأسأله، وإذا به يضيق بي ذرعًا، ويقول لي بعصبيَّة: «أنت يا أخت في الجو! لو افترضنا أنَّ هذه الطائرة ذاهبة إلى البرازيل، فهل تقدرين على أن تبدّلي طيرانها؟». أغلي حنقًا وأجيبه: «يعني جدّي وجدّك كانوا يتنقلوا على الحمير وعلى الجمال، مش بالطيّارة!». وإذ كان عليّ أن أملأ بطاقة الدخول، تظاهرتُ بالآلام، ثم ادّعيت ضياع نظاراتي الطبيَّة للقراءة، وأسأل أحدهم أن يملأ لي البطاقة. وحين نصل إلى أميركا. أجدني أؤمن بأنَّ الدنيا واسعة، وكبيرة فعلاً، ثم أتساءل، وأنا مع ابني في السيّارة: «تُرى كيف بعدها الأرض ما قشطت؟»، وذلك على رغم كثرة السيَّارات، والشاحنات، والقطارات، وناطحات السحاب، والطائرات!

وكانت ولاية فلوريدا، هي التي ذهبت إليها، فأعلمني ابني أنَّ تامبا هي مكان في فلوريدا، كما بيروت مدينة في لبنان. أسابيع مرّت وأنا مندهشة أمام الأسواق الـ Malls، وكثرة البضائع،

والدكاكين، والسوبرماركت التي تكاد تكون مدنًا قائمةً بحدّ ذاتها. أتحوَّل عندئذٍ إلى جرادة نهمة أودّ لو أشتري وأشتري، لكنّ العين بصيرة واليد قصيرة، فأكتفي بشراء ما يقع في دائرة التنزيلات، غير مبالية إذا كان طرف منفضة السكائر مكسوراً، أو كانت على هذه البلوزة بقعة سوداء أو أحمر شفاه. وأؤمن أخيراً أنَّ أميركا هي عبارة عن سوق كبير، حتى النزهات فيها جعلت للتسوق. وكان الأحبّ إلى قلبي الذهاب إلى مدينة الملاهي من أجل اللعب بلعبة الصنارة لأصطاد الألعاب، فأضمّ الدبّ والكلب إلى صدري بكلّ فرح. آخذ بجمع كل شيء في شنطة يدي التي أطلقت عليها إسم الحوت، من منافض «ماكدونالد» الشبيهة بورق الألمنيوم، إلى صدفة بحريَّة على شكل نجمة في حديقة الأسماك، متجاهلةً أنَّها ما تزال حيّة. أسابيع تمرّ ويلحقني الضجر، وأشعر بالوحدة بينما ابني في عمله، أحاول أن أعقد حواراً مع الناس مهما يكن مضمون هذا الحوار، ولا أنجح كعادتي، إذ كنت قد ظنّنت أنِّي أستطيع إقامة حوار مع السعادين. وكنت قد بدأت أتساءل بيني وبين نفسي: «أليس هؤلاء الأميركيُّون أقربائي؟ ألم ننشقّ جميعنا من أمّنا حواء وأبينا آدم؟ لماذا لا يفهمون على الطاير؟ إذا تنهدت بدوتُ غير سعيدة، وإذا ابتسمت وقلت لهم «كود مورنينغ» فهذا معناه أنِّي أودّ أن أفتح حواراً معهم؟

أبتسم للجارة الأميركيَّة، وأشير لها وأنا أمسك فنجان القهوة حتى أبصِّر لها، ولا تفهم ما أريده بل تكتفي بالابتسام لهنيهة، ثم تختفي في بيتها. رغم أنَّ سوء التفاهم هذا قد أضحك ابني

والكثيرين، غير أنَّ الحنقَ أخذ يعتمل في قلبي، غير مصدِّقةٍ أنَّ اللغة تستطيع أن تكون عائقًا حتى مع الكلب الذي دخل بيتنا، فاختبأت منه، أنا وزوجة ابني في غرفة خائفين من ضخامته. وبقي الكلب نائمًا على الكنبة طوال النهار حتى مجيء ابني الذي طرده بكلمة واحدة: «go».

لم أصدِّق أنَّ رجال الاطفاء، في الشركة القريبة من بيت ابني، لا يدركون مقصدي. فقد كنت أريد منهم معاينة السخّان قبل أن ينفجر، ويحدث حريقًا، حين رأيت النار تندلع فيه كلّما فتحت الحنفيّة. أشير إلى بيتي... ثم أدلّهم على نار السيكارة التي أخذت أدخنّها أمامهم ليبدوَ التبغ المشتعل، ثم أُظْهِر لهم علامات الخوف على وجهي من غير فائدة. أجيء بعلبة كبريت من جيبي، أُشعل عود ثقاب لأدلّهم على النار، ثم أرميه في الهواء، وأنا أقفز وأصيح، ثم أرفع يديّ كأنّي أختنق نتيجة الدخان، وأرتعش... ورجال الإطفاء ينظرون إليّ يحاولون التأكّد من جنوني.

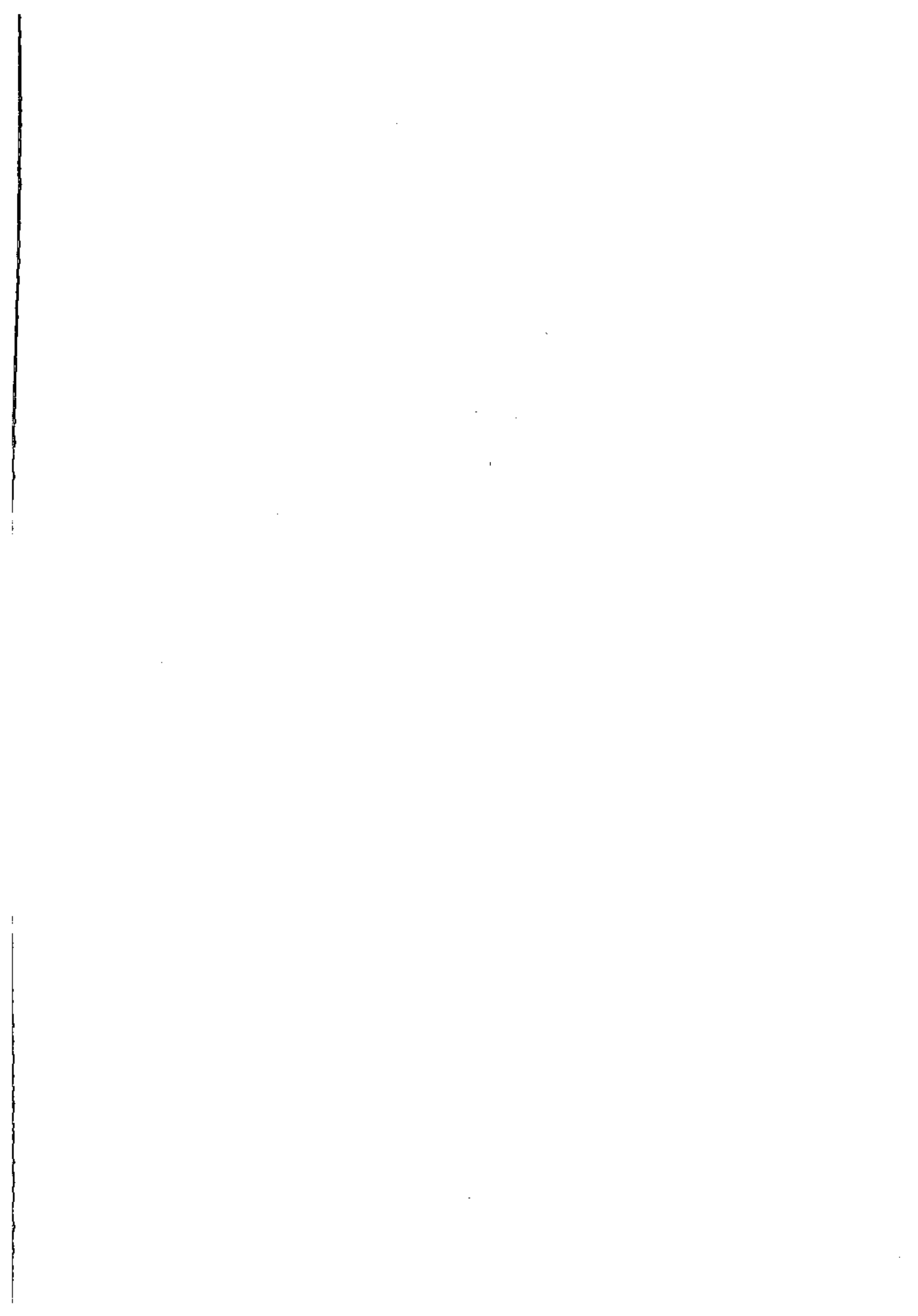
أرى جارنا العجوز يبكي وهو يتحدَّث إلى صديقة ابني الصغير، فأضع يدي على صدري، وكلي خوف من أن يكون قد حدث مكروه لابني الكبير، لكنَّ الجار كان يتذكّر معاناة زوجته بداء السرطان ووفاتها بعد حين. عندما عرفت أنَّ هذا الرجل كان رجل بوليس قبضَ على مجرم خطير، يدعى danger-field، ويبكي على زوجته كلّ هذا البكاء، أخذت أبكي معه، وأشاطره الحزن. يأتيني

الخبر بعد أيام بأنّ أبي قد توفي. أذهب إلى الجارالبوليس المتقاعد أومئ إليه، وأحدّثه عن وفاة أبي، ولعلّه يبكي معي، لكنّه لا يهتزّ... فلم يفهم ما أقوله. أبكي، فيحتار بأمره، ولا يسألني لماذا أبكي.

أبكي لأنّي بعيدة. ولمّا لم يبكِ أحد من أولادي، وجدتني أتوسّل إليهم حتى يبكوا: «ولَو طيّب إبكوا شوي؟ ولَوْ طيّب إزعلوا شوي معي... هيدا جدّكم... هيدا أبوي ومات». ولا بدّ أنّ أولادي كانوا يستغربون عاطفتي حيال أبي، رغم إهماله لي، ورغم ما أظهره من أنانية تجاهي حين كنت صغيرة، فأفهمهم كيف تبدّل ما إن كبرت، وأخذنا نتحاور، وأنّي ورثت بعض ملامح شخصيّته. أحبّني كثيراً، وبالتالي قدّر حبّي له ووفائي بقطع النظر عن مآسي الماضي.

أعود إلى بيروت في أثناء هدنة طويلة، ولسان حالي يقول: «اللي كاتبلو اللّه يسافر وهو المحظوظ»... يعمّني الحزن على كل شخص سواء أكان معروفًا منّي أم مجهولاً، لأنّه لم يجرّب السفر، ولم يعرف أين كنت، ولم يرَ ما رأيت. أتذكّر قول أبي إنّ فوائد السفر سبع، من غير أن يذكر لي من هو صاحب القول. أعود إلى التسلية والضحكات والتبصير، وفرحتي بجاراتي وبأقربائي وصديقاتي لا توصف. أعود إلى لبّ ما يجري في بيروت، وأفهم لماذا أنا سعيدة كلّ هذه السعادة. كنت قد فكّرت أنّي لن أنام في سريري بعد الآن، أو أنّي سأعود إلى البيت ولا أجده بانتظاري.

أزور قبر أبي، وأقدِّم العزاء إلى زوجته، ثم أسألها عن المكتبة التي أوصى بها إلى ابنتي ـ أ ـ كان كلّما عاد إلى الجنوب أخذ معه كتبًا غافلاً أنَّها كتب مدرسيَّة، وكلّه شوق ليقرأ جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة. وكان قد ورث هذه المكتبة عن والده وجدّه، ومعظم كتبها منسوخة بخط اليد. تجيبني زوجته بأنَّه قدَّمها إلى الحسينية، فتاه فكري بعيداً، وفكرت إذا كان شيوخ الحسينيَّة قد قرأوا بعض الكتب، وعثروا على الأقاصيص التي كان يضعها أبي بين طيّات الصفحات والتي تتحدَّث عن الغزل والعشق والكذا مذا. ثم تخبرني زوجة أبي ما قاله للطبيب الذي أتى به أخي كامل في أيام والده الأخيرة: «شايف يا حكيم أولادي الأربعة اللي واقفين قدّامك؟ هول من فبركة حضرتو». وأشار إلى أسفله مضيفًا: «وبعد في كتير، بس أنت خلّيني أوقف على أجري وبتشوف!». أضحك وأنا أنظر إلى طربوشه وكأنَّه يغمزني عبر الصورة فرحًا بما قاله للطبيب. بموته أقرِّر أن أطوي صفحة الماضي البعيد، وصفحة الحرب، فأهتمّ بشرفتي، وأحوِّلها إلى حديقة، أزرع الشجيرات في الأصاصي، وأعتني بها، كما كانت تفعل والدتي في حاكورة بيتنا في النبطيّة.



«حجر بياخدك وحجر بيجيبك»

تمرّ عليّ حنان في إحدى زياراتها إلى لبنان، فنذهب معًا إلى الجنوب لكثرة ما أخذت أهدس بأمي، وببيتنا في النبطية وبطفولتي. أفكّر بالإعتذار من ابنتي والبقاء في البيت، ولكن ما إن أسمع صوتها المتحمّس يسألني إن كنت جاهزة، حتى أسرع وأرتدي ملابسي وأنتظرها. لم أكن أرفض طلبًا لحنان، لعلّه الشعور بالذنب، كلّما حاولت حنان أن ترفعه عنّي أراه يعود جاثمًا على كتفي وعلى قلبي، وكأنّه بلاطة. عدت أدخل حياة حنان، وعادت ابنتي تدخل حياتي. أذكر تمامًا متى حدث هذا وأين، عندما دعتني لتناول العشاء معها قبل ١٥ سنة في الفندق الذي نزلت به مع زوجها وولديها. وجلست معها في الغرفة المواجهة لشاطئ البحر الرمليّ والأمواج الهائجة، وأخذنا نتحدّث. أفهم لماذا اشترطت عليّ أن تراني وحيدةً. فنحن قلّما نجتمع وحيدتين، وقد نمضي معًا أوقاتًا عاديّة، يدور فيها الكلام، أو يرين

الصمت، أو نتناول الطعام. فجأةً أشعر أنِّي جدَّة لولديها، وحماةٌ لزوجها. ترى هل ارتياحها الشديد إليّ واهتمامها بي، وحبّها الذي بسطته أمامي، كل ذلك هو الذي أزال شجون الماضي التي كانت تقف بيننا من غير أن ندري، أو أنَّ علاقتنا أخذت تتوطَّد شيئًا فشيئًا مع مرور الأيام، وكأنَّنا وضعنا تلك العلاقة في مصفاة، لتنساب رقراقةً تاركةً الحصى والرمل والحشائش خلفها... تتأمَّلني حنان وابنتها تأخذ لي الصور في الفندق، وترى نفسها من خلالي، تقترب منِّي، وتضع وجهها ملاصقًا لوجهي، وتسأل ابنتها إذا كنّا متشابهتين؟ أشعر أنَّها أقرَّت، بينها وبين نفسها، أنَّها مع أمها، وأنَّها خُلقت منِّي، وليس كما كانت تقول إنَّها وجدت نفسها فجأة على وجه الحياة مع والدها. تقرِّب وجهها منِّي، وأراها الطفلة التي أنجبتها للتوّ.

نذهب إلى النبطية في سيَّارة «جيب» كما لو أنَّها تابعة للعسكر والجنود، أو شبيهة بسيّارة طرزان في إفريقيا. اعتدت على هذه السيَّارة، فأشعر وأنا أجلس فيها أنِّي معصومة عن الغثيان، وضيق النفس، والحرّ. وكانت حنان قد طلبت إليّ ألاّ أمازح السائق في حضورها حتى «لا يرتبك». أحاول أن أفعل بمشيئتها، لكنَّ لساني يفلت منِّي، وأجدني أغنِّي له: «علي يا علي يا بتاع الزيت!» فنضحك معًا، وتقول لي: «ماما أنت بتجنّني قد ما أنت مهضومة».

نشدّ رحالنا قاصدين البيت في النبطية الفوقا، حيث ترعرعت في حضن أمي، بعد أن قلت لحنان مرَّةً إنِّي أريد أن يقع بصري على هذا البيت الذي لم أعد إليه منذ أن هجرته إلى بيروت، وعمري تسع

سنوات. وبينما كنّا نترك الساحل قلتُ لحنان: «يا ويلاه! كيف كانت أمي (ستّك) اللّه يرحمها تمشي كلّ هالمسافة من النبطية على بيروت مشي، وحتّى لو وقفوا وناموا بالخان؟... واللّه مسافة طويلة... يا ريتني فيني أمشي مثل ما كانوا يمشوا».

نصل إلى مشارف النبطية. أتمطّى، أحاول أن أتبيّن الخان الذي كان ينام فيه المسافرون. أتمطّى لأرى الساحة والسوق حيث لحقنا بأبي وهو يهرب منّا... هنا الصائغ، وهنا كان يعمل خالي مصلّح الأستيك، وهنا وهنا.

تتذكّر حنان سوق النبطية، ومشاهد ذكرى عاشوراء، وكيف أخذت النسوة يبصقْنَ ويضربْنَ الممثّل الذي قام بتمثيل «الشمّر» اللعين الذي رمى الشهيد الحسين بالضربة القاضية، والممثّل يدافع عن نفسه قائلاً: «يا عمّي هيدي تمثيليّة... ولكن أنا مش الشمّر أنا مصطفى الخبّاز».

نتوقّف عند امرأة تحت شجرة زيتون تضرب أغصانها، فتهرّ حبيبات الزيتون الخضراء على شرشف ملوّن. تقترب حنان من الشجرة بينما أتلكأ أريد أن أدخّن سيكارة، وسط هذا الهدوء والصفاء، وتحت سماء الخريف الزرقاء. تلقي حنان التحيّة، وما إن يطلّ الرأس من بين أغصان الشجرة حتى تتعرّف حنان على المرأة «شو ما عرفتيني؟»، فتجيبها المرأة: «هدّي عليّ حتى بوسك وأعانقك وشمّك حتى أعرفك!». «أنا اللّي كانت تحرقصك»، تقول لها حنان، تقترب المرأة من ابنتي، تتعانقان، ثم تحدّق إليها المرأة وتقول: «أنت

حنان». تتعانقان من جديد عناقًا شديداً، ثم تعرِّفني حنان على سميرة التي تعترض وتصحِّح ما قالته ابنتي: «لا الحاجة آمنة». وتخبرني المرأة، أنَّها كانت لا تحب اسمها في أيام الطفولة والشباب.

نسير مع الحاجه آمنة التي قاربت السبعين، فأبدو أصغر سنًّا منها. وكانت تطلق الأقوال والأمثال من غير مناسبة: «يا ليرة يا فضيّة، خلِّي أيامي هنيّة»، ثم: «فتشوا على بيّاع الصبر لقوه شنق حالو»، ثم تلتفت إليّ وتقول، وكأنَّ حنان ليست موجودة: «أمّي اللَّه يرحمها كانت تشفق عابنتك كثير، كانت توصينا: «حرام هالبنت مشتاقة لأبوها، لبيتها... روحوا اشتروا لها شوكلاته... جيبولها دربكة وشناشيل (أساور)، ومرّة صارت حنان تبكي وتقول: «بدِّي روح عا بيروت». فقامت أختي الكبيرة وقالت لها: «إي يلّلا شو عليه... اركبي البسينة (القطة) وهي بتاخدك عا بيروت».

أترك حنان والحاجة آمنة، وأسير في الحاكورة، حيث أدخِّن سيكارة، فأشعر بأنَّ شرايين قلبي تنقبض من جديد. تلحق بي حنان وتسألني عمَّا بي؟ أحاول أن أخفي ألمي، وعند إلحاحها الشديد وجدتني أقول لها: «الحاجة آمنة عم تحكي عنك، وكأنَّك كنت بلا أم.. اللَّه عليّ! كيف صارت الحوادث (٥٨)، وأنا مش عارفة وينك وين أختك، مطمّنة بالي مثل الهبلة! وبعدين كيف إجاك الميعاد؟ شو عملتِ؟ كيف نظفتِ حالك؟ كيف انوجعت لحالك؟». تجيبني حنان: «الميعاد، بسيطة كنت فرحانة إنُّو إجاني الميعاد... بس لازم تسأليني كيف بعمري ما نظفت وراء دينتي أو صرّتي». فتضمَّني

إليها وتقول: «ماما... خلص، عيشي بالحاضر... كنت يمكن عم أتدلّع عليهم».

نأخذ الحاجة معنا من أجل أن نبحث عن بيتنا. تحاول حنان مساعدتها في الصعود إلى «الجيب» بعد أن ابتعدت عن السائق، واتّكأت على ابنتي، تسألها حنان: «ما بدِّك ياه يساعدك لأنُّو غريب؟»، فتجيبها: «ما غريب إلاَّ الشيطان». تسير بنا السيَّارة من جديد، فأرى فجأةً أشجار الكينا نفسها والكروم، وما إن نصعد الطريق العالية حتى أصيح وأنا أكاد أرمي نفسي من نافذة السيَّارة خوفًا من أن أضيِّع الطريق: «هيدي هيّه الطلعة، هيدي هيّه! وقف دخيل اجريك يا علي». وحين وصلنا إلى رأس الطلعة، ترجَّلنا من السيَّارة. لم أجد البيت، فأصبحت كالنحل الذي لم يعد يفهم أوامر ملكته، فراح يطنّ من غير فائدة. تشير الحاجة آمنة إلى بيت متهدِّم لم يبقَ منه إلاَّ حجر منقوش في أعلى بابه. لا، لم يكن البيت عند رأس الطلعة، كان يقع إلى الشمال. وما إن سرتُ بضع خطوات باتجاهه حتى تذكَّرتُ حركةَ قدميّ في الماضي البعيد، وكيف كنت أحاول تثبيت نفسي في القبقاب الخشبيّ خوفًا من الوقوع. أقف أمام البيت وأهتف: «يا اللَّه هيدا هو، بس البوابة ضيّعتني... ما كانش في بوابة!» ترانا امرأتان كانتا تقفان على «سطيحة» البيت، ونحن نتحدَّث عن بيتهما، فتفتحان الباب، وتخبرهما الحاجة آمنة أنَّني أبحث عن البيت الذي ولدت فيه. ترحّب المرأتان أجمل ترحيب. ندخل جميعًا، وأرى القناطر فأشهق: «يا اللَّه القناطر بعدهن...

وباب السرّ»، فتعلّق الحاجة آمنة: «صحيح المثل اللي بقول... حجر بياخدك وحجر بجيبك».

أهتف عاليًا: «يا اللّه فند التينة كان يطلّ من هالشبّاك، وأمي تقطف كوز حتى تفطر بالصيام، يا اللّه وين شجرة التين راحت؟». أنظر إلى المرأتين وكأنّي أستفهمها، كأنّي لم أترك هذا البيت قبل ٦٦ عامًا. تقترب المرأة من حنان وهي تتأمّل حجر النافذة الذي كان محفوراً بالرسوم الهندسيّة، وبينه عامودان وتقول: «ابني ترك هالعواميد وهالشبّاك لأنُّو أنتيكي، مع إنُّو مالوش لزوم واقف بصحن الدار، مثل الأربعاء بنصف الجمعة».

تصرّ المرأتان على أن نجلس معهما على «السطيحة». نطلّ على جزء من الحاكورة، وعلى الطريق العموميّة، وخلفنا البستان حيث كنت ألعب. أحجار السور أمامي لا تزال ظاهرةً حجرةً حجرةً رغم الباطون الذي أضيف عليها، نشرب القهوة، وأقول رغمًا منّي: «الدنيا واللّه حلوة، لو بعيش بها البيت ما باخدش ولا حبة دواء واحدة ولا بروزاك» Prozak. تتبادل المرأتان النظرات، وتتبادل الحاجة آمنة النظرات مع حنان، فتقول حنان مازحةً: «ماما محبوبة كثير... بتاخذ كلّ يوم حبّة مشان تستحمل اللّي بزوروها... زرفاتٍ ووحدانًا».

فأتساءل: «أين هي أمي؟ وأين هي البقرات؟ أين الكرّ وأين تفاحة والأخريات؟... كيف سحبتني الدنيا من هنا إلى بيروت ورأس الناقورة، إلى سوريا والكويت إلى أميركا؟».. نغادر باتجاه

القبور مرغمةً. أريد أن أقرأ الفاتحة على روح أمي وشقيقتيّ. نبحث عن القبور الثلاثة بين الأعشاب البريَّة ولا نجدها. لم تكن حنان مهتمَّة بأن ترى القبور، ولا الحاجة آمنة.

تقترح الحاجة بأن تقرأ، أو تعلِّمنا قراءة الفاتحة، والتي لا بدّ أن تصل إلى روح أمي وشقيقتيّ لا محالة، حتى من غير قبر. أريد أن أطلب السماح من أمي لأنِّي لم أجبل لها «الفراكة»، وأخبر شقيقتي الكبيرة أنِّي عدتُ وتزوَّجت زوجَها وطلَّقته... وأخبر شقيقتي الأخرى أنَّ كلّ أولادها أصبحوا في أميركا، حتى ابنها ذو الساق الخشبيَّة لحق بهم. تمسك الحاجة آمنة يدي ويد ابنتي حنان، وتقول: «معلهش يا حبايبنا، خلّيني أقرأ الفاتحة إللي بيقراها مسوكرة».

«تشقّ القبور

وتطلع على أعلى القصور

وتشمّ ريحة العنبر والبخور

دخّلها جنينة النعيم

وتبريها من نار الجحيم

بحقّ رب العالمين

وسيِّد المرسلين

وخير الوصيِّين

هالفاتحة أهديها إلى المرحومة أمك والمرحومتين أخواتك».

أحببتُ الحاجة آمنة ووجدتني أدعوها إلى زيارتي في بيروت لنتسلّى معًا فتجيبني: «إن شاء اللّه دايمًا بتضلّك مقصد»، ثم تعود فتمسك يدي ويد ابنتي حنان وتردِّد:

«لو كلّ من يعرف نفسه

وعلى نفسه يلقي درسه

ما بصير بالدنيا قتال

ولا بصير قيل ولا قال

والقاضي بسكّر حبسه

وما تنسوش يا حبايبين قلبي.. نقطة زيت صغيرة، بتحلّ أكبر عقدة».

في طريق عودتنا إلى بيروت تخبرني حنان أنَّ آمنة اختلت بها عندما ابتعدت لأدخِّن سيكارة قائلة: «ولو إمك حاطة إيدها على خدّها وزعلانة مشان هالخربة؟ ألف بيت أحلا من هالخربة؟».

آخذ في البكاء، فتمسك ابنتي حنان يدي، وتسألني إذا كانت العتمة التي راحت تزحف خارج السيَّارة وداخلها تزيد من حنيني إلى الماضي، وتجعلني أبكي. ثم تخبرني أنَّ اليوم عيد ميلادها، وتقترب منِّي، فأزيد من بكائي. تعانقني فأبتعد عنها. لا أريدها أن تشمّ رائحة السكائر، ثم أخاف أن تفكِّر أنِّي لا أودّها أن تعانقني: «ريحتي دخَّان» فتجيبني: «ماما أنا بحبّك حاج تبكي». هي تعرف

أنّي أبكي لأنّي أشكّ بحبّها لي. أسألها: «بالصدق بتحبّيني مضبوط؟» وتعانقني وتردّد من جديد: «ماما أنا بحبّك كثير». «كيف بتحبّيني وأنا تركتك وأنت صغيرة؟..». «مش مهمّ كان لازم تتركي بابا، على كل هيدي قصة قديمة كتير... فكّري بالحاضر». كيف أفكّر في الحاضر، وأنا أسمع كلمات الحاجة آمنه عليها؟ كيف أفكّر في الحاضر وأنا أعرف أنّ (حنان) كانت تعدّ المرات التي تراني فيها على مرّ السنوات؟

تزيد حنان من فوائد تركي لها وهي صغيرة: «ماما أنا استغلّيت تركك للبيت، كنت خلّي الأولاد يشفقوا عليّ، كنت كذّب على المعلّمة لأنّي ما كنت أدرس دروسي إنّو اليوم بدّنا نروح عالمحكمة... ليسألنا القاضي مع مين بدّنا نروح: مع إمنا أو أبونا».

ولم أضحك من كلامها الكاذب: «أنت وأختك جوهرتان رميتكم بالتراب المعفّر». عندئذٍ تجهش حنان بالبكاء، وعندئذٍ فقط أتمالك نفسي. لكنّها ترفع رأسها بسرعة، وتقول لي إنّها تبكي لا لأنّي تركتها في الصغر، بل لأنّها كلّما سمعتني أحاول التحدث بالفصحى، يحزّ في قلبها أنّي لم أعطَ فرصة... «لو علّموك كنت أنت الكاتبة مش أنا»، وكانت دائمًا تقصّ عليّ ما تكتبه، فأقترح عليها هذا المثل وذاك التشبيه مثلاً: «عندما تضيق الصدور زوروا القبور»، كلّما هلّ الهلال ذكّرني بقصر عمري»... فتكتب ذلك في قصصها، وتقرأه لي، فأشعر بكلّ الفخر لأنّها تحبّ أفكاري وتشابيهي.

كلّما تكلّمت حنان كشفت لي عن نفسي... وعرفت أنّ الحاضر هو الماضي، من غير أن أدري، كأنّي أتلبّس شخصيّتها وأصبح هي. ألم أفكّر بهذا في أثناء ذهابي معها إلى البيت حيث تزوّجت، وأنجبتها؟ بعد عودتنا من أربعين والدها الحاج، ووقفنا معًا نتأمّل الحيّ والجيران، ونأسف لاختفاء الجنائن الجميلة، والقرميد الأحمر في البيوت التي هُدمت، وبنيت بدلاً منها العمارات الشاهقة: «هون كنت أوقف يا حنان وأتطلع على الشاب جارنا. هون كنت أوقف لأسمع دعسة محمد، وعلى الشبّاك الثاني كان يحطلّي الورد».
نطلع معًا الدرج الذي مازال قائمًا، والذي تعكّزت على درابزينه الأسود، وأنا أصعد بكلّ بطء بسبب آلام ركبتي، بعد أن كنت أقفز عليه قفزًا. أقف أمام «البورت شابو» التي كنّا نطلق عليها «البور شابور»، وأمام العامودين الخشبيّين، وكيف كان المفروض أن أضيء فيهما اللمبة، فأؤجّل هذا إلى اليوم التالي والتالي، إلى أن تركت البيت نهائيًّا. أصمّم على طلبهما من العقائدي. أمسك بيدي صدفة البحر التي مازالت حيث تركتها، والتي كانت تستعمل كمنفضة للسكائر، وأضعها على أذني كما كنت أفعل لأسمع نداء الأمواج السجينة في داخلها. ثم نرى الصورة نفسها المعلّقة التي تمثّل صبيان شقيقتي الثلاثة، وبينهم فاطمة، ونرى الاهتراء قد زحف على شعر كلّ منهم وامتدّ إلى الوجه. ضحكنا على برزقة عيني الابن الصغير، فتعلّق حنان: «مبرزق عيونو حتى يشوفك ويراقبك وأنت عم تشمطي المصاري من جيبة البابا».

ولم تكن هذه المرّة الأولى التي أدخل فيها بيتنا هذا بعد تركي له. دخلته مرّة لأزور «الحاج» الراقد في السرير في حضور زوجته التي لطالما توجّست منها شرًّا لمعاملتها السيّئة أحيانًا لفاطمة وحنان. عرّفته بنفسي بعد أن أصابه العمى من غير أن يخبر أحدًا، «يا حاج أنا المزفّتة، أنا الزفت والقطران بتتذكّرني؟» فيجيبني: «أنت قمر»، ثم يفارق الحياة بعد أسبوع. لماذا عندما نتقدّم في العمر وتموت حيويتنا نتصالح مع الماضي؟ لماذا تصبح حياتنا الجديدة والقديمة كالمنديل المرقّع «كخالتي أم الحيّة؟». ندخل بيتي، فتأخذ حنان دفتر التلفونات الخاص بي من أجل أن تصوّر صفحاته، وكانت في كلّ زيارة لها إلى بيروت تفلش أوراقه لترى الرسوم والأرقام التي قمت باضافتها في أثناء غيابها. فأنا كنت قد اكتشفت طريقة الكتابة بالرسوم. فأرسم صاحب الرقم قرب نمرة تلفونه: رجل وفي يده علبة سيكارة تشير إلى رقم الرجل الذي كان يبيعنا الدخّان المرخّص، المرأة الحامل ذات الثديين كالصحنين، وبطنها الذي يشبه مؤخّرة البقرة هي فلانة، والثريّا المشعشعة بالنور هي صديقة لي اشترت ثريّا جديدة، الولدان السمينان إلى جانب رقم صديقتي ذات الولدين السمينين، الفستان مع حزامه يدلّ على صديقتي التي كانت يومًا ما خيّاطة، والرجل الذي يمسك الكتب هو القاضي قريب والدي، والسمكة تدلّ على فلان الذي يعمل في مسمكة، والصحن وفوقه موزة وتفاحة هو المطعم، والطائرة إلى جانب رقم قريبة زوجها طيّار، والأولاد الثلاثة يدلّون على رقم ابنة ابن شقيقتي، والطاولة تدلّ على مصمّم

الديكور زوج ابنة سلفي، وهذا الشخص وقبالته الكمبيوتر هو رقم ابني البكر، البراد وإبريق الماء والغسالة رموز إلى بائع البرادات والغسّالات، أمّا الرأس وعليه بقعة سوداء فهو يدلّ على رقم صديقتي التي خُدش رأسها على أثر اصطدام سيّارة زوجها بسيارة أخرى، دواليب سيّارة وسقف يشيران إلى رقم سوّاق حماة حنان، المرأة والمتر حول رقبتها، ومكنة الخياطة إلى جانبها، هي جارتي صاحبة مصنع الخياطة، ثم أدلّ على رقم جارتي التي تؤلمها ركبتها بأن رسمت ساقها ودائرة كبيرة حول ركبتها. رسمت لحفيدتي رسمين: تلفون أي رقم هاتف مكتبها، وسرير أي رقم هاتف بيتها، الرجل والنار من حوله، هو رقم صديقتي أم الإطفائي، والكلاب السبعة الصغيرة رمز إلى رقم الصديقة التي ولدت في حديقتها الجِراء السبعة.

تتوقّف حنان عند وجه مصلّح الكهرباء وهي تكاد تضرب نفسها من كثرة الضحك، وتسألني لماذا رسمت أسنانه هكذا، فأجيبها لأنَّ أسنانه كبيرة كأسنان سمك القرش وعنده «باجوق كبير». وتسألني ماذا أعني بصورة الرجل وبجانبه الوردة فأقول: ليست وردة، بل مروحة، إلى جانب رقم الكهربائي مصلِّح مكيّف الهواء الذي ركّبته في غرفة الجلوس. ثم ترى حنان صورة الحمامة التي رسمتها إلى جانب اسمها، أي أنّها مسافرة، فتبتسم لي، وترسم لي وردة قرب اسمي الوحيد الذي كتبته بخطّ يدي إلى جانب رقم تلفوني.

«أوعى يكون عندي من هداك الشكل»

لو لم أكن أسفّ الحبوب لتهدئة أعصابي، لصحّة قلبي، للنوم، للضحك، للنهوض، لكنت فطنت لما بي. لو أنّي لم أكن أشعر بضيق في التنفُّس، بآلام وبحريق عند كتفي، وفي أنحاء جسمي، لما قرَّر الطبيب أنّي أعاني من انهيارعصبيّ. لو أنّي لم أصدِّق بأنّ صحتي تتبدَّل لمجرَّد أنّي أتقدَّم في السنّ لا أكثر ولا أقلّ، بينما أذكُر نفسي بتبدُّل شعري الجعد الذي أصبح مالسًا، بعد أن ضجر من التقوقع على نفسه، وراح ينثر خصلاته كيفما اتَّفق. لو أنّي لم أصف نفسي بالشراهة وأنا أرى رقبتي تتضخَّم. لو أنّي لم أصف نفسي بالترهُّل. لو أنّي لم أسافر إلى كاليفورنيا لأثبِّت لنفسي أنّي ما زلت أستطيع السفر. لو أنّي لم أرَ هناك أحفادي وهم يقاسون، لو أنّي ما زلت تلك الصديقة وبمنزلة الأم لزوجة ابني البكر، التي عرفتها منذ أن كانت

رفيقةً لبناتي وهي في الرابعة عشرة من عمرها، بدلاً من أن أصبح في نظرها الحماة الكريهة، فأشعر بالاختناق من قهري منها. لو لم أكن أعاني من «الأونجينا» لكنت شككتُ بأنَّ صحتي في خطر.. لو.. لو.. لو.. لو...

أعود إلى بيروت بصحبة إبنتي ـ أ ـ وأنا أمسك صدري، أمسك قلبي، أهرع إلى طبيب القلب، وكلّ ظنّي أنَّ قلبي هو الذي يستولي على أنفاسي، هو الذي يجعلني ألهب. يدخلونني المستشفى لأنّي أختنق، ويكتشفون ما بي: المريء حاد عن موقعه، لذلك أخذت أتجشّأ من طرف فمي، ومن قرب أذني. ويقترح الطبيب أن يفتح لي فتحةً في رقبتي حتى أتنفَّس، فأرفض رفضًا باتًا وأنا أتذكَّر الرجل في حيِّنا الذي كلَّما أراد أن يتكلَّم كبس زرًا عند رقبته ليطلع صوته من أعماق بطنه وكأنَّه آتٍ من مغارة «علي بابا والأربعين حرامي». أتغنَّج على الطبيب، وأتدلَّع، حتى أصرفه عن إجراء فتحة في رقبتي، كأنَّه شرطي سير يلحقني بمخالفة، وأنا أتوسَّل إليه أن يسامحني. ولم أتوقَّف عن التفكير لحظةً أنَّ ما يقترحه عليّ سوف يسهِّل لي عمليَّة التنفس، بل كان همِّي ألاّ أبدو مثل ذلك الرجل خوفًا من أن أضحك على نفسي، ويتحسَّر الناس على آخرتي.

أدخل المستشفى، وأخرج منه، أخرج منه، وأعود أدخله. كلَّما فرح أولادي، وأقاربي، وجيراني، وصديقاتي، بخروجي من المستشفى أردت العودة إليه، إذ لم يعد باستطاعتي شرب الماء من غير

الشعور بأنّي أختنق. ولم أكن أطمئنُّ إلاّ بين أيادي الأطباء والممرضات، ووسط الأدوية والآلات الضخمة، ومعدّات الضغط والقلب. وكنتُ بعيدةً عن الثرثرة من حولي، وعن ضجيج التليفزيون، ولم أصدّق أنّ صحّتي تتدهور إلاّ عندما تخاصمت جارتي وابنتها، وحاولت الفتاة رمي نفسها من الشرفة، فصاحت بها أمّها: «بدّك تنتحري اطلعي عالبيت وانتحري! مش شايفة أم توفيق قديش مريضة وبأي حالة! شو هيّ وج محاكم وتحقيق... بدّك تنطّي عن الفرندا، إطلعي عالبيت ونطّي من عندك».

هل من المعقول، أنا كاملة، لولب الجلسات والسهر والسمر، أن أصبح كاملة المريضة، «كاملة يا حرام؟». هل من المعقول أنّي لا أستطيع التحايل على جسمي، لا أستطيع دفعه لينهض، وينام، ويشرب، و يأكل، ويسير، ويفكّر، ويضحك، يطرب للأغاني ويصدح بها؟ تُرى هل معي من هداكِ الشكل؟ ترى هل سأبقى هكذا؟ أو أنّ هذا الكابوس لا بدّ أن يمضي، وأعود كاملة كما كانت في الماضي؟

ثم أدخل المستشفى لأيام طويلة، وأصبح وأنا على سرير المرض كالسلعة في دكان. يفلشني طبيب، ويعود يقلبني آخر، فأصحو بعد غياب لا أعرف مدّته، وأجد نفسي من غير كيلوت، والممرّضة تحاول أن تدخل فيّ أنبوبًا ونربيشًا. ورغم وضعي المخجل المُحزِن هذا تفيض قريحتي وآخذ في الغناء:

«خبيناك خبيناك

وحافظنا عليك

وهلّق الرايح والجاي بيتفرَّج عليك......»

ولم أكن أفهم لماذا عليّ أن أختنق إذا أكلت أو شربت؟ وما دخل زلعومي بآلام ظهري؟ ولماذا عليّ أن أجلس شبه عارية، أرتعش برداً تحت الآلة الكبيرة، كي تُسلَّط عليّ الأشعة، فأحاول تحاشيها، حتى أخبرتني مرّةً حنان بأنّه عليّ إطاعة أوامر الطبيب. عندئذٍ أطلب منها الحقيقة، وأنا أسألها عن هذه الجلسات «أوعى يكون عندي من هداك الشكل؟». فأنا لم أكن أحب أن ألفظ هذه الكلمة، وإذا نطقتها فبالإنكليزيّة: «كينْسِر». ولم تجبني حنان، بل تشاغلت بترتيب غطائي. أسألها وأنا أحاول الابتسام إذا كانت كلمة «كِنْسِر» مشتقّةً من «طائر النسر» أو من فعل انكسر ينكسر؟ تلفظ حنان الكلمة بالإنكليزيّة، فإذا هي بالفتحة «كَنْسِر».

أمسكها من يدها، وأسألها إذا كان معي «كِنْسِر». تسألني لماذا أودّ أن أعرف، فأجيبها: «حتى أعرف كيف بدِّي عيش». جوابي هذا جعلها تخبرني الحقيقة، وتؤكِّد لي أنِّي في تحسُّن، «كذا جلسة ويختفي الكِنْسرْ... كأنَّك حلمت بكابوس». يهبط قلبي، ثم ترتعش ركبتي من الخوف والهلع، لا. لا أصدِّق أنِّي مصابة بهذا المرض، أريد أن أهرب منه، من النِسْر الذي يريد أن يخطف روحي. كنت أشكّ منذ أوائل مرضي بأنِّي مصابة به، وكلّ من حولي ينكر هذه الحقيقة.

أتمتم: «اللّه عليك يا كاملة شو صار فيك!». أجدني أغرق في النوم، لأعود أستيقظ بذعر، وأتمتم الجملة نفسها، وأعود أغرق في النوم لأنهض في الصباح وقد صدَّقت ما قالته لي حنان بأنِّي «في تحسُّن وكذا جلسة أشعة ويختفي الكِنْسِرْ». لو كان الواقع غير هذا لما تجرَّأت باطلاعي على حقيقة مرضي. لكنِّي أقول لها: «يا ريت ما خبّرتيني الحقيقة... يا ريت تركتيني عيش بالكذبة»... وكنت حتى قبل أن تخبرني حنان بحقيقة مرضي، أرفض أيّة زهور تأتيني، فأضعها على الشرفة، فالزهور للأموات، وللذين سيموتون، «وليش عم يفوّلوا عليّ؟». حتى عندما رأيت ابنتي ـ أ ـ ترتدي الأسود، ذات صباح، شددتها من رقبتها، وقلت لها: «إشلحي الأسود بعد بكّير» رغم أنِّي في قرارة نفسي كنت أعرف كم أنَّ فستانها الأسود هذا جميل، وكم يليق ببشرتها الناصعة البياض وكأنَّها حجر المرمر!

ثمَّ أفكِّر من جديد بأنِّي في طريق الشفاء، وإلاَّ لما كنت أحظى بهذا الاهتمام، كل دقيقة، من الأطباء والممرّضات من خلال حقني بالمصل، والتغذية، وإجراء الأشعة، ومنعي من التدخين الذي لم أكن أتوقَّف عنه خصوصًا حين أجلس على شرفة غرفتي في المستشفى أراقب الحمام على السطح. أرى الذكر يقبِّل الأنثى، ثم يقفز الاثنان، ويفرّان، ثم يعودان فيستكينان، فأغنِّي أغنية أسمهان «دخلت مرة الجنينة». أغنِّي كأنِّي وحيدة، كأنِّي أسير في الحديقة قبالتي، أغنِّي بكلّ جوارحي سعيدةً بأنَّ أنفاسي لم تخنق صوتي بعد، وإذا بي أرى حنان تغادر الغرفة وهي تبكي.

ترى لماذا أخذتني قبل ستة أشهر إلى النبطية أبحث عن البيت وعن قبر أمي وشقيقتي؟ هل نادينني يا تُرى، أو أنهنَّ أخفينَ قبورهنَّ عمداً؟ أستحلف حنان ألاّ تخبر أحداً لأنَّ المرض نقصٌ فيّ، وهو مخجل كالفقر، كمرض البرص، كرائحة الفم الكريهة، كالقمل بين خصلات الشعر. خفت أن «يشمت» بي أعدائي، ولاسيَّما الجارة نفسها، الجارة التي كانت ترعبني ببرودتها تجاهي، وغيرتها منّي. تلك التي تجعلني أفتح الباب في الصباح الباكر، وأعود إلى النوم خوفًا من أن تتّهمني بأنّي لا أريد استقبالها. وأيضًا بعض نساء عائلة محمد. ثم أتذكّر فجأةً دموع صديقتي «ف» وهي تقول لي وسط ضحكاتي وضحكات من حولنا عندما زارتني في أوائل مرضي: «إفتكرت مِتّي... قالو لي إنُّو كاملة ماتت!». ثم توصي بناتي أن يقدِّمْنَ للأطباء «البقلاوة بس عالتقيل» من أجل أن يهتمُّوا بي، وأن يأتوا لي بالتين الشتوي حتى إذا ما أكلت «كوزاً» شفيت. ثم تعدني بأن تأتي يوم الجمعة، موعد اجتماع الملائكة، من أجل أن يسمعوا دعواتها فأهب من السرير وكلّي صحة وعافية.

أحاول رشوة الأطباء، وأحاول رشوة الممرّضات لأدخّن السيكارة عندما اكتُشِفَ أمر تدخيني، وأطلب إلى منظّف الغرف أن يبيعني ولو سيكارة واحدة. كان يشفق عليّ، فهو يعتقد أنَّ «الحرمان على السيكارة» أفظع من أيّ مرض. تدخل غرفتي إحدى الممرِّضات ضاحكةً، وهي تخبرني أنَّ المنظِّف يطلق عليَّ اسم «مدام سيكارة». وكانت الممرِّضات قد انقسمن إلى فريقين، من يسمحنَ لي بتدخين

السيكارة على الشرفة، ومن تحذِّرني منها، ويأخذن منّي العلبة والكبريت، فأجدني أتغنّج وأتدلّع عليهن محاولة المراوغة والتملّق، وأطري عينيّ ممرضة، لأعود أبدِّل رأيي بها، وأظهر لها حنقي ما إن تغادر الغرفة ومعها علبة السكائر، وأعلِّق بصوت منخفض «روحة بلا رجعة يا أم عيون مبرزقين». وأخذت كلَّما دخلت هذه الممرّضة غرفتي أخبِّئ السيكارة تحت الأزهار القصيرة، في المزهريَّة الصغيرة الوحيدة التي سمح المستشفى بها. ولم أتوقَّف عن حبِّي للسيكارة رغم محاولة الجميع التحالف ضدّها، ورغم عدم استطاعتي الوقوف والسير. وأستجدي زوج مريضة دخل غرفتي خطأً: «دخيل إجريك، احملني على البلكون خلّيني دخِّن سيكارة». وكانت ابنة ابن شقيقتي العقائدي تنام في غرفتي في المستشفى بعد أن كانت تنام في بيتي الذي ازدحم بأولادي البنات والصبيان. ولأنَّ اسم ابنة العقائدي كان على اسم إحدى القديسات المسيحيَّات، أخذت تبدو وكأنَّها قدِّيسة بشعرها الطويل، تدخل الغرف، تسأل عن المرضى، وتضفي السعادة والمرح عليهم، وهؤلاء يستمدّون منها الحبّ والثقة بالنفس. وتعود إلى غرفتي محمَّلة بالأخبار عن المرأة التي خسّ وزنها ٣٠ كيلو بعد أن سحبت منها حقنة دماء، عن الرجل الذي يلحق بالطبيب يسأله إذا كان يستطيع أن يقطف البندورة عند مغادرته المستشفى لأنَّ لا أحد من عائلته يقطف البندورة بتروٍّ وحبٍّ مثله.

أحضن نفسي في الليل وأنا أفكِّر أنَّ الإنسان دائمًا يخلد إلى النوم بنفسه، ولو كان إلى جانب حبيبه. أحاول أن أحسب الليالي

التي نمتها منذ أن ولدت، فتحسبها لي إحدى بناتي على الآلة الحاسبة، وتقول لي أنّها أكثر من ٢٧ ألف و ٣٧٥ ليلة.

أنسحب شيئًا فشيئًا من الحياة حولي. من الزائرين، ما عدا أولادي وشقيقتي من أبي «كاميليا» التي ما إن أراها وأسمع صوتها حتى تفيض مشاعري، وتعيدني إلى الماضي، حيث البقعة الآمنة، إذا دخلتها فلن يمسّني مكروه. أقول لحنان: «كيف يخذلنا جسمنا؟ ولماذا كنّا نمضي، ونتأمّل فستان فاتن حمامة المريضة، وهي تستمع إلى من يغنّي لها: «ليالي العمر... ليالي العمر معدودة»، وابنتي لا تجيبني بل تبدّل الموضوع، فأحذّرها: «أوعى ما تعملوا من قيمتي بضيعة محمد». ثم أتحسّر على السكربينات الجميلة التي لم أدشّنها بعد، وعلى غرسات شرفتي، وأتمتم: «هيك يا كاملة، هيك اللّه عليك، لقاك الكِنْسِر؟ وإنت مفكرة عندك بالقلب؟».

أرى ابنتي فاطمة أمامي، أعرف أنّها أتت من بعيد، أحاول أن أنطق ولا أستطيع، وقبل أن تغادر وجدتني أرفع يدي كمن يريدها أن تبقى، ومن بعدها لم أعد أعي شيئًا. يأتي ابناي ويجلسان عندي، ويأخذان كفّي بين يديهما. أفتح عيني وأنا أرى الممرّضات في غرفة العناية الفائقة حيث كانوا يأتون بي لبضعة أيام بعد كلّ عملية يجرونها لي، فهم حاولوا بناء معدة جديدة، وعندما فرحوا بالنتيجة كدت أختنق لأنّ القصبة الهوائية ثُقبت بعد أن احترقت من جلسات الأشعة: «هل لأنّي كنت أتحرّك، أو لأنّ الأشعة كانت في غاية القوة؟».

أفتح عينيّ يومًا، وأجدني أحدِّق كثيراً، فأتبيَّن حنان وكانت قد رفعت شعرها من حرّ بيروت بإيشارب. ويبدو أنِّي حدَّقت بالإيشارب كثيرًا فسألتني: «شو ماما إيشاربي حلو؟». أحاول أن أقول شيئًا، وأعرف أنَّ صوتي قد اختفى منِّي إلى الأبد. فأشير إليها بيدي، وأهزّ رأسي وأبتسم، وتفهم ابنتي ما كنت أقوله لها: «دح إيشاربك دح... دح... دح»، كما كنَّا نقول ونحن صغار في النبطية.

أودّ أن أتحدَّث مع أولادي، وحين لا أستطيع، يقترح عليهم الطبيب أن يعطوني قلمًا وورقة حتى أكتب ما أريد. وعندما يتردَّد أولادي يبتسم قلبي، فهم لم يكونوا يريدون إخبار الطبيب أنِّي لا أقرأ ولا أكتب. أرى اللغط والاستهجان على وجوه الممرّضات، وعلى كلّ من كان في العناية الفائقة، فهم يتكوَّمون حول التليفزيون، وأرى إنفجاراً وانهياراً... فأتساءل بيدي ماذا يحدث؟ فتجيب إحدى بناتي: «طيّارات نسفت بنايات بنيويورك»، فأطمئن بأنَّ الانفجار لم يحدث في كاليفورنيا. أتابع بعينيّ الأخبار، وأشير بيدي أحاول الاستفهام، فتتعجَّب الممرّضة من أمري، وتغلق التليفزيون، لأنَّها لم تشأ أن أتكدَّر، خصوصًا أنَّ إحدى بناتي تخبرها كم كنت أتابع السياسة، وأعلِّق عليها، وكيف أنِّي نظمت أبياتًا من الشعر وأطلقت عليها عنوان «أولاد الحجارة». ويتساءل أولادي فيما بينهم، إذا أمليت هذه الأبيات على أحد منهم.

أغمض عيني وأذهب في غيبوبة عذبة. ولم أدرِ أنَّ الزائرين ما زالوا يزورونني، إنَّما يتكوَّمون في الصالة قرب «العناية الفائقة». تتحدَّث إحدى رفيقات الصبا إلى بناتي كلَّما أتت في الصباح لزيارة أخيها المريض. تخبرها ابنتي حنان بأنَّها طالما أحبَّت اسمها «زمزم»، وما كتب على البناية التي كانت تسكنها: «الملك للَّه»، وكيف كانت ابنتي تظنّ أنَّ هذه البناية هي فعلاً للَّه، فتفكّر كيف سيجمع اللَّه الإيجارات. تضحك زمزم وتخبر ابنتي أنَّ والدها الثريّ أوصى بمعظم أملاكه المهمة إلى إخوتها، وأوصى لها ولأختها بعمارتين مقابل «جبانة الباشورة»، ثم تخبر زمزم كلّ من يعرفني أنِّي في «العناية الفائقة»، وأنَّ أولادي يتكفَّلون دفع مصاريف المستشفى، ثمّ تهزّ رأسها بكلّ فخر: «أبداً أبداً، كاملة مش على حساب الحكومة». يلتمّ حولي أولادي السبعة، ترى لماذا جاؤوا جميعهم وأنا أودِّع الحياة؟ لماذا لم أرَ السبعة معًا وأنا أقفز وأغنِّي؟ لماذا يذهبون الآن معًا إلى المطاعم ويتدفأون بحرارة بعضهم بعضًا، وأنا لست معهم؟... بناتي يتحدَّثْنَ عن جسمي الناصع البياض. إبنتي تسأل الممرّضات لماذا قصصنَ لي شعري من غير استئذان، وكنَّ قد قصصنَ أظافر أصابعي الطويلة التي كنت أتباهى بها... ثم تمسك ابنتي الأخرى بقدمي، وتقول: «كأنَّها ما كانت تمشي فيهم...».

تزورني زوجة شقيقي وأخي كامل وجاراتي وصديقتي «ف» يسمع الناس صوت صديقتي «ف» في بهو المستشفى، وهي تصيح بموظَّف الاستقبال ذاكرةً اسمي، ثم يسمعها كلّ من في المصعد وهي

تبكي: «يا ريت يموت الكلّ ما عدا حبيبة قلبي كاملة». تدخل إليّ تبكي وتبكي، ثم تمسح عينيها وكأنّها لم تبكِ... «ترقيني»، تبسمل وتغمض عينيها: «يا كاملة اسمعيني، صليتلك ركعتين، أهل البيت بِسلّموا عليكِ واحد واحد، ويملسوا عليك واحد واحد... يا حبيبتي يا أختي...». تمسّدني بيديها، وكأنّها تحرِّك البرغل المجفَّف المتروك على السطح، تتأثَّر بناتي بمنظر صديقتي «ف»، وبكلّ كلمة تنطقها. يأخذنها إلى الصالة ويعرّفنها بابنة شقيقي، فتشير عليها صديقتي «ف» أن تنسخ بخط يدها سورة «الواقعة»، عشر مرات، ثم تغلي الأوراق بالماء وتصفّيها، وتنثر الفتات بتراب الزرع، ثم تأخذ ماء الآيات وتسقيني إيَّاها، فأنهض معافاة. تصرّ صديقتي «ف» على بناتي أن يفعلنَ هذا. تريدهن أن يحلفنَ يميناً بأن يفعلنَ هذا لي، وعندئذٍ تتدخَّل إحدى بناتي قائلةً بأنِّي لم أعد أشرب أو آكل إلاَّ من النربيش في أنفي، ومن المصل في يدي، فتقترح صديقتي «ف» أن يضعوا ماء الآيات بالمصل شرط أن نقول للممرِّضة إذا كانت مسيحيَّة إنَّها آيات من الإنجيل، ثم تطلب تأكيداً من ابنة شقيقي: «دخيلك، بدنا حبيبتي أم... ترجعلنا، هيدي رفيقة الصبا، إذا راحت أنا رحت». ثم تحاول أن تنزع خاتماً من يدها وهي تصرّ على ابنة شقيقي: «دخيلك خذي هالخاتم بعطيك فوقه ٥٠٠ ألف ليرة، بعطيك اللي بدّك ياه... بس انسخي صورة الواقعة». ثم تعترف صديقتي «ف» لبناتي بأنَّها لا تقرأ ولا تكتب، وإلاَّ لكانت نسخت سورة الواقعة. تعلِّق إحدى بناتي:

«يعني إنت مثل أمنا ما علّموك...»، فتشهق صديقتي «ف»: «لو أنا بفكّ الحرف كنت قبلت، وبصمت بأصابعي العشرة على الأوراق اللي جابها قريبي... يللا بدّيش أفتح هالسيرة عن جديد، اللّه لا يوفّقوا... ضحك عليّ وخلاّني أتنازل عن ملكي وعن شقفة الأرض...».

أغيب عن وعيي، ثم أستفيق وأغيب كالعصفورين الأزرقين اللذين رأتهما حنان في الحلم. تسأل ابنتي الزائرين عن هذا الحلم، فيجيبونها: «إن شاء اللّه خير». أفتح عينيّ، وأغمضها فأرى بناتي يضحكنَ لصيحة إحدى الزائرات بمريضها: «الإمام علي على يمينك، والنبي محمد على شمالك». يرتعب المريض النائم، ويرتعب الممرِّض، ثم تنسخ إحدى بناتي سورة «الواقعة» عشر مرات، وتفعل تمامًا بما أوصته صديقتي «ف» تحمل القنينة في شنطة يدها، وتأتي بها إلى المستشفى، أفتح عيني وأغمضهما، أرى الدنيا قليلاً، وأغمضهما تاركةً أولادي وهم يتشاورون: منهم من يفكّر أنّني أستجديهم، ومنهم من يفكّر أنّي سأعيش، ومنهم من يفكّر أنّي أشعر بهم. وهكذا تركوني في المساء كالعادة، ويبدو أنّي غبت، وغبت هذه المرة إلى الأبد، بعد أن توقفت الآلة التي كانت تسمعها الممرّضات وتؤكد لهنّ أنّي ما زلت حيّةً. تطلب المستشفى بناتي فتأتي حنان التي كانت في فندق قريب من المستشفى. ينتظرها زوجها في بهو المستشفى، تدخل وتهمس لي «ماما» وهي تمرّ بيدها عليّ وأنا باردة كالثلج رغم المصباح المصوَّب عليَّ، والحرامات التي

كانت تلفّني، ورغم البطانيّات وأكياس الماء الساخنة. ثم تحدّثني باللغة الفصحى: «أنت ملاك أبيض، ها هو الملاك يأتي ليأخذك بفستانك الجميل وحذائك الجديد، لتلعبي مع الملائكة، لتلعبي باللاقوط والطابة «وبالمَرَسة»، ولتحفّي الحامض على الحائط. شكراً لأنَّ رحمك الصغير كان بيتاً لي، شكراً لأنَّك أعطيتني اسمي، ولأنِّي أخذت منك بعضاً من شخصيّتك، شكراً لأنّي كلّما أفكّر بك أجدني أبتسم وأضحك». تكشف لي حنان عن قدميّ، وتفكّر أنَّهما بلون البورسلين الأبيض، وإذا بأغنية تخطر على بالها كثيراً ما حاولت أن تفهم إذا كان المغنّي يغنّي لامرأة مثلي غابت عن الحياة فعلاً؟

«يا سيِّدة دار بانڤيل

لماذا تنامين بلا حراك.

سأوقظك في الغد

وتصبحين كلّ شيء لي.

يا سيدة دار بانڤيل

لماذا لا تردّين عليّ.

كأنَّ قلبك صامت

وأنفاسك خافتة...».

«رحلة الحياة»

أغادر المستشفى وأنا مسجّاة في سيّارة الإسعاف، وحولي الورود والرياحين أكاليل وباقاتٍ. يُشار على ابني الصغير حتى يجلس معي في عتمة السيّارة. يجلس شاحب الوجه، يشعر بالغثيان من روائح الورد النفّاذة، أو رائحة الموت. يا للغرابة! كان في صغره رفيقي في المراوغة والأسرار، وها هو الآن رفيق دربي الأخير. كلّ شيء له طريق مقفل إلاّ هذه الطريق، طريق الموت المفتوحة دائمًا. نمرّ أمام رجال، فيقفون احترامًا، ويترجّل بعض ركاب السيّارات، وتتوقّف أبواق السيّارات الزاعقة، وما إن يصعد السائق في شارع بشارة الخوري باتجاه رأس النبع حتى لم تعد ابنتاي حنان وفاطمة تتمالكان نفسيهما، فتبكيان بحرارة. كيف عرف السائق الشاب الذي لا يعرف أصلي وفصلي أن يأخذني لأودّع حياتي؟ كأنّه وضع أذنه على

جدار أعماقي، وداخل أعماق ابنتيّ فيمرّ بي أمام الفرن نفسه من البناية حيث كنت أُدْعى لحضور الإستقبال، من الدكَّان حيث كان محمد يرسل الصبيّ بالمراسيل والزهور. ها هي الطرقات التي شكت لها ابنتايّ اشتياقهما إليّ! وها هو جدار المدرسة حيث نوديتا من صفَّيهما من أجل أن أراهما! ها هي الأشجار نفسها، والواجهة الزجاجيَّة، والحديد الأسود المخرَّم لعيادة الطبيب الذي كانت ابنتي حنان تبحث عنها كلَّما أخذتها إلى غرفة «محمد»، وأوهمتها أنَّ هذه هي عيادة الطبيب! ها هو بيت رئيس الوزراء وشرفته، ها هو زاروب بيتنا وقد هرّ معظم الاسمنت، وترك حافة الجدار حيث طلبت إلى ولد أن يتسلَّقه ويأتي لي بحجر من الإسمنت شككتُ بشكله المربَّع، وكسرته «بالقدّوم» أنا وابنة شقيقتي الملاك، لنسحب من حطامه قطعةً صغيرةً من «النموسيَّة» التي كنَّا نحتمي بها من البرغش كلَّما نمنا على السطح، فنحاول معرفة أي أم أرادت ابنها أن يقلع عن حبِّي، أو عن حب ابنة شقيقتي الملاك. تكمل بي سيَّارة الاسعاف إلى بيت محمد، نافذته ما زالت مفتوحةً لأنَّنا لم نعد خلفها. تبكي حنان لأنَّها تتذكَّر حين لعب الهواء بأوراق أشجار برتقال «البوسفير»، تساءلت: «هل تُرى هو الهواء نفسه الذي سوف تسمعه أمي في بيتها الثاني؟». وعندما ترعد السماء تساءلت: «هل أمي ستسمع الرعد نفسه وهي في بيتها؟»، وعندما نادت «هو هو هو» تساءلت إذا كان الهواء سيحمل صدى صوتها إليّ وأنا في بيتي... ها هي الشجيرات التي كنت أفكِّر أنَّها مثل شعري الجعد،

والتي كانت تُقَصُّ بطريقة هندسيَّة أكل اللون البنيُّ اخضرارها الخارجيّ.

نصل إلى بيتي. وما إن تلوح سيَّارة الإسعاف حتى يتعالى أصوات بناتي، وأصوات الجارات، وزوجات أصحاب الدكاكين، وكلّ من أعرفه في الحيّ. بنت صغيرة تسأل أمها إذا كانت هذه «جنازة المرا اللي بتعطي هدايا من أميركا؟». يتعالى النحيب، يتوقَّف الموكب، وكان أصحاب الدكاكين قد قاموا بكنس الشارع ورشّه بالماء، وأسدلوا واجهات دكاكينهم، وفتحوا الراديو على محطة تبثّ القرآن الكريم.. كلّما ناحت وعلا أصوات النساء بكت بناتي، فالكلّ ينتظر أن أشبع من الحي، ومن البيت الذي لن أراه بعد الآن. يتعرقل السير، ومع ذلك تنتظر السيَّارات بكلّ صبر.

أغادر بيتي إلى الأبد، ونتَّجه طلوعًا إلى بيت شقيقتي الذي سكناه بعد قدومي من الجنوب مع أمي وأخي كامل، فنفارق بيروت متَّجهين إلى الجنوب... إلى حيث ولدتُ، وإلى حيث سأدفن، تحت الشجرة الوارفة، التي تطلّ على الوهاد والأودية، إلى جانب قبر محمد، حيث جمعونا في قفص واحد «كعصافير الحب»، وحيث كنت آتي وأغسل القبر وأضع الزهور، مع أنِّي تقاعستُ مرَّةً عن زيارة القبر رغم وجودي في الضيعة، إذ كان قلبي يخفق ويلهث، ولم أكمِّل الطريق بل وعدت (محمد) بأنِّي سأقرأ له الفاتحة عن بعد. وكنت عندما أزور المقبرة أطوف وأقرأ الفاتحة على من أحببته في حياتي، وأشيح بوجهي عمَّن أبغضتهم.

أدفن وسط الأدعية والآيات القرآنيّة، وصمت الرجال، بينما بقيت النساء في بيت ابنتي التي قلّما كانت تزوره، ينحنَ ويبكينَ عليّ. تطلب بناتي من «الندّابة» أن تقرأ القرآن فقط، وليس مجلس العاشوراء أو خطبها الحماسيّة الدينيّة، خوفًا على قلب ابنتي «كدسومة». لكنّ الندّابة تمضي في ندبها لتجعل النساء يبكينَ ويضربنَ صدورهنّ حزنًا على الحسن والحسين وعلى ابنة الحسين سُكينة، ثم ينضمّ الرجال إلى النساء حيث الطعام الوفير، والذبيحة التي ذبحت عن روحي، كذلك خمسون قطة جاءت من الضيعة وجوارها، تنتظر في الجَلّ، حول البيت. تنصب المونّسة «الخيمة» حول قبري من أجل أن يلازمني مقرؤون، ليلاً نهاراً، ولمدّة ثلاثة أيام، فأستأنس بهم، خصوصًا أنّهم تركوا مصباحًا في أعلى الخيمة حتى لا أبقى في الظلام. ولم أكن الوحيدة التي دفنت هذا اليوم بل أيضًا أخت محمد التي كانت واسطة حبنا، فقد لبّت طلبي عندما كنت أتوسّل إليها، منذ سنوات، وأتوسّل إلى غيرها من النساء بألاّ يتركنني أدفن وحيدةً»: «أريد رفيقة تموت معي». وكنّ يضحكن لطلبي، وكلهنّ ظنّ أنّني لا أقصد ما أقوله. تزورني في فجر اليوم التالي بناتي وشقيقتي كاميليا وصديقتي «ف» والمقرّبات منّي، خصوصًا جارتي التي كنت أحبّها كثيرًا. يتقدّمن منّي وهنّ يحملنَ البخور، فتجلس صديقتي «ف» قرب المقرئ وتسأله إذا كنتُ أسمعه، ثم تعطيه بعض الحبوب حتى يمصّها من أجل أن يصل صوته إليّ رخيمًا، لا كصوت الضرير الذي كنّا نضحك من صوته ونسدّ أنوفنا من رائحته.

تتكوَّم حولي بناتي الخمس، وابني الصغير، بينما يتَّصل ابني الكبير الذي كان يحلِّق فوق سماء المحيط عند موتي، ويحادث أولادي بالهاتف طالبًا تصوير كلّ ما يحدث لحظةً بلحظة، والألم يعتصر قلبه وقلبي معه. يخبرونه أنَّهم نقشوا على رخام قبري اسمي وتاريخ مولدي ونهايته، وبعض الآيات القرآنيَّة، والكلمة الأحب إلى قلبي وقلبهم «ست الحبايب». يغرسن شجرة الفتنة بعد أن أتين بها من شرفتي في بيروت. يضع حفيدي سيكارةً على قبري، ويطلق عليّ «ملكة جمال المقابر». وكانت الشجرة التي تظلّلني تنزّ بالصمغ، فالتصق على ملابسهنّ وأحذيتهنّ، فتضاحكوا قائلين إنِّي لن أدعهم يعيشون من دوني... رغم أنِّي أرقد بين أريج الزهور وزقزقة العصافير، وأطلّ على الجبال والأودية.

ولم أترك أولادي... آتي إليهم في الصحو، وفي النوم، سعيدةً وتَعِسةً، كلّ منهم يندم على كلمة قالها. أو لم يقلها لي، تمامًا كما كانت أمي تفعل بي... آتي إليهم بما يسمعونه عنِّي من الصديقات خصوصًا عندما رأت بناتي الكثير من هداياهنّ لي تتحلّى بها الكثير من النساء. آتي إليهم عبر الأوراق الكثيرة الذي خلفها محمد وقد احتفظت بكلّ ورقة، بإيصالات المدارس، وبورقة من مديره يستفهم عن سبب تركه العمل قبل ربع ساعة من الدوام، فيردّ عليه محمد بأنَّه بحث عنه ليأخذ إذنًا منه للانصراف، لكنَّه لم يجده... أولادي ينقّبون في مذكرات محمد، برسائله لي ويسلّمونها لابنتي حنان، فتتوقف عند وصية كنت قد كتبتها، بواسطة محمد، أقول فيها إنِّي

أترك اثني عشر سواراً لبيعها وإنفاقها في سبيل زيارة بيت اللّه الحرام، محبسًا وخاتمًا كبيراً لابنتي ـ أ ـ، جوزين حلق، جوز إلى حنان وجوز إلى فاطمة، نصف الألبسة لحنان، والنصف الآخر لفاطمة، التخت والسجادة والكنابايات والخزانة لابنتي ـ أ ـ، وما إن ترى حنان أنَّ اسمها يأتي دائمًا قبل أختيها فاطمة وأ ـ حتى يعمّها الفرح والتأثُّر كونها جاءت على بالي قبلهما.

تمسك حنان بالوصية طويلاً، تقرأها تحاول أن تعرف لماذا أردت كتابتها بعد عام واحد من طلاقي من والدها وزواجي بمحمد؟ ثم تكتفي بأنَّها كانت على بالي حتى عندما أصبحت في بيت آخر.

تأثُّر حنان بما تركه محمد من رسائل ومذكَّرات كان كبيراً. تتمنَّى لو أنَّها تحدَّثت معه، وقرأت كلّ ما كتبه وهو حيّ. تتصل بإخواتها وتبكي، يذكِّرنها بأنَّها كانت صغيرة فتحتجّ وتقول: «كان عمري ١٥ سنة!». حفيدتي، ابنتها هي التي جعلت أمها تهدأ لتقول لها: «كأنَّه كتب كلّ شيء من أجل أن تقرئيه الآن وتكتبي قصّتهما». تمسك حنان بالورق الباهت، بقطعة من الكرتون، بالصفحات المتآكلة، بالأوراق الصفراء، أو بلون زهرة الكاميليا. أوراق رسميَّة عليها شعار «الجمهورية اللبنانيَّة»، إنذارات مخالفة، إنذارات رسميَّة، نداء من فخامة السفير جان هيلو، المندوب العام لفرنسا في لبنان، يخاطب فيه اللبنانيِّين لأنَّهم سينتخبون المجلس النيابيّ الأول للبنان المستقل. على كلّ هذه الأوراق كتب محمد

لواعج قلبه، الشعر والغزل «نفسي كئيبة، لا تمرّ لحظة إلاّ وأفكّر في وحدتي بهذا الكون، رغم امتلائه بالعالم، لأنّي بعيد عنك». «ها هي الدقائق تمرّ بسرعة وأنا جالس قبالتها، تناشدها عيناي مناشدة عطف وحنوّ، فترنو إليّ وكأنّها تقول لي أنَّ ما بقلبك لهو صورة مصغّرة عمّا بقلبي أيُّها الحبيب. لقد قست الأيام على قلبينا المملوئين بالعاطفة العنيفة! فقرَّرت إبعادك أيَّتها المعبودة الحبيبة مدَّةً طويلةً سيكون فيها عذابي أليماً».

آخر ما تقرأه حنان رسالتي إليها التي أمليتها على ابني الصغير في إحدى زياراتي الطويلة إلى أميركا، ثم عدلت عن إرسالها إليها: «لا تقسي على ماضٍ تولّى، إنَّه كان حلواً لأنّي تحدَّيت الجلاّد، وتحدَّيت القيود في معصمي، واسترجعت حريتي من الجواري المباعة بلا ثمن. القدر كان أقوى منّي وحطَّمني، وأخذ كلّ شيء منّي، كلّ شيء، وأصبحت شجرةً عاريةً بلا أوراق، أوراقها تقفز من رصيف إلى رصيف مع رفاقها الريح والهواء، وأصبحت شراعًا بلا شاطئ، ولمّا شاهدتُ صورتكِ الجميلة... وسمعت كلامك العذب الرنان، استرجعت جمالي من جمالك، واسترجعت ذكائي من ذكائك، والشجرة العارية تنبت من جديد أوراقًا لامعة، ستبقى لامعة مدى القدر والحياة. إلى حبيبتي حنان وطارق وجمان وفؤاد....... «كلام كاملة».



«حكايتي شرح يطول»

ها هي حكايتي كتبتها لي ابنتي حنان... حتى إذا رويتها لها توقفت عن لوم نفسي. كنّا نجلس معًا من غير آلة تسجيل، تخطّ في دفاترها الصغيرة التي تشبه المفكّرات التي ألصقت عليها الصور: ومنها صورتي وأنا أتسلّم كأسًا فضّيّةً عندما توجّت إحدى بناتي ملكة الرقص، لأهرع إلى أحدهم في لجنة الحكم طالبة إليه أن يتظاهر بتقديم الكأس لي. ومنها أيضًا صورة امرأة عارية الصدر، وصورة نساء فوق درّاجة ملتفات بالعباءات السوداء، يقودها شاب. كنت أستهلّ حديثنا قائلةً: «حكايتي شرحٌ يطول، لوما الجرادة ما علق عصفور». ولم تسألني حنان قطّ ما معنى هذه الكلمة إذ أيقنت أنّ عصفوراً لحق بجرادة، لذلك وقع في الفخّ. ما إن أصابني المرض حتى توقفت حنان عن كتابة حكايتي، خبّأت كلّ الأوراق في كيس،

وأخفته في مكان ما في إحدى خزائنها، ثم تعود إلى أوراقي وتكمِّل حكايتي بعد مرور عامين من وفاتي.

تخبر حنان أعزّ صديقاتها عن عنوان الكتاب، فتستغرب لأنَّها لم تسألني قطّ ما تعني هذه الكلمة. فتقصّ صديقاتها القصة مبتدأة: «حكايا بكايا، شرح يطول، لو ما جرادة ما علق عصفور»، عن ملك كان يتمشَّى في البساتين عندما دخلت جرادة بكمّ ثوبه الفضفاض، وإذا بعصفور يلحق بها داخل الكمّ، يخيِّط الملك الفتحة ويجلس على العرش سائلاً رعيّته: «ماذا في كمي؟». ولم يعرف أحد ما في كم الملك، إلى أن وقف بين يدي الملك رجل يدعى عصفور، كان قد تلوع من حبّ امرأة اسمها جرادة، و لم يكن على باله إلاّ صورة حبيبته، فاستهل حديثه قائلاً: «حكايا بكايا، شرح يطول، لو ما جرادة ما علق عصفور».

الفهرس

تُكمل حنان الشيخ في حكايتي شرح يطول مسيرتَها الأدبية الشاهدة، المحرِّضة والكاشفة لمجتمعنا. تدخل كالأشعة السينيّة في ظلام أنفسنا وتقاليدنا وحقيقتنا المُرَّة بكل إصرار ومثابرة، غير مبالية إنْ كان هذا البوح - الذي لا مكان له سوى الصدق - سيسبِّب الحرج والاستنكار.

حكايتي شرحٌ يطول هو سيرة حياة أمّها «كاملة» الذي قرَّر الجرذ مصيرَها. تُجبَر على الزواج والإنجاب وهي ماتزال تحلم بالحلوى وأساور الشمع الملوّنة. ومنذ ذاك الحين وهي تتأرجح بين أمواج الحياة، تعلو مع الموجة السعيدة وتهبط مع الموجة المؤلمة، فيصبح عالمها أكثرَ غرابةً من عوالم القصص والروايات.

تؤكّد حنان الشيخ من جديد موهبتها في القصّ المميّز ورصد الأحداث بكل زخم وشفافية، محوّلةً بذلك أمَّها إلى بطلة من بطلات رواياتها.

حكايتي شرحٌ يطول احتفالٌ بالحياة وبالموت، وشرحٌ للنفس

تصميم الغلاف: نجاح طاهر